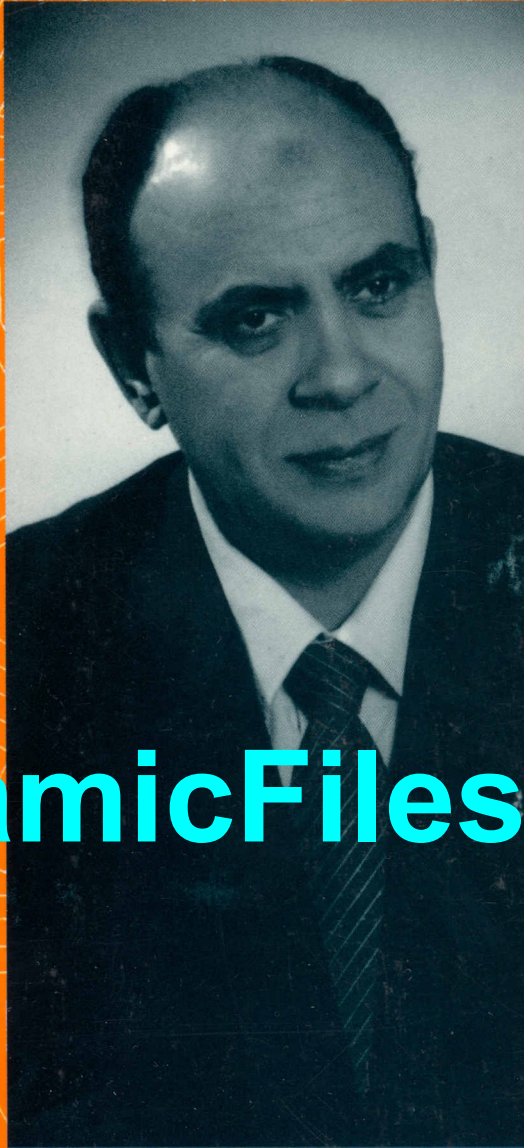


تم تحميل هذا الكتاب
من موقع الملفات الإسلامية
<http://islamicfiles.net>

الطبعة
الثانية



islamicFiles.Net

الإسلام

كما عرفه الصحابة

د . مبروك عطية



الدار المصرية اللبنانية

تقديم

الحمد لله الذى أنزل الكتاب على قلب نبيه ، فثبت به فؤاده ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين ورحمة الله - تعالى - للعالمين سيدنا محمد ، وعلى آله الطيبين ، وصحبه الغر الميامين ، ومن اهتدى بنورهم إلى يوم الدين .
وبعد ...

فقد كنت أقرأ فى كتاب من كتب التفسير ، وأنا يومئذ طالب فى الأزهر الشريف ، وكان والدى الفلاح - رحمه الله تعالى - نائماً إلى جوارى ، وسمعتى وأنا أقرأ فى تفسير سورة يوسف ، ما جاء فى هذا الكتاب وغيره من الإسرائيليات المدسوسة ، ومما قرأته : أنه عليه السلام حين قالت له امرأة العزيز ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾⁽¹⁾ وقد غلقت الأبواب ، وأعدت العدة لنيل لذة الحرام ، دنا منها ، وجلس منها مجلس الرجل لزوجته ، وهمم بها ، ناداه جبريل : كيف تفعل فعل السفهاء ، وأنت مكتوب فى الأنبياء إلى آخر هذا الدخيل ، وعندئذ هب والدى ، وقال بفطرته :
- ما هذا ؟!

قلت : كتاب تفسير كبير !

قال : مزق هذا العبث ، وانس ما قرأته !

(1) سورة يوسف : 23 .

وصاح الرجل :

- هذا كلام فارغ ، أعوذ بالله السميع العليم ...!

رفض والدى ما سمع ، وهو لا يدري معنى الإسرائيليات ولا غيرها من المصطلحات ، وسألنى :

- أترسون هذا الكلام فى الأزهر ؟!

قلت : لا ، ندرس تفسير النسفى .

قال : ما لى مصلحة بالأسامى ، هل هذا الكلام تدرسونه ؟!

قلت : لا . فقال : ولماذا تطالعه ؟! قلت : زيادة معرفة ؛ فأنت طالما قلت لى العلم فى الكراس لا فى الراس ، وتوصينى بمزيد من الاطلاع ، فباغتني : والله لو كنتم تدرسون ذلك فى الأزهر ، لمنعتك من الذهاب إليه ! يا ولدى ، ليس هذا اطلاعا ، إنما هذا ضلال ! فما كان لنبى معصوم أن يفعل هذا !

والشاهد من هذه القصة أن الدين دين الفطرة السليمة التى تقبل صحيحه ، وتنفر من موضوعاته ، وما دخل فى تاريخه من دخل .

ونجوم الورى ، وهم صحابة النبى - ﷺ - قد أسلموا بفطرتهم السليمة التى جاء الدين على منوالها ، وقد وعَّاهم النبى - ﷺ - وقال لهم إثر دعوته : هل فى ذلك من بأس ؟ قال أحد الجالسين : والله ما فيه من بأس !

وماذا فيه ، وهو يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى !

وماذا فيه من بأس ؟ وهو يدعو الإنسان إلى عبادة الله وحده ، الذى خلق من عدم ، وسوى ، ورزق ، وهدى ، وهو السميع العليم ، القريب المجيب : ﴿ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِثْلَ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾⁽¹⁾.

لقد دعا القرآن الكريم الناس إلى التفكير فى الخلق ، وعشرات الآيات تنطق بذلك : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾⁽²⁾ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾⁽³⁾.

ثم يأتى التحدى بهدف الدعوة إلى الإذعان ، وإظهار الإيمان : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾⁽⁴⁾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾⁽⁵⁾.

فليس الهدف من التحدى : إثبات عجز الناس والجن عن الإتيان بمثل القرآن الكريم فقط .

وإنما الهدف : الدعوة إلى مقتضى هذا العجز ، أى : إن كنت عاجزا - مع أنك أوتيت من الفصاحة والبيان ما سارت به الركبان - فاعلم أنه كلام الله - وآمن به من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال .

(1) سورة الروم : 40 .

(2) سورة البقرة : 21 ، 22 .

(3) سورة البقرة : 23 ، 24 .

وهذه الوقفة مع التحدى ، من الوقفات المهمة مع نفحات القرآن الكريم ؛ لأن التحدى كما يعرفه كثير من الناس : إثبات قدرة المتحدى (بكسر الدال) وضعف المتحدى (بفتحها) ، وينتهى الأمر عند ذلك ، وما ذلك مغزاه في كتاب الله ، إنما معناه : أنه إذا ثبت العجز وجب الإذعان عند مَنْ لديه عقل يتدبر ، وفي رأسه عين تبصر ، هو لا يصرف الناس فقط عن محاكاته والإتيان بمثله ، بل دعاهم ودعا من يتوهمون أنهم يعينونهم من الجن ، حيث قال في آية الإسراء : ﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾⁽¹⁾.

وهذا اجتماع متخيل ، وذكر الجن هنا من باب التوكيد ، لا من باب الاجتماع مع الإنس حقيقة ، لو حدث هذا واجتمع الضدان ، وأعان بعضهم بعضًا ، وجلسوا في مكان واحد ، وأحضر وأدواتهم واستجمعوا ملكاتهم ، وأخذ بعضهم يملئ بعضًا ، وبعضهم ينظر في عمل بعض على نية واحدة ، وتعاون تام ، وإجماع على وحدة الهدف ، ما استطاعوا آخر الأمر أن يأتوا بمثله أبدًا ؛ مع أنه مؤلف من لغتهم ، وأبنيته مركبة من حروفهم : (الم) ، و (حم) ، و (ص) ، و (ق) ، و (ن) .

لكنه كما قال عبد القاهر الجرجاني - إمام البلاغة - النظم الجليل قال الله عنه : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾⁽²⁾ ، وقال عنه في سورة النساء : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾⁽³⁾.

(1) سورة الإسراء : 88 .

(2) سورة فصلت : 42 .

(3) سورة النساء : 82 .

وكم من عالم صرّح بذلك حيث قال : لو عرض على مؤلف من مؤلفاتي ، لقلت : لو وضعت كذا مكان كذا ، أو لحذفت كذا ، أو لأضفت كذا... وهكذا .

وكم من مناقشة لرسائل علمية ، يستمع إليها غير المتخصص ، فيزعم أن صاحبها لن يحصل على الدرجة العلمية التي من أجلها ألف تلك الرسالة ؛ مما يستمع إليه من ملحوظات الأساتذة ، وهؤلاء الأساتذة يقولون : إننا جميعًا ننشد الكمال . ولا كمال إلا لله عز وجل .

إن المعجزة الكبرى ، والآية العظمى التي جاء بها خاتم النبيين محمد - ﷺ - هي القرآن الكريم الذي نزل بلسان عربى مبين ، وقد استمع إليه الناس فقالوا : إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما هو من كلام البشر .

وقد تغير وجه (عتبة بن ربيعة) قتيل بدر على كفر حين استمع إليه ، وقال مَنْ أرسلوه : لقد عاد إلينا بغير الوجه الذى ذهب به إلى محمد (ﷺ) .

لقد أثر الحق في وجهه ، ولمع نوره على قسماته ، وكاد يسلم ، وقد نصح للقوم أن ينصرفوا عن أذى محمد - ﷺ - وأن ينتظروا عاقبة أمره : إما أن يفوز ويعلو فيعود فوزه عليهم ، باعتبارهم قومه وأهله ، وإما أن يندثر ، فيكفيهم غيرهم ، لكنهم قالوا : سحرك محمد بكلامه .

وفي إسلام (الطفيل بن عمرو الدوسي) - ﷺ - ما يكشف لنا عن حقيقة ما زالت تتناقلها السنون والأجيال وهي راسخة رسوخ الجبال ، ألا وهي : إعمال العقل ، فقد ورد مكة كما يردها الناس ، ولما كان علمًا مشهورًا وضيئًا عزيزًا على مكة ،

نصح إليه زعماءها أن ينصرف عن فتى قريش ، وعللوا ذلك بما يدعيه الأعداء ، وضرائر الحسنة اللاتي يقلن لوجهها إنه لدميم ، وما به من دمامة لو أبصر مَنْ يستمع إلى ذلك ، وما به من قبح ، وإنما هو كصفحة الصبح . لقد قالوا له : إنه يفرق بين المرء وزوجه ، وأبيه وأخيه ، وعشيرته وقومه ، حتى إنه سدّ أذنيه بقطن كيلا يسمعه ، ثم بدا للرجل أن هذا ليس تصرف العقلاء ، وإنما هو فعل السفهاء ، الذين لا يعملون عقولهم ، وإنما يسيرهم غيرهم . قال في نفسه : أنا رجل عربى ، وشاعر ، وأعرف الجمال من القبح وأفرق بين ضروب القول ، فلماذا يمنعوننى سماعه ، أليس الأجدر بمثل أن يستمع ثم يحكم بنفسه ، ونفض ما فى أذنيه واستمع إلى رسول الله - ﷺ - فهداه الله إلى الحق ، وأسلم ، وكان رسول رسول الله - ﷺ - إلى قومه .

وحين عاد إلى قومه مسلماً لقيه أبوه ، فقال له : إليك عنى ، فلست منك ولست منى ، فلما قال له أبوه : ولم ؟ أجابه : بأنه تبع دين محمد - ﷺ - فإذا بأبيه يقول له : دينى هو دينك ، وهكذا قالت زوجته .

وما حدث فى إسلام (الطفيل) حدث بين الأخوين فى المدينة المنورة : (حويصة ومحبيصة) ، فقد أسلم الصغير قبل الكبير ، وقال له : لو أمرنى رسول الله - ﷺ - بقتلك لقتلتك ، فقال الكبير : إن ديناً بلغ بك هذا المبلغ هو الدين الحق .

ما يكون لنا أن نمر على هذين الموقفين ، أو أن نطلع على هاتين القصتين دون تدبر ، فهما يكشفان عن طبيعة العلاقة بين أفراد الأسرة فى هذا الزمان الذى هو خير القرون كما قال رسول الله - ﷺ - وإنما كان خير القرون ؛ لأنه زمان خير الناس من المؤمنين برسالة الإسلام .

إن الأخ إذا ، كان على يقين : أن أخاه هيهات أن يقتله على وهم واتباع باطل . بل إنه ما كان له أن يقتله بسبب سحر ، أو دجل ، أو خلاف ذلك ، إنه شىء واحد لا غير ، الذى يجعله ينفذ القتل فيه ، أن يكون على حق ؛ فمحمد - ﷺ - هو الحق ؛ لأنه إن أمر أخاً بأن يقتل أخاه قتله ، قتله لأنه يستحق القتل .

ومحمد - ﷺ - لا يأمر الأخ بقتل أخيه ، ولا الابن بقتل والده ، ولا الوالد بقتل ولده ، إنما يأمر بالبر والإحسان ، والصلة والتواصل بين الأرحام ، والدليل على ذلك : أن (عبد الله بن عبد الله بن أبى سلول) جاءه يستأذنه فى قتل أبيه ، وكان أبوه رأس المنافقين بالمدينة ، فلم يأذن له الرسول - ﷺ - وقال : لا يتحدث الناس بأن محمداً يقتل أصحابه ، وأمره بالإحسان إليه ، والأمر بالإحسان إليه أمر من الله عز وجل القائل فى سورة لقمان : ﴿ وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾⁽¹⁾ . وحين مرض أوصى - ﷺ - بأن يعلم بوفاته إن قضى ، وقد كان ، وصلى عليه رحمة بولده الذى كان مسلماً جليلاً ، وقلباً لله خالصاً .

وقد كان للأخوة امتداد فى الإسلام ، عز أن يكون له نظير فى الدنيا ، قال الله عز وجل فى سورة الحجرات : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾⁽²⁾ .

وقد آخى - ﷺ - بين المهاجرين والأنصار ، وكانت تلك المؤاخاة ثمرة من ثمرات الهجرة الغراء ، ومنهجاً دائماً إلى قيام الساعة ، يؤمن به ويتنهجه من يتبع هذا الدين . وأمامنا موقف من مواقف تلك الأخوة يبين لنا : صدق معانيها والعمل

(1) سورة لقمان : 15 .

(2) سورة الحجرات : 10 .

بمقتضاها، وهو موقف (حذيفة بن اليمان) - رضي الله عنه - حين قتل المسلمون أباه (اليان) يوم أحد، فقد خرج لنيل الشهادة والمشاركة في الجهاد، لكنه أتى من جهة المشركين، فزعم المسلمون أنه واحد منهم، فأخذوا يرمونه و(حذيفة) يقول: أبى أبى، ولا أحد يسمعه منهم لاحتدام الموقف، فلما خر صريعاً قال حذيفة: يغفر الله لكم أجمعين.

دعا لإخوانه المسلمين؛ لأنهم قتلوه خطأ، إنه يعلم أنهم لا يمكن أن يقتلوه عمدًا، فالله عز وجل يقول: ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾¹.

إن قتل المؤمن غير مستساغ في دين الله - عز وجل - غير وارد أبدًا على الذهن، ذهن من يتصور حقيقة هذا الدين، الذي هو دين الحياة لا الموت، ودين الإحياء لا القتل، ثم إنه لا يقتله من نزاهة وعزوف عن ارتكاب جريمة القتل، وإنما هو لا يقتله؛ لأنه متعبد بالحرص عليه وعلى مصلحته، وعلى السعى في قضاء حاجته، فالمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، وكل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله عرضه.

وهذا ليس من باب الآداب والمندوبات، وإنما هو من باب الواجبات، كالصلاة المكتوبة وصيام رمضان، وأركان الإسلام، ولست بواجد في التاريخ عبارة كعبارة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حين قال: - وقد عرف أن الذي قتله ليس مسلمًا - : الحمد لله الذي عصم المسلمين من دمي، أو الحمد لله الذي لم يجعل قتلى على يد مسلم، ذلك لأنه يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ومما يحبه لنفسه ألا يقتل مسلمًا.

إنما هم المسلم أن يُقتل مسلمًا، لا أن يُقتل مسلمًا، ورحم الله (خبيب بن عدي) حين قال:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا على أي جنبٍ كان في الله مصرعي

وتلك دعائم، أسسها الإسلام الذي دعا أتباعه إلى الحياة؛ فإن فهم الناس أن دين الله تعالى اختلاف مذاهب فقهية، وتناحر بين المسلمين حول مسائل الوضوء، وكيفية العمامة، وما الذي يترك من اللحية وما الذي يؤخذ، وغير ذلك... فقد أساءوا فهم دينهم الحق.

ومن أجل ذلك.. كتبت في هذا الموضوع: «الإسلام كما عرفه الصحابة» لقد أسلم الناس في فجر الإسلام، ولم يكن لمدرسة فقهية من وجود، ولا لعالم مثقف من رأى، إنما أقبلوا على دين يجمع ولا يفرق، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، في كلمات محددة عبّر (جعفر بن أبي طالب) - رضي الله عنه - عن حقيقة هذا الدين حين قال للنجاشي: أيها الملك، كنا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونسئ الجوار، ونقطع الأرحام، ويأكل القوى فينا الضعيف؛ فبعث الله إلينا رسولاً نعرف حسبه ونسبه وصدقه، فأمرنا بعبادة الله عز وجل وحده، وحسن الجوار، وصلة الأرحام، وأن يرحم القوى فينا الضعيف.

وهذه الدعائم، قد توارت شيئاً فشيئاً في خضم الدعوة إلى الله عز وجل عن طريق أحكام الشريعة الغراء، فأصبح هم الناس اليوم معرفة مسائل الفقه، وخلاف الفقهاء فيها، وأصبحت هنالك مسائل معينة باتت محفوظة معروفة لدى جميع الناس: الطلاق وزينة المرأة، والأغاني، والبنوك، ونحوها، وأصبح المتحدثون كذلك يتحدثون في مناسبات الليالي والأيام، كليلة القدر وفضلها، وعشر

ذى الحجة، والإسراء والمعراج، والأدعية، التى سجلت فى شرائط، وصار لكل عام دعاء. خاطبنى أحد الفضلاء، وأخبرنى بأن ولده الصغير طلب إليه أن يأتيه بشرط دعاء لأحد الشيوخ، قال: فحمدت الله فى نفسى وقلت: هديت يارب ولدى إلى طاعتك، وهرعت فاشتريت له الشريط، وبعد خمس دقائق جاءنى يبكى، فسألته عم أبكاه؟ فأخبرنى بأن هذا دعاء العام الماضى، وهو يريد دعاء هذا العام، وسألت مخاطبى عن هذا: هل هناك دعاء لكل عام يختلف باختلاف الأحداث؟ فقال: أبداً، إنما هى صناعة الكاسيت والتجارة، تقديم وتأخير، وزيادة هنا ونقص هناك، تذكرت - والرجل يقص على ذلك - ما قاله (أبو حيان) - رحمه الله - وغيره فى الدعاء الجامع المانع الوارد فى سورة الكهف على لسان الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم الله هدى حيث قالوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾⁽¹⁾. قال العلماء: هذا جامع لكل دعاء، لأن الله تعالى إذا رحمنا فقد نزل علينا الغيث، وأثبتت أرضنا ونمت صناعاتنا، وستررت عوراتنا، وشفينا من أمراضنا، وكل خير قد تحقق بلا شك لنا، هذا فضلاً عن رحمته بنا يوم الدين: يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وإذا هيا الله - تعالى - لنا من أمرنا رشداً فقد وفقنا إلى طريق الصواب: ﴿عَسَى رَبُّوْا أَنْ يَهْدِيَنِ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾⁽²⁾.

ثم إن الدعاء فى الإسلام مرتبط بالعمل، أى مقرون بالعمل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾⁽³⁾. فالدعاء مع رفع القواعد، وقد قال النبى - ﷺ - يوم بدر: «اللهم،

(1) سورة الكهف: 10.

(2) سورة القصص: 22.

(3) سورة البقرة: 127.

نصر ك الذى وعدتنى»، قال ذلك وهو فى ساحة الجهاد، وأبو بكر - ﷺ - يترفق به ويشفق عليه، أما كان الصديق - ﷺ - فى حاجة إلى دعاء النبى - ﷺ - وليكن ما يكون، وما عسى أن يكون؟ والنبى ﷺ حبيب الله ورسوله ومصطفاه، لقد فهم الرجل أن دعاء رسول الله - ﷺ - مستجاب، ولكنه وجد رداءه - ﷺ - قد سقط عن كتفه، فخاف عليه ورق له، فقال له: إن الله منجز لك وعده يا رسول الله.

ثم إن الأحاديث الصحيحة، قد أثبتت أن الدعاء والذكر بالجوامع من الفطنة، قال ذلك النبى - ﷺ - لعائشة - رضى الله عنها - : «اللهم إنى أسألك الخير كله وأعوذ بك من الشر كله». وحين شكوا إليه الناس أنهم لا يحفظون كثيراً من الدعاء، قال لهم: قولوا: «اللهم إنا نسألك من خير ما سألك عبدك ونبيك محمد - ﷺ - ونعوذ بك من شر ما استعاذ بك منه عبدك ونبيك محمد - ﷺ -».

وكانه - ﷺ - يعلمهم بذلك اليسر والتيسير ويجمع لهم الخير، وقد ورد أنه قال لإحدى أمهات المؤمنين التى وجدها تسبح طويلاً: لقد قلت كلمات هى خير مما قلت فى هذا الوقت الطويل: «سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ومداد كلماته، وزنة عرشه، ورضاء نفسه».

كل ذلك وغيره من الفقه الغائب، حيث أصبح الدعاء شرائط طويلة، وبكاء، ودموعاً، ورأينا أدعية مؤلفة أشبه ما تكون بالأحلام، حيث يقول القائلون:

اللهم إنا نسألك قلب فلان، ودين فلان، وثواب فلان من الأنبياء، يريدون توليفة مركبة، كالذى يقول من الشباب: أريد زوجة عيناها كعيني فلانة، وساقها كساق فلانة، وصدرها كصدر فلانة من المغنيات والممثلات.

وأصبحت كلمة « حرام » منتشرة انتشار النار في الهشيم كما قيل ، والله عز وجل يقول : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾¹ . فما دام أى إنسان يفتى ، وأى مرتد هيئة المسلمين يقول : فما ذلك بمستغرب ، ونظرة واحدة فى أى مصدر معتمد من مصادر الفقه تكشف لنا عن خطورة ذلك ، فمن الأحكام : ما هو حلال ، ومنها ما هو حرام ، ومنها ما هو مندوب ، ومنها ما هو مكروه ، والمكروه إما لكرهية تحريم أو تنزيه .. وغير ذلك .

فإذا صارت الأمور كلها ما بين حلال وحرام ، فمعنى ذلك أن القراءة قد انتهت ، وأن الإفادة من جهد العلماء الكبار قد انعدمت ؛ صار الناس يطلقون كلمة « حرام » - وهى كبيرة على كل شىء ، حتى الذى شرب كويين من الشاي يقال له : حرام عليك ، والذى اشترى شيئاً من فاكهة يقال له : حرام عليك ، فأى ضابط لهذا ؟!

إن هناك فرقاً بين الدعوة إلى الله - عز وجل - عن طريق الحكمة والموعظة الحسنة ، وبين الدعوة إلى الله عن طريق الأحكام الشرعية .

إنما يخاطب بالتكليف المؤمنون الذين آمنوا ، وارتضوا هذا الدين ، على الرأى الراجح ، أما غير المؤمنين فليسوا مخاطبين بأحكام الشريعة ، فكيف ندعوهم إلى الإسلام ؟ هناك منهج للدعوة ، وهناك أحكام للشريعة ، فالمسلم يسألك : كيف أصلى ؟

وأنت تقول له : الطهارة أولاً ، من الحدثين : الأكبر والأصغر ، ثم هناك شروط صحة للصلاة : أن تنوى ، وأن تستقبل القبلة ، وأن ترتدى طاهر الثياب ، وأن تقف على مكان طاهر ، وأن تكون على علم بدخول وقت الصلاة .

واعلم أن تكبيرة الإحرام واجبة ، كما أن القيام واجب على القادر عليه ، ولا صلاة إلا بفاتحة الكتاب ، واقرأ بعدها ما تحفظ من القرآن الكريم ، واركع وأتم ركوعك بالطمأنينة ، وقم من الركوع قائلاً : سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد - بالواو أو بدونها وبالواو أفضل - واطمئن واقفاً ، ثم قل : الله أكبر واسجد على وجهك ، وقل فى ركوعك : سبحان ربى العظيم ، وفى سجودك : سبحان ربى الأعلى ، ثم اجلس ، ثم اسجد ، ثم قم للركعة الثانية ، تفعل ما فعلت فى الركعة الأولى ، وهكذا . ثم إن غير المسلم لا يسألك عن كيفية الصلاة ، وإنما يسألك عن هذا الدين برمته كما يقول العلماء ، كأنه يقول لك : لماذا أدخل فى هذا الدين ؟

ومن ثم .. ورد عن الصحابة .. أنهم سألوا رسول الله - ﷺ - عن دعوته ، قالوا : ما الذى تدعو إليه يا محمد ؟ وقد أجابهم الرسول - ﷺ - بما ورد على لسان (جعفر بن أبى طالب) ، من عبادة الله - تعالى - وحده ، ومن مكارم الأخلاق ، إنه دين الفطرة السوية ، دين الرحمة والشفقة ، والعفو والتسامح ، والتعاون على البر والتقوى .

وهى دعائم بناء الإنسان ، والله عز وجل يقول فى سورة الأنفال : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾¹ .

وكذلك المسلم، في حاجة إلى الوعظ والإرشاد، والنصح والتوجيه، وقد كان النبي - ﷺ - يتخول صحابته - رضوان الله عليهم - بالموعظة؛ خشية أن يملوا. ومن سنته - كما هو معلوم - : قصر الخطبة وطول الصلاة، وقد تحدث العلماء عن طول الصلاة فقالوا : إنها يكون طولها بالنسبة إلى زمان الخطبة.

ونحن بين أيدينا خطب النبي - ﷺ - ومنها خطبة الوداع، ما الذي جاء فيها؟ وهى في موقف يستحب فيه التطويل، حيث المشاعر الجياشة والعواطف المتدفقة، والحنين الشديد، والإحساس بالعزة والنصر ووحدة الصف خلف رسول الله - ﷺ - وكان اليوم يوم عرفة في حجة النبي - ﷺ - موافقاً يوم الجمعة، وما سمعنا أحداً يقول : إن هذه الحجة بسبع حجات كما نسمع اليوم، حيث انتشرت البدع والخرافات، وصار للناس ميول إلى أصحابها.

لقد اشتملت خطب النبي - ﷺ - على معالم عامة، ونصائح نافعة، وقد أوتى النبي - ﷺ - جوامع الكلم، ومعنى ذلك : أن ألفاظه (ﷺ) قليلة ومعانيها كثيرة، فكيف أصبحنا نرى خلاف ذلك عند كثير من الخطباء، على العكس تماماً، طول في العبارة والحروف وقصر وضعف في المعاني، خطب ركيكة ألفاظها ضائعة معانيها، منحرفة تراكيبيها عن أصول الكلام في العربية، مزعجة من له حسن وذوق ببلاغتها، لا يستمتع بها عالم ولا يفيد منها مستمع !

وإننى في هذا التقديم، أود أن أمهد لعرض بعض القضايا الشائعة في زماننا، والتي قد يتصورها كثير من الناس من الإسلام، ومنها ما ذكرت، من الاعتداء في الدعاء، وأذكر هنا كلمات رواها البخارى وغيره من حديث (المغيرة بن شعبة) أنه - ﷺ - كان يقول دبر (بعد) كل صلاة مكتوبة :

« لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد ».

وما أسير هذه الكلمات الغالية، وما أعظم معناها : فالجزء الأول : (لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيى ويميت، وهو على كل شيء قدير).. يترجم إقرار المسلم بأن الله عز وجل واحد أحد، فرد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، أى : إنه إقرار بالتوحيد.

وقد ورد عنه - ﷺ - أن هذه العبارة أفضل ما قاله - ﷺ - والنبئون من قبله، فإن توافرت للعبد كلمات هى أفضل ما قاله النبئون جميعاً فماذا يتبقى بعد ذلك؟ والعبارة الثانية : « اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » والتي تحتضن الآية الثانية من سورة فاطر، وهى قوله الله - عز وجل : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (1).

والآية والحديث معاً يشهدان بما عليه عقيدة المسلم الصحيحة، من أن الله عز وجل إذا أراد أن يفتح على عبد من عباده بشيء من رحمته الواسعة؛ فلن يستطيع كائن أن يرد هذا، والعكس : إذا أراد الله عز وجل أن يمنعه شيئاً، فلن يصل إليه هذا الشيء أبداً بواسطة أو بغير واسطة، فالملك ملك الله، وكل المفاتيح بيد الله وحده.

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ تُولِجُ

(1) سورة فاطر : 2.

الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ^١.

وكانت هاتان الآيتان بمثابة المقدمة التي لا بد أن تبنى عليها نتيجة ، وهذه النتيجة هي قول الله تعالى بعد ذلك مباشرة : ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ^٢ 》.

وأنا أقول : وما يترتب على قوله عز وجل : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ 》 .. إلى آخر الآيتين الكريمتين ألا يذهب مسلم إلى عرّاف أو دجال ، أو قارئ فنجان ، وألا يقضى عمره يفكر في أعمال السحر و(العكوسات) ؛ لأنه عبد الله ، يؤمن بأن الله تبارك وتعالى إذا أراد شيئاً ، فإنها يقول له : كن فيكون ، وأن الأمة لو اجتمعت : إنسها وجنّها ، أولها وآخرها على أن ينفعوه بشيء ، فلن ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله عز وجل له ، ولو أن هؤلاء جميعاً اجتمعوا في صعيد واحد على أن يضروه ، فلن يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا^٣ 》.

وفي سورة البقرة يقول تعالى في الآية التي يستشهد بها عشاق الحديث عن السحر والأعمال السفلية والوسطية والعلوية ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ^٤ 》. وهذه الآية الكريمة تشهد بأن كائناً - مَنْ يكون - لا يملك الضرر لك إلا بإذن الله ، وقد قلت لجماعة من السائلين عن ذلك : لو تصور أحدكم أن مائة

(1) سورة آل عمران : 26 ، 27 .

(2) سورة آل عمران : 28 .

(3) سورة التوبة : 51 .

(4) سورة البقرة : 102 .

رجل من الفرسان المسلحين يهددون رجلاً ، لكنهم لا يملكون أن يفعلوا فيه شيئاً إلا بإذن عظيم لهم ، فكيف يتصرف ذلك الرجل المقصود ؟

أ تكون وجهته إلى ذلك العظيم الذي لو أشار بإصبعه إليهم فتكوا به ، ولو أشار بالكف عنه لكفوا ، أم تكون وجهته إلى هؤلاء المائة فرادى وجماعات ينفق عليهم ماله ، ويضيع عندهم وقته وعمره وفي النهاية لن يكون منهم إقدام أو إحجام ، إلا بإذن عظيمهم وبإشارة منه .

إنه إذا كانت وجهته إلى عظيم الفرسان ، فاتبع منهجه وسعى إلى رضاه ، فقد سلك السوية ، واهتدى إلى الرشاد ، ووفر الجهد والعرق والمال .

وإن سلك المسلك الآخر فعمد إلى الفرسان ورشاهم ، وضع عندهم عمره فقد خاب مسعاه ، وصار كمن بسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه .

أو نذهب إلى سحرة لا يعرفون ولا يملكون ، ونحن أقرب ما نكون إلى رب الأرض والسموات ، ونحن سُجَّدٌ . ما أقرب السجود وما أحبه ، وما أيسره ! وهو بمعنيين : الأول : السجود المعروف في الصلاة ، والذي هو ركن من أركانها . والثاني : الطاعة لله عز وجل في جميع الأمور .

والله عز وجل يقول في أول سورة نزلت من الذكر الحكيم : ﴿ كَلَّا لَا تُطِيعُهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۝^١ 》 فكلما سجد العبد لله عز وجل ، ازداد من الله عز وجل قرباً ، عندئذ يدعوه وله منه الإجابة ؛ لأنه صار لله عبداً ، والله تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ^٢ 》.

(1) سورة العلق : 19 .

(2) سورة البقرة : 186 .

فالعباد هم الطائعون ، السالكون صراط الله المستقيم ، إذا هبوا من نومهم في السحر (الجزء الأخير من الليل) وهم على يقين من أن الله تبارك اسمه ينزل - وهو أعلم كيف ينزل - إلى السماء الدنيا في كل ليلة ، وينادى مَنْ هجروا فراشهم وتطهروا ، وركعوا وسجدوا ، يناديهم المولى عز و علا : هل من سائل فأعطيه ؟ هل من مستغفر لأغفر له ، ماذا يريد العبد بعد ذلك ؟ ألا يقول : يا رب ، أنا عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم اكفني شر خلقك ، أسألك الخير كله ، وأعوذ بك من الشر كله ، وصل وسلم على عبدك ونييك محمد - ﷺ - .

وهو على يقين أن الله - ﷻ - يجيب ، فهو سبحانه وتعالى سميع قريب مجيب الدعاء .

إن للكون رباً أيها السادة ، هيهات أن يعبت فيه العابثون ، ويعربد فيه المعربدون ، إلا لحكمة الله العظيم القائل :

﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَتْصَرَّ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ۖ ﴾⁽¹⁾

ولو أن مؤمناً سلك صراط ربه المستقيم ، ونال من الأذى ما لم ينل غيره ، وكان مؤمناً بأن الضر لا يكشفه إلا مالك الملك ، لكشف الله ما به من ضر .

هكذا يقول القرآن الكريم في سورة الأنبياء ، وفي قصة أيوب . ﷺ :

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۖ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا ۚ ﴾

وَذَكَرَىٰ لِلْعَبِيدِينَ ﴿١﴾ . فأى ذكرى للعبدين سوى أن يعلموا : أن الله تبارك وتعالى أرحم الراحمين . وأن يدعوهم ملتزمين الأدب في دعائه ﷻ والله ﷻ يقول في سورة الأنعام : ﴿ وَإِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ ﴾⁽²⁾ ، فإن قال قائل : وكيف يزور المريض الطبيب ؟ فالجواب أن الطبيب يعالج فقط ، ولكن الله ﷻ يشفى هذا ، وقد جعلت هذه الفكرة في ثلاثة فصول ، الأول : قضايا معاصرة بين الحق والوهم . والثاني : لماذا أسلم الصحابة ؟ والثالث : الإسلام في عقول الصحابة ، راجياً أن تكشف هذه الفصول عن الفكرة ، وأن تجدد العهد بالمعاني العالية التي عليها إصلاح واقعنا ومستقبلنا .

والله من وراء القصد وهو ولى التوفيق ..

أ. د. مبروك عطية

الفصل الأول

قضايا معاصرة بين الحق والوهم

ومما أذكره في ذلك الفصل : الخطاب الديني بين الموضوعية العلمية ، وبين لغو

الكلام .

من هذه الموضوعات : (التوبة) .

إن لدينا موضوعاً مثل « التوبة » ، وفيه يقول ربنا ﷻ : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾¹ . والتوبة من : تاب يتوب ، أى : رجع إلى الله وندم على ما عمل ، من سوء وعزم على عدم العودة إلى المعاصي ، وإن كان في ذمته حق من حقوق العباد لزمه أن يؤديه إليه ، إعلاناً عن صدق توبته وصحة نيته ، وفي آية الفرقان يقول تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾² .

فإذا تاب العبد توبة نصوحاً ، وجب عليه أن يعمل من الصالحات ، لعل الله تعالى يمحو ذنوبه التي اقترفها قبل توبته ، ليتحقق بذلك معنى التبديل التي تحدث عنه الآية ، والوارد كذلك في سورة هود ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ (آية : 114) ، فإن أخطأ

(1) سورة النور : 31 .

(2) سورة الفرقان : 70 .

العبد بعد ذلك عن غير عمد، وإصرار على المعصية تاب ورجع، فلا يأْس من رحمة الله الرحمن الرحيم، ولا أحد يحول بين عبد وبين رحمة ربه، ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾¹.

والله - ﷻ - يرضى عن التائبين، ويقبل منهم؛ فهو أشد فرحاً - وليس فرح الرب كفرح العبد - بتوبة عبده من أحدنا تضل راحلته في صحراء مهلكة وزاده عليها وماؤه، فلما أعياه أن يجدها نام يأْساً، وبعد فترة فتح عينيه فإذا بها، وفوقها مقومات حياته من زاد وماء، فهب فرحاً سعيداً بتلك المفاجأة التي ما كانت تخطر له على بال، هذا تصوير بياني لشدة رضا الله - ﷻ - بتوبة عباده.

تلك هي الموضوعية العلمية في الحديث عن التوبة من ندم عبد أنعم الله عليه فعصاه، فإذا به يشعر بسوء أدبه، ويندم والندم توبة على ما بدر منه من مخالفة، وإذا به يشمر عن ساعد الجد ويعمل الخير الذي يرجو به أن يكفر الله عنه سيئات ما عمل.

فماذا قال الناس في التوبة؟

شرائط وحلقات بلغت الثلاثين والأربعين ساعة، سمعت بعضهم يقول حين تتوب: تود ساعتها لو كنت قد عملت من السيئات أضعاف أضعاف ما عملت؛ لأن الله يبذل سيئات التائبين حسنات.

من قال ذلك؟ ومن ذا الذي يود أن لو كانت سيئاته كثيرة وهو يندم على القليل منها؟

لقد ورد في حديث (عبد الله بن مسعود) المسند الذي خرج (الطحاوي) وغيره (كابن عبد البر) في التمهيد: أن العبد يوضع في قبره، فيأمر الله ﷻ ملائكته أن يضربوه مائة جلدة، فيسأل الله التخفيف عنه، ويستجيب الله دعاءه، ويأمرهم أن يضربوه واحدة، فلما ضربوه واحدة امتلأ قبره ناراً، فقال: علام جلدتموني؟

فيقال له: لقد صليت صلاة بغير طهور، ومررت بمظلوم فلم تنصره. أيود العبد بعد أن عرف ذلك، أن يكون قد صلى ألف صلاة بغير وضوء، وأن يكون قد مرّ بألف مظلوم فلم ينصر واحداً منهم!

إنها شهوة كلام وسوء فهم، حدثت من راهب عابد ظن أن من قتل تسعة وتسعين نفساً لا توبة له، فأتم به الرجل المائة وقتله، ثم اتجه إلى عالم، فأخبره العالم أن له توبة، وأن عليه أن يترك البلد الذي يشجعه على المعاصي وقد كان، فلما مات في طريق الهجرة إلى الخير والبلد الجديد، طوى الله له الأرض من فضله ورحمته فكتب من أهل القبول، وفيما يقال سوء فهم لآية الفرقان، وليراجع الناس ما قاله (ابن مسعود وابن عباس) وغيرهما. وذلك مسطور في «كشف الزمخشري» و«البحر المحيط» (لأبي حيان)، وغرائب (الكرمانى) وغيرها.

ومن الموضوعات كذلك: «العلاج بالقرآن الكريم».

وخلاصة القول في ذلك: أن القرآن الكريم علاج للحياة بمعنى أنه المنهج السديد الذي يترتب على اتباعه صلاح الدين والدنيا والآخرة، وليس كتاب طب يتداوى به الناس من علل الأبدان مع أنه جمع نصف الطب كما قال المفسرون في جزء من آية، وهي سورة الأعراف: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾¹.

إِنَّ فِي كِتَابِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾⁽¹⁾ ، وفيه ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾⁽²⁾ وفيه كل أمر بمعروف ونهى عن منكر ، فإذا فعل العبد المعروف شرعاً ، واجتنب المكروه شرعاً ، فقد فاز فوزاً عظيماً ، فماذا يريد بعد ذلك ؟

وللمرض طبيب يعالجه ، اكتسب علاجه عن دراسة وعلم وخبرة ، وهو أى : الطبيب والمريض معاً ، يعلمان أن الله ﷻ يشفى ، وما الطب إلا سبب ، والسبب لا يبلغ الأخذ به غايته إلا بإذن الله - تعالى - وإرادته .

وقد أمر النبي - ﷺ - بالتداوى ، وقال : تداووا عباد الله ، والله ﷻ يقول : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾⁽³⁾ فَاتَّبَعَ سَبَبًا . فماذا بقى بعد ذلك ؟

ثم إن أول كلمة في تعريف العلماء للقرآن الكريم : « إنه كتاب الله المتعبد بتلاوته » ، أو كلام الله تعالى المتعبد بتلاوته ، وإنما كان متعبداً بتلاوته ؛ لأن حرفاً واحداً فيه ليس من كلام البشر ، فهو نص متواتر ثابت لا دخل فيه لبشر ، مبارك كله ، صحيح كله أنه من عند الله - ﷻ - .

فانظر إلى حرمة وكرامته وعلو شأنه ، وسموه وسمو غاياته وأهدافه ، فيه الذكر والموعظة ، والقصاص الذى هو أحسن القصص ، والأمر والنهى ، ثبت الله تعالى به

(1) سورة التوبة : 105 .

(2) سورة الفتح : 17 .

(3) سورة الكهف : 84 ، 85 .

قلب رسوله - ﷺ - ومن تمسك به فلن يضل أبداً ، ومن طلب الهدى فى غيره فلن يهتدى أبداً .

فماذا قال الناس فيه ؟

إن من يراقب الفضائيات ، يجد قنوات قد تخصصت فى النيل منه بقصد أو بغير قصد ، بأن جعلوه سوراً للزواج ، وسوراً للحب ، وسوراً للعلاج الكلى ، وسوراً لعلاج السرطان ، وأصبحنا نسمع ونشاهد المرأة لا تجيد تلاوة الفاتحة ، تقرأ عن بعد لمشاهد مريض فاتحة الكتاب ، وتهذى كما كان الكهان قائله بالفواتح الفاتحة ، افتح يا رب ببركة فاتحة الكتاب .. اشف هذا المريض ، وتقرأ الفاتحة قراءة خاطئة ، والناس يتصلون ويعتقدون أن هذه بركة ، فإن سألها عالم عن هذا العبث قالت : « إنها موهبة من الله » هذا كله دجل فى دجل ولا صلة له بالإسلام ولا بالعلاج .

إن هذا لعب بالقرآن الكريم ، وما يكون للمسلمين أن يلعبوا بكتاب الله تعالى الكريم ، ولا أن يتخذوه وسيلة لكسب الدنيا من هذه الطريق الضالة الآثمة ، بأن يقولوا : اقرأ سورة كذا أربعين مرة ، وسورة كذا سبعين مرة ، وآية كذا سبع مرات ، وليس فى الإسلام شىء اسمه (عدية يس) ولا عدية الصافات وآية الكرسي .

إن الله تعالى يقول فى سورة التوبة : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾⁽¹⁾ وَلَا يُنْفِقُونَ

نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾. ولن نغيظ الكفار بهذا الدجل ، ولن ننفق إلا إذا كان لدينا مال ، ولن يكون لدينا مال إلا إذا عملنا وربحنا ، ولن نقطع وادياً ونحن نائمون ، ونحلم أحلاماً سعيدة بأن الرزق يصل إلينا دون بذل جهد .

هذا هو القرآن الذى يأمرنا فيه ربنا - ﷻ - بالعمل الجاد ، والحركة فى شعاب الأرض واستخراج كنوزها . والخير الذى أودعه فيها من قبل أن يخلقنا منها ، وأن نفيد منه ونتنفع به ، وننفع به غيرنا .

من تلك القضايا (تفسير الأحلام)

وأعجب ما فيها ما يتصل بكتاب الله ﷻ ، حيث سمعت بعض الناس يفسر أحلام الناس من كتاب الله تعالى ، وتلك جريمة أيضاً ؛ فما أنزل الله - ﷻ - كتابه ليفسر به المسلمون منامهم ، وإنما أنزله ليفسروا به يقظتهم ، ماذا يفعلون وهم مستيقظون ، واعون . مدركون ؟ كيف يعامل بعضهم بعضاً ؟ كيف يوزعون ميراثهم ؟ وكيف ينهلون من فضل ربهم ؟ وهكذا ... وقد رفع الله ﷻ القلم والحساب عن النائم حتى يستيقظ ، وذلك لأنه فى غيوبة عن الحياة وعن الإدراك .

ومعلوم أن رؤيا الأنبياء وحى ، فلا يقاس عليهم غيرهم ، ومن يقرأ كتب الحديث يقف عند كتاب الرؤى من صحيح البخارى ، وخلاصة ما جاء فيه : أن الخير الذى يراه النائم بشرى من الله ، وأن الشر الذى يراه تخويف من الشيطان ، وأن ما يراه وهو مشغول به فى يقظته فهو حديث نفس ، ثلاثة عناصر جامعة مانعة مفسرة

على لسان المعصوم - ﷺ - دون ذكر للتفاصيل ، فالخير معروف كله ، من : رؤيا طعام وشراب وجوائز ، ومقابلة حبيب ، ورؤيا المصطفى - ﷺ - على شرطها ، ومن شرطها : أن يراه على ما وصف به وما عرف عنه ﷺ فالتى رأت فى المنام أن رسول الله - ﷺ - يقبلها إنما رأت عاصياً فاجراً ولم تر رسول الله - ﷺ - لأنه لم يصافح أبداً امرأة فى حياته الطاهرة ﷺ فكيف يتصور أنه يفعل الآثام وقد نهى عنها .

والشر كذلك معروف من : ضيق رزق وسوء حال وسجن واختناق ... وغير ذلك ، وقد كان (عبد الله بن عمر) - رضى الله عنهما - يرى ملكين فى منامه يجرانه إلى النار ، فإذا أوشك على الوقوع فيها جاءه ملك ثالث . وجذبه قائلاً له : لن تراع ، فحدث بذلك أخته (حفصة أم المؤمنين) فكلمت رسول الله - ﷺ - فنصح له أن يصلى بالليل ركعتين ، وانتهى الأمر عند ذلك .

وحديث النفس معروف ، طالب يرى فى منامه أنه فى لجنة امتحان . وعروس ترى فى منامها أن زيجتها لن تتم بسبب الخلاف على قائمة المنقولات التى ما أنزل الله بها من سلطان ، وما هى من شروط العقد الشرعى ولا من صحة الزواج ولا من ضمان حق ... وهكذا .

وقد أمر النبى - ﷺ - مَنْ رأى خيراً فى منامه أن يحدث به إخوانه ؛ لأنه ضرب من البشرى والخير ، ومن رأى غير ذلك ألا يحدث به أحداً ؛ فالمسلم لا يؤذى إخوانه بما يرى فى منامه لأنه من الشيطان ، فليستعذ بالله ﷻ منه ، وليصل ركعتين بالليل كما نصح النبى - ﷺ - - لخير من تتبع أثره وبالع فى حبه (عبد الله بن عمر) - رضى الله عنهما - حتى وصل الأمر بمن يراه يتبع آثاره ، ويحرص على الدقة فى التأسى به أن يقول : إن به جنوناً .

لكن ليس عندنا قاموس لتفسير القطة بالمرأة، والسّمك بالرزق، واللحم إن كان نيئاً. إنه رزق صعب. وإن كان كباباً جاهزاً للتناول، إنه رزق دون تعب. فالله **عَزَّ وَجَلَّ** يقول: ﴿وَهَزَيَ إِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ﴾¹ وكانت في حالة تعرفها النساء والوالدات على مريم وابنها السلام، ويقول: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾² وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ³.

فلماذا يصبر المسلمون أكثرهم على معرفة التفاصيل، ولا مصدر لها يعتمد، سوى أوهام مفسري الأحلام. هذان الله وإياهم إلى صراط مستقيم.

ثم إن الثابت الصحيح أن أبا بكر - **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** - استأذن رسول الله - **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** - في أن يفسر رؤيا رجل رآها، فلما أذن له **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** وعبر الصديق سأل النبي - **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** - إن كان قد أصاب فقال له - **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** - : «أصبت في بعض وأخطأت في بعض» وأراد أبو بكر أن يقسم على النبي - **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** - لكى يبين له وجه الخطأ، فقال له - **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** - : لا تقسم، ولم يبين له؛ حتى لا يصبح ذلك علماً، وما هو بعلم.

وإذا كان قد ثبت عن الصديق أنه أخطأ في تفسيره مناماً، فمن يضمن صواب غيره من الناس، وهو دون منزلته إيماناً و يقيناً وعملاً وجهاداً.

إننا في حاجة معشر المسلمين، لتفسير القطة لا تفسير المنام، إلى إحصاء دقيق لما يجرى حولنا، وإلى رؤية عقلية وبصرية لما يحاك لنا ويمكر بنا، إلى معرفة ما سوف يكون من بطش جديد، وظلم جديد لأمة الإسلام الجريحة التى انتهبت خيراتها،

(1) سورة مريم: 25.

(2) سورة الشرح: 7، 8.

وأهينت كرامتها، واغتصبت أراضيها وكرامتها. لقد أسلم الصحابة - رضوان الله عليهم - فبايعوا على الجهاد قبل أن يجلسوا ليقصوا أحلامهم بعد صلاة الصبح.

لقد فسر النبي - **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** - القطة قبل أن يفسر المنام، حين علم عدد المشركين يوم بدر، من خلال معرفته بما يأكلون كل يوم من ذبائح، فإذا كانوا يذبحون كل يوم تسعاً أو عشرة أفهم تقريباً، وقد كان. هذا تفسير يقظة لا تفسير منام، ونحن اليوم في حاجة إلى معرفة صحيحة، لما يجرى حولنا، وفي حاجة إلى وحدة أمتنا، وكلمتنا، وصفوفنا، وإلى بناء شخصية مسلمة هى أحوج إلى الحق منها إلى تلك الخرافات.

ومن تلك القضايا مسألة: (الاستخارة):

لقد عرف الناس الحق فاتبعوه، وآمنوا، وتعلموا كل شىء فيه نفعهم، ونفع إخوانهم، فخير الناس أنفعهم للناس، والله **عَزَّ وَجَلَّ** يقول: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِنَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾¹.

وقد كان النبي - **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** - يجيب السائل بما يتفق وحاله، وهذا هو المعروف عند علماء الحديث باختلاف الجواب مع أن السؤال واحد لاختلاف أحوال السائلين، فالرجل يسأل عن أحب الأعمال إلى الله وأفضلها فيقول له النبي - **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** - : الصلاة على وقتها. ويسأل رجل آخر السؤال نفسه فيقول له - **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** - : بر الوالدين، ويسأل ثالث السؤال نفسه فيقول له - **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** - : الجهاد في سبيل الله، ومعنى ذلك أنه - **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** - يجيب كل سائل بما هو مفتقر إليه.

(2) سورة آل عمران: 159.

وقد جاءته - ﷺ - (فاطمة بنت قيس) تقول له : إن رجلين خطباها للزواج، أحدهما : (معاوية بن أبي سفيان) والآخر : (أبو جهم) فأى الرجلين تتزوج ؟ فقال لها النبي - ﷺ - :

« أما معاوية : فصعلوك لا مال عنده . وأما أبو جهم فرجل لا يضع العصا عن عاتقه » ، كناية عن كثرة أسفاره ، أو ضربه النساء كما ذكر العلماء .

ثم قال لها : - ﷺ - : تزوجي (أسامة بن زيد) ، قالت : فكرهته ، فلما قال لي رسول الله - ﷺ - : تزوجي أسامة ، تزوجته ، فوجدت فيه الخير .

وهذا الحديث يعلم الأمة إلى قيام الساعة كيف تفكر وكيف تختار ، لم يقل لها (ﷺ) : صلي صلاة استخارة . كما يفعل كثير من المسلمين الناصحين مَنْ يسألهم ، وكلمة « يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها » ، لا تدل كلمة « كل » على العموم المطلق ، بهذا قال العلماء ، والذي لا علم له بأسرار العربية وسياق الأساليب ، يقع في خطر كبير ؛ فقد وصف الله تعالى ملكة سبأ بأنها أوتيت من كل شيء ، مع أن الذكورة من الأشياء والنبوة وغير ذلك ، وهي لم تؤت ذلك . وقال في الريح التي أرسلها على المكذبين الضالين : ﴿ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾¹ ، وهي لم تدمر المنازل ... وهكذا .

وحين جاء (أبو الهيثم التيهاني) إلى النبي - ﷺ - وكان قد وعده بأن يمنحه خادماً ، وكان عند رسول الله - ﷺ - - غلامان ، فقال له :

- خذ أحدهما .

فقال التيهاني - ﷺ - :

- اختر لي يا رسول الله .

فقال - ﷺ - : « إنما المستشار مؤتمن ، خذ هذا ؛ فإنني رأيتك يصلي ، وأحسن إليه » .

ما كان أسهل أن يجيبه رسول الله - ﷺ - - بقوله : صل صلاة استخارة . إن لم تتعلم من هذه الأحاديث الصحيحة ، فمن أين نتعلم !؟

الاستخارة دعاء وأدب مع الله - ﷻ - بعد أن يمحص الإنسان ويفحص ، ويدقق ، ويختار على علم ، إنه بعد أن يفعل ذلك كله ، يصلي ركعتين غير الفريضة مقدمة لدعائه ، وإعلاناً أنه غير مغرور بعقله وخبرته ، وكأنه يقول : أنا لست وحدي ، وإنما لي رب يدبر لي أمري ، ويختار لي الخير ، الذي قد يبدو في عيني رأسى وفكر عقلي خيراً ، وهو في الحقيقة لا خير فيه ؛ لأن الله - ﷻ - - ربي يعلم وأنا لا أعلم ، وهو سبحانه وتعالى علام الغيوب . هذا كل ما في الاستخارة .

ولا استخارة في مهاجمة مَنْ هجم عليك ليأخذ مالك ، قال الرجل للنبي - ﷺ - : أرأيت لو أن رجلاً أراد أن يأخذ مالي .

فقال له : لا تعطه مالك .

قال : أرأيت إن قاتلني .

قال : قاتله .

قال : أرأيت إن قتلني .

قال : أنت في الجنة ، من قتل دون ماله ، فهو شهيد .

قال : أرأيت إن قتلته .

قال : هو في النار .

ولا استخارة في إقامة الصلاة، ولا في إيتاء الزكاة، ولا في صوم الفريضة، إنما نصوم لرؤية الهلال لا رؤية منام، ولا انشراح صدر بعد صلاة استخارة، ونفطر كذلك لرؤيته.

ولا فيما إذا توافر لنا مال وكنا أصحاء، وأمن طريقنا أن نحج بيت الله تعالى.

ولا استخارة على جائع يود أن يأكل، ولا على راغب في الزواج يخشى الوقوع في الفاحشة، وهو قادر على الإنفاق، أيتزوج أم لا؟

ولا على مَنْ يود الذهاب إلى الحمام؛ ليقضى حاجته التي هي أذى. ولا على فقير لا يجد ما يتناوله أن يسأل الناس أم لا. شاب يعمل في وظيفة براتب معين، وجاءته فرصة أحسن لو وظيفة أخرى، ويسأل بعض الأدياء: ماذا أفعل؟ أتقول له: صل صلاة استخارة، أم أمسك بالورقة والقلم، وادرس المسألة، وتفاصيلها، واختر ما فيه مصلحتك، ثم صل صلاة استخارة أدباً مع الله - ﷻ -.

ثم إن المسلم الذي يصلى صلاة استخارة، ليس منتظراً من السماء إشارة ولا علامة، ولا مناماً يأتيه فيه ملك باختيار الله - ﷻ -، كل ذلك لا أصل له في الإسلام، إنما يقدم على ما اختار قبل أن يصلى ويدعو، وهو مؤمن أن فيه الخير. فإن كان هناك من شر فإن الله - ﷻ - يصرفه كيفما شاء، إما بوجود شيء يحول بينه وبينه، دون تدبير منه أو تدخل، وإما إن يجعل من رحمته فيه الخير وقد كان شراً.

ومن أعجب صور الفتنة والضلال: أن فتاة خطبها شاب مسلم من أصل كريم، وهو على خلق طيب، ويعمل في وظيفة محترمة، واتفق الناس على إتمام الزواج، وأعد منزل الزوجية، وحدد يوم الزفاف، وكانت فتاتنا تصلى صلاة الاستخارة كل يوم،

لكنها كانت لا ترى في منامها شيئاً، وقد وقر في قلبها - بناء على ما تسمع من خرافات - أنها لا بد أن ترى شيئاً في منامها، يبشرها بخير ما هي مقبلة عليه.

وقبل الزفاف بيومين نامت، ورأت في منامها سلة بيض فاسد، فقامت من نومها، وقصت ما رأت على أمها وأبيها وهي خائفة، فاتجهوا كما يقولون إلى أحد الشيوخ الذي أفتى - بعدما علم ظروفها، وما هي مقبلة عليه بعد ساعات - بأن هذا المنام رسالة من الله - ﷻ - إليها بأن تلك الزيجة ينبغي ألا تتم، وأن الفتاة لن تجنى منها إلا فساداً وشقاقاً، وأنها دليل على طيب الفتاة وصلاحها؛ فالله - ﷻ - يحذرنا من حياة محكوم عليها بالفشل والشقاق. وبناء على الثقافة الموروثة: «الخسارة القريبة أفضل من المكسب البعيد» كان إجماع تلك الأسرة على فض الموضوع، وإنهاء العلاقة الوليدة، ولم يتم شيء مما اتفق عليه المسلمون.

فهل ذلك من الإسلام في شيء! إنه هوس وسوء فكر وتصرف، وظلم، والله - ﷻ - أمر بالوفاء، وفي مطلع سورة المائدة يقول الله - ﷻ -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾¹، فأين الوفاء في تلك القصة العجيبة؟، وهذه الجرأة ممن أطلق عليه شيخ وما هو بشيخ، إنه شبح مرعب وقاموس ثقيل، وجهل مظلم، أفسد على الناس حياتهم وفتنهم في دينهم، وقد افترى على الله الكذب؛ حيث لا علم عنده بما أفتى به، ولا دليل على ما قال.

والرسالة من الله - ﷻ - إنما تكون للأنبياء المرسلين الذين اصطفاهم الله - ﷻ - من خيرة خلقه، ومن صفاتهم جميعاً الذكاء لا الغباء، وقد تمت الرسالات

(1) سورة المائدة: 1.

برسالة سيدنا محمد - ﷺ - : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾¹.

فماذا بقى من رسالة تأتي إلى فتاة أو فتى ، وقد تمت كلمة الله - ﷻ - وظهر نور دينه ، وأصبح الحلال بيناً والحرام بيناً ، والظلم ليس رسالة من الله ولا إشارة ، وإنما هو من عمل الشيطان المضل المبين .

ومن تلك القضايا (زيارة الأولياء والأضرحة) :

لقد كنت في زيارة رجل مريض - رحمه الله - واجتمعت بصحبته عنده ، وجماعة من أهل العلم المنتسبين إليه ، وكان المريض في صحوة ، وأخذ الناس يتحدثون في موضوعات شتى ، وكان من أعلاها حديثهم عن : غزو أمريكا للعراق ، قبيل ما حدث ، وقال المريض رحمه الله : إن أمريكا لن تستطيع دخول العراق ، وجذب الناس هذا الخبر ، واستطرد - رحمه الله تعالى - قائلاً :

وذلك .. لأن بها ضريح فلان ، وضريح فلان من صحابة النبي - ﷺ - وهتف الناس :

اللهم صلّ وسلم على سيدنا ومولانا محمد ، نعم نعم يا سيدى نعم ، وقال الرجل :

إنهم حراس العراق ، وما من ضريح في بلد إلا وصاحبه محافظ هذا البلد الحقيقي ، وليس الذى تُعيّنه الحكومة . وهتف الناس من جديد قائلين :

صحيح صحيح ، الله أكبر ، الله أكبر .

وانفض المجلس ، وانصرف الناس كل إلى غايته ، بعد أن سمعوا منى كلاماً يختلف عن ذلك الذى مال نحوه هواهم ، وبعد عشرين ساعة ، دخلت أمريكا العراق ، وكان ما كان من ألم وقتل وجراح !

فهل القوم حتى هذه اللحظة على يقين ، أن العراق تحررها الأضرحة ؟! لقد قيل في هذا المساء : وكذلك مَنْ في مصر من الأولياء هم حراس مصر ؟! وقلت : وهل كانوا - رضى الله عنهم ، وعن كل عبد صالح من المسلمين - نائمين يوم دخل نابليون ، ويوم ضرب الأزهر ، ويوم دخل الإنجليز ؟!

إنهم أيها السادة نائمون بالفعل نومة طويلة ، ولكنهم أفضوا إلى ما قدموا ، وهم في عرس رحمة ربهم ، لا صلة لهم بحياة الناس ، انقطعوا عن الدنيا ، ولن يصلهم إلا ما يصل كل مسلم من صدقة أو دعاء .

إن الإسلام يدعو إلى زيارة القبور ، والعلة مصاحبة للدعوة ، ففى الحديث الصحيح : « فإنها - أى زيارة القبور - تذكر الموت » .

فالمستفيد من الزيارة الحى الزائر الذى يسترجع الذكريات ، ويعلم أنه ميت كما أن هؤلاء قد ماتوا ، وأن شيئاً مما أوتوا من الدنيا ومن الكرامة ما حال بينهم وبين الموت ، وفي سورة الروم يقول الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾¹.

فالذين من قبلنا - مشركين ومؤمنين على سواء - نالوا حظهم من الدنيا وماتوا، وكل امرئ بما كسب رهين، فأى ضامن بقاءنا؟ إننا صائرون حتمًا إلى ما صاروا إليه، فليعمل كل منا من الصالحات ما ينجيهِ من هول العذاب.

يزور الرجل القبور، وكذا المرأة إن احتشمت على أوجه الآراء؛ ليتذكر كل منهما مصيره الذى قد يكون بعد لحظة من الزمان، فيجتهد فى عمله.

ومن اجتهاده: أن يعمل لدينه كأنه يعيش أبدًا، وأن يعمل لآخرته كأنه يموت غدًا، ومن عمله لدينه وأخراه: أن يعد العدة لأعداء الله وأعدائه، قال الله - ﷻ -
 فى سورة الأنفال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾¹. وإعداد العدة لا صلة له بالقبور، ولا بمن فيها.

لقد داس (عمرو بن العاص) على جثة أخيه (هشام بن العاص) لما كان الدوس فوقها هو السبيل الوحيد للوصول إلى الروم، وكان هشام - ﷺ - قد نفذ من ثغرة فرماه الروم، فخر شهيدًا. لم يكن هنالك أمام المسلمين من منفذ للوصول إليهم سوى أن يدوسوا بخيلهم فوق جثة هشام، فتهيئوا ذلك فتقدم عمرو - ﷺ - وقال لهم: إن الله قد توفى أخى، وما هذه سوى رمة، وانطلق وانطلق الفرسان من بعده، وبعد أن تم النصر جمع شتات أخيه ودفنه.

وقد سئل عمرو عن أخيه هشام فقال فيه: أمه حرة وأمى سبيّة، وكان أحب إلى أبيه منى، وأنتم تعلمون فراسة الأب فى أولاده، وأسلم قبلى وأقبلنا معًا على الله، فقبله وتركنى؟

(1) سورة الأنفال: 60.

كلمات مؤثرة بليغة، يبين فيها الأخ فضل أخيه عليه، ومع ذلك كان ما كان من هذا الموقف الذى ذكره المؤرخون، وذكره (ابن عبد البر) فى الاستيعاب.

وإن لم يكن مثل هشام وليًا، فمن يكون الولي؟!

وقد أوصى (أبو أيوب الأنصارى) - وهو أول منزل للنبي - ﷺ - فى المدينة، وهو مَنْ هو فى ورعه وتقواه، وسلامة عقيدته وحسن سيرته - جنود المسلمين أن إذا مات أن يدفنه تحت أرجلهم فى ساحة القتال، وألا يشغلهم عن جهادهم.

كل ذلك غير بارز فى أحاديثنا ومقالاتنا، مازال فى دوايب العلم، وأن له أن يبرز، وأن يخرج إلى النور؛ لأنه نور والله ﷻ يقول: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾¹، ثم فسر لنا مَنْ يكون الولي، فقال بعد ذلك مباشرة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾²، ومعلوم فى العربية أن (الذين) اسم موصول، يفيد العموم، ولذلك يصح اقتران خبره بالفاء؛ لما كان يشبه الشرط فى العموم، فما الذى جعلنا نخصص عامًا دون وجود دليل على هذا التخصيص؟! لماذا نعزف عن مراد ربنا - ﷻ - إلى ما ورثناه عن آبائنا وأجدادنا، وبعض مشايخنا الذين خضعوا إلى هوى العوام، وراحوا ينصبون الموالد، والأفراح والليالى الملاح على أعتاب كل ضريح، يوهمون الناس أن هذا المكان مبارك، وأن النفحات تتجلى فيه وتنزل البركات... وغير ذلك مما لا رائحة لدليل صحيح عليه.

إننا ينبغي أن نعتقد: أن كل مسلم يتقى الله - ﷻ - وإن كان صاحب بوابة، أو حمال سَقَطَ لمتاع المعروف بالزبال، هو ولى من أولياء الله الصالحين، والانتفاع به حيًا

(1) سورة يونس: 62.

(2) سورة يونس: 63.

هو المطلوب شرعاً، فهو الذى لا يحارب ولا يؤذى، وهو الذى يستمع إليه إن تحدث، ويشفع إن استشفع به، ويزوج إن خطب، ويزار، ويصاحب، وفيه البركة والخير مادام يصلى ويركع ويصوم ويتصدق، ويخلص دينه الله رب العالمين، ويتواضع ويصون فرجه ولسانه، وقد ضمن رسول الله - ﷺ - لمثله جنات عرضها السماوات والأرض. لماذا نتعلق بخيال وأوهام والحقيقة بين أيدينا؟ لماذا نهمل الجادة ونهتم بالبنيات؟، أى الأزقة والفروع.

يقول لى أحد الناس: إنه يشعر براحة حين يزور الحسين - ﷺ - والسيدة زينب، والسيدة نفيسة، وأى بأس فى هذا؟ زادك الله راحة، ورضى الله تعالى عن آل بيت نبينا - ﷺ - كل امرئ مسلم استقام هواه وصح دينه، لا يجد فى صدره غير الراحة؛ إذا ذكر اسم من هؤلاء، مجرد ذكر تسمعه أذناه. لأنه يستحضر سيرة سيدنا رسول الله - ﷺ - وآل بيته.

لكنهم جميعاً وغيرهم لا يملكون له ضرراً ولا نفعاً، والحب آية من آيات الإيمان، ومن غير هؤلاء أحق بالحب بعد رسول الله - ﷺ - لكن درس الحب مشوب بما يفسد العقيدة، وفى ذلك الخطر العظيم، فقد طهر الله ﷺ آل بيت نبيه - ﷺ - بمنهج اتباعه، وبخلق ربانى رباهم عليه كتاب الله ﷻ، لكننا نقتضب الآية، نأخذ منها الجزء الذى يميل إليه هوى فاسد فى صدورنا ويجب أن نتخلص منه، لقد كتبنا على جدران المساجد: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾¹.

أهكذا قال الله؟ هكذا، بكن فيكون؟ أم بمنهج مذكور أول الآية، ونحن نغض الطرف عنه، فنعمى عن الحق والحقيقة. إن الآية (33) من سورة الأحزاب: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾¹.

فقد أذهب الله تعالى عن آل بيت رسوله - ﷺ - وطهرهم تطهيراً باحتشام وأدب، وهجر زينة مبالغ فيها، وبإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله، وفى تلك الطاعة الدين كله بحذافيه كما نقول، فهل تأسينا بهم؟

ثم إن من يذكر ربه حق الذكر، ويتدبر فى كتاب الله - تعالى - يتبين له السبيل لثواب الله العظيم، كما تقرر ذلك الآية القرآنية الكريمة: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنَاتِ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّاتِمِينَ وَالصَّاتِمَاتِ وَالْحَفِظِينَ وَالْحَفِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾².

وجميع ما ورد فى الآية الكريمة يزكى تلك الفكرة، ويؤيدها ويؤيد نورها وهداها، فنحن لكى ننال ثواب الله العظيم، يجب أن نكون على تلك الأوصاف. ونظم هذه الآية الكريمة، ونظم غيرها من آيات الذكر الحكيم، يجعلنا نقف عند الحقيقة التى طالما غابت، وجنينا المر والعلقم من غيابها، وهى: أن حديث

(1) سورة الأحزاب: 33.

(2) سورة الأحزاب: 35.

القرآن الكريم قد جاء بالصفات لا بالأعلام ، وهذا يدل على رحمة الله الواسعة ؛ فكل مَنْ يندرج تحت هذه الصفات يدخل في الحكم الوارد عليها ، فالمسلمون بالمليارات ، ولا يسمّى ربنا شخصاً ولا أشخاصاً ؛ فالباب مفتوح ، والسييل بين والطريق واضحة أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأن تصلى الخمس وأن تؤدى زكاة مالك إن كنت ذا مال ، وأن تصوم رمضان وأن تحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً ، وأن يسلم الناس من لسانك ويدك ، وأن تطعم الطعام ، وأن تفشى السلام ، والله ﷻ يقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿ إلى آخر الآيات على هذا المنوال .

ليس النظم هكذا : قد أفلح عبد الرحمن وعبد الله وشوقي وغير ذلك من الأسماء إنه لا يذكر أعلاماً ، وإنما يذكر أوصافاً ، فليتصف بها كل من أراد إلى الله سبيلاً ، وهو موقن أن الله ﷻ يعلم اسمه واسم أبيه ، وزمانه ومكانه ، فحياته بيد الله ونفسه ورزقه وأجله ، وما يكون في شأن وما يتلو منه من قرآن وما يعمل من عمل إلا والله ﷻ شهيد عليه ورقيب ، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

وكما جاء النظم هكذا في كتاب ربنا ، جاء جامع البيان من أحاديث رسولنا - ﷺ - ومن ذلك ما نجده في صدر البخارى من حديث عمر بن الخطاب - رضى الله تعالى عنه - من قول نبينا - ﷺ - : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » والتعبير بـ « مَنْ »

على تلك الشاكلة ، فلم يقل - ﷺ - أبو بكر هجرته إلى الله ورسوله - وقد كان ﷺ - وفلان هجرته إلى دنيا أو امرأة يود أن يتزوجها ، وإنما عبر بالعموم ، فالعموم واسع والأعلام ضيقة ، وهذا الدين دين السعة لا الضيق ، والأعرابي الذى قال من شدة فرحه بالإسلام : اللهم ارحمنى ومحمدًا ولا ترحم معنا أحدًا ، قال له النبى - ﷺ - لقد حجرت واسعًا ، أى كان عليه أن يقول بقول القرآن : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿١﴾ .

ومن تلك القضايا الشائكة (قضية القصص والروايات) :

لقد قال الله تعالى في مطلع سورة يوسف : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾² . فقصاص القرآن الكريم أحسن القصص لأسباب متعددة ، أهمها :

- 1- أنها وحي من الله ﷻ ، وليست افتراء بشر ، ولا إبداع فنان .
- 2- وأنها متعبد بتلاوتها .
- 3- وأن فيها العبرة والموعظة والهدى والرشاد .
- 4- وأنها تعنى بذكر الأهم ، وما للثرثرة إليها من سبيل .
- 5- وأنها تثبت للقلوب ، ودعم للفكر .

(1) سورة آل عمران : 193 ، 194 .

(2) سورة يوسف : 3 .

وفي سورة يوسف يقول الله ﷻ: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾⁽¹⁾ فيقول قائل: ما اسم امرأة العزيز؟ أهى زليخا؟ أم مَنْ تكون؟ وللعلماء جواب قديم، هو: أنه لو كان اسمها مهماً لذكره الله ﷻ.

وعدم ذكر اسمها، واسم امرأة فرعون وهى على نقيضها: ﴿قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾⁽²⁾. واسم امرأة عمران: أم مريم، وكذلك اسم مؤمن آل فرعون وغير ذلك دليل على العناية بالحدث، لا العناية بالاسم، العناية بالمسمى، بمضمون فكره، وما كان منه، وقد غاب اسم يعقوب عن أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - حين اتهمت ظلمًا وعدوانًا، لكن ما غاب عنها قوله، فقد قالت كما جاء في الصحيح: لا أجد ما أقول لكم إلا قول أبي يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾⁽³⁾.

ومعظم ما يذكره كثير من المتحدثين من قصص، لا أصل له ولا سند له، وفيه الخرافة وهدفه: الإثارة والتشويق، والإثارة والتشويق من فنون الخطابة بلا شك، ولكن على حق لا على باطل، وعلى هدى لا على ضلال مبين.

فرق كبير بين أن نذكر قصة قرآنية يتعلم منها الناس درسًا، وبين أن نذكر شيئًا عن أحد العارفين، فيه أن أحد الناس قد اشترى قطعة من اللحم، ثم سمع المؤذن يقيم الصلاة، فدخل في الصلاة مع الناس واللحم معه، خشى أن يتركه جانبًا

(1) سورة يوسف: 23.

(2) سورة التحريم: 11.

(31) سورة يوسف: 18.

فيضيع، فلما فرغ من صلاته ذهب باللحم إلى أهله، فأوقدوا تحته النار، لكنه أبى أن ينضج، فظنوا أنه لحم عجوز من الذبائح لا ينضج بسرعة؛ فصبروا عليه طوال الليل، لكنه لم ينضج، فذهب الرجل إلى إمام المسجد وحكى له قصته، فقال الإمام له: الآن أقول لك السر.. لقد أخذت عهدًا على الله أن: من صلى ورائى أن يحرم لحمه على النار، وهذا اللحم قد صلى ورائى!

وأول علامات المبالغة في تلك القصة أن من الناس من صلى وراء رسول الله - ﷺ - وهو منافق، أعد الله له من العذاب ما الله وحده به عليم، وقد قال لرسوله - ﷺ - : ﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾⁽¹⁾.

إن هدف هذا القصص المولع بذكر الغرائب والشذوذ من الحكايات التي لا أصل لها، أن يهيج الناس، وأن يثير عواطفهم، وأن يقوموا في صلاة الجمعة حتى ينالوا بأيديهم سقف المسجد، إنه بذلك يكون نجمًا وعبقريًا وداعية ناجحًا له زبائن ومريدون، وهو بذلك داعية إلى انصراف الناس عن حقيقة دينهم إلى اللهو والخبيل، ومجانبة الصواب، وما زال في الناس - وإن كبروا - طفولة ساكنة منذ نعومة أظفارهم، تميل إلى ألف ليلة ومائة يوم، وعلاء الدين والمصباح السحري، والكنوز التي يخرجها الجن من تحت المنازل، بشرط أن تتوافر بعض المواد الغالية والدماء البريئة، واعتقاد الناس في ذلك سبيل إلى العدوان والتعدي وإراقة الدماء!

(1) سورة التوبة: 80.

في القرآن الكريم : حديث النملة بين يدي سليمان - عليه السلام : ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَأَيَّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا تَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾¹.

وكان الله - ﷻ - قد علّم سليمان منطق الطير ، وللعلماء الأصحاء في ذلك أقوال أهمها : أنه فهم المراد ، وقد تبسم ضاحكاً من قولها ، وشكر الله على نعمته ، وقضى الأمر ، وفي حديث النملة المذكور في الوحي المطهر ما يدل على أن الرائد لا يكذب أهله ، ويتعلم المسلمون منها أن يبلغ الشاهد الغائب ، وأن يحذر مَنْ يعلم الذي لا يعلم ... وهكذا ، لكن الناس نسجوا من هذه القصة قصصاً ، واخترعوا منها روايات ، وقد قال أحد المولعين بالقصص : إن سليمان - عليه السلام - قد داس على نملة وهو لا يدري ، ثم انتبه ، فاعتذر للنملة قائلاً : سامحيني أيتها النملة !

فقال النملة :

- أسامحك يا نبي الله على شرط .. !

فقال لها :

- ضعي ما شئت من شروط ، فالمهم أن تسامحيني .. !

فقالت له :

- شرطى عليك أن تعفو عمن ظلمك ، وأن تحسن إلى من أساء إليك ، وأن

تطعم مَنْ دخل دارك ... إلى غير ذلك مما هو وحي السماء إلى جميع الأنبياء !

فهل صارت النملة رسول الله إلى سليمان ؟ أو عجز جبريل حتى تقوم النملة

مقامه ؟ وهل وضع في قلب النملة ما لم يوضع في قلب من غفر الله له ، ووهبه ملكاً

(2) سورة النمل : 18 .

ما وهبه أحداً من بعده ! وأخذ من حضروا الجمعة من المسلمين يقفزون ويصيحون عند كل نصيحة من نصائح النملة المزعومة !

ورحم الله - ﷻ - مَنْ نقل إلينا أن الصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا يجلسون يستمعون إلى النبي - ﷺ - وكان على رؤوسهم الطير من السكون والثبات ، والسكينة والوقار وهو - ﷺ - خير من قص ، وخير مَنْ نطق ، وأفصح من قال ، وأبين مَنْ شرح ، وما ذلك إلا لأنه - ﷺ - ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾¹ ، وما كان هذا السلوك من صحابته - رضوان الله عليهم - إلا لالتزامهم الأدب ، ومعرفتهم حرمة العلم وآداب استماعه .

وقد صرنا نسمع أن من الدعاة ، بل من قراء القرآن الكريم من يصحب جماعة يصيحون له عند كل عبارة ، وعند كل آية ب : « اللهم صل على النبي ... ويا سلام .. والله أكبر » !

فأى فرق بين من يشجع لاعبي كرة القدم : « يا لعيب .. يا حريف .. العب يا فلان .. ادخل يا فلان » ! وبين مريدى العلم وأتباع المشايخ (المطلبية) !

وقد ذكر (ابن عبد البر) في « التمهيد » أن العلماء يتسامحون في روايات الفضائل ، لكن في الأحكام لا يتهاون أحد ، ومثل هذه القصص خلت من الفضائل ، وخلت من الأحكام معاً ، بل إن فيها من رذائل الفكر ما يشين ؛ لأنها تنطوي على خرافة وتدعو إلى السفاهة ، والدين برىء من أية سفاهة ، وبرىء من أية ضلالة : ﴿ يَنْقُومُ لَيْسَ بِي

(1) سورة النجم : 3 ، 4 .

سَفَاهَةٌ وَلِكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُم نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٢٨﴾^١.

قال أحد القصاصين : إن امرأة مسلمة قد نادت سائق تاكسي ، فأهملها ، وبعد خطوات انقلب به التاكسي : سبحان الله ، الله أكبر ، هكذا قال الناس ، وقال القاص قبلهم !

ولأن للقصة حبكة درامية معروفة عند أهل الأدب ، كان عليه أن يذكر لهذه القصة حبكة من تاريخ المرأة وصبرها وجهادها .

إن أول احتمال : أن يكون سائق التاكسي قد خرج به دون أن يضبط إبطاراته ، وأن يحسن فحصه ، أو أنه قد انزلق في حفرة ، أو ارتج فوق مطب من المطبات الصناعية الكاسرة ظهر كل بعير وسيارة !

وكانت الموافقة ، بأن حدث هذا عقب نداء المرأة كمن يحدث له مكروه أول نزوله بيتاً جديداً ، فيربط ذلك بالبيت والعتبة ، ولا عدوى في الإسلام ولا طيرة ولا تشاؤم .

ثم إن الله - ﷻ - قد وضع لنا ضابطاً في كتابه الكريم ، هو أولى بالحزم والعزم والتعويل عليه ، لا أن نعول على قصص الثرثارين ، وذلك قوله عز من قائل : في آخر آية من سورة فاطر : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾^٢.

(1) سورة الأعراف : 67 ، 68 .

(2) سورة فاطر : 45 .

وفي سورة غافر يقول الله - ﷻ - لرسوله - ﷺ - : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرَبِّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾^١.

فليس شرطاً أن يرى النبي - ﷺ - وعيد الله في الكافرين المشركين في حياته ، فكيف يكون غيره أولى بذلك منه ؟!

ومن يقرأ أول سورة نزلت من الذكر الحكيم الذي آمن به الصحابة ، وكان سبباً في إسلامهم ، يجد أن الله - ﷻ - منح أبا جهل وهو أعدى أعداء رسوله - ﷺ - فرصة ينتهي فيها عن سوء أدبه وفحشه وأذاه رسول الله - ﷺ - حيث يقول الله - ﷻ - : ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾^٢.

وما كان أسهل وأيسر على الله - ﷻ - أن يدعو الزبانية زبانية جهنم ليأخذوا فور قوله للنبي - ﷺ - : ﴿ لا تصل هنا في الكعبة فإن صلاتك تؤذينا ﴾ .

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿٢٠﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿٢١﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ﴿٢٢﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴿٢٣﴾ ﴾

لمن هذا الخطاب ؟ أليس هذا الخطاب ربانياً واضحاً ، نتعلم منه كيف نفهم سنة الله - ﷻ - في خلقه ، وأن الأمر ليس على ما يرى القاص المبدع المؤلف لقصص الخيال والوهم والريب ، ماذا تفعل امرأة صالحة لو خرجت إلى الشارع

(1) سورة غافر : 77 .

(2) سورة العلق : 15 ، 19 .

(3) سورة العلق : 9 - 12 .

ومعها ولدها ، ونادى الصبي ، أو نادى هـى سائق تاكسى ، فلم يلتفت إليها ، ومضى كالبرق ولم تنقلب سيارته ؟

أقول : إنها ليست صالحة مثل هذه المرأة التى نادى فى قصة القاص ، فلما لم يلتفت إليها السائق انقلب بسيارته ؟

لو أن كل صالح نادى فلم يستجب له أحد ، ودعا عليه أو نظر نظرة فيها حسرة منه ، فانقلبت سيارة من لم يستجب له ، لخربت الأرض وما مشى فوقها سيارة !

ولو أن كل سفينة ركب فيها رجل صالح فما غرقت ، رغم سوء أحوالها لما غرقت سفينة !

إن دعوة المظلوم مستجابة ، ولو بعد حين ، هناك دائماً حين ، ولكن النفس عجول ، والرغبة فى الفور كالرغبة فى الكاش دون الشيك المكلف ذهاباً إلى المصرف ، ووقوفاً فى صف طويل ، وفحص توقيع ، وإجراء عملية حسابية من خصم لرصيد الموقع ، أو ما يمثله من شركات وهيئات ومؤسسات ، ومن التحقق من شخصية حامله ومراجعة بطاقته ... وغير ذلك .

ويقين المسلم بأن الله - ﷻ - عدل حكمه وماضٍ قضاؤه ، ألد فى قلبه من العجلة !

وقد ثبت أن النبى - ﷺ - كان يدعو على مَنْ هم أهل للدعاء عليهم دون شك من المشركين الظالمين فنزل قوله - تعالى - : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾¹ . فلما نزلت هذه الآية من سورة

آل عمران كف - ﷺ - عن الدعاء عليهم ، أليس هذا هو الحق فماذا بعد الحق إلاّ الضلال المبين !

ومن تلك القضايا : (قضية العبرة) :

ولا أقصد بالعبرة الموعظة ، وإنما أقصد بها : ما يعتد به من إيمان المؤمن وإسلام المسلم ، والحكم على شخصية الإنسان ، وقد رأيت عجباً فى ذلك ، حيث حصرت ما يقال فى نفى العبرة ، ووجدت فى النهاية أنه لا عبرة بشيء ، وليس هناك شيء نحكم به على أحد ، وهذا عبث وضلال ، ومن ذلك قول القائلين :

1- « العبرة ليست بالصلاة والركوع والسجود وكثرة الخطا إلى المساجد » . هكذا يقول كثير من المتحدثين !

سبحان الله العظيم ، كيف ذلك والصلاة عماد الدين ولا تسقط أبداً ، « من ارتاد مساجدنا ، وصلى متخذاً قبلتنا صار منا » .

والنبى - ﷺ - لم يؤمر ، وبالتالي من تبعه بأن يفتش عما فى قلوب الناس ، وقال لخالد بن الوليد الذى همّ بأن يقتل رجلاً من الذين أساءوا الخطاب للنبى - ﷺ - : دعه فلعله يكون من المصلين ، وقال - ﷺ - وهو فى بيت (أبى الهيثم التيهانى) فى رجل اتهمه الناس بالنفاق : أئصلى ؟ فلما قيل له : نعم قال : ليس منافقاً .

2- ويقولون : « إن العبرة فى الصيام ليست بالامتناع عن الطعام والشراب وشهوة الفرج » !

وهذا عبث وفساد وهدم لفقه الإسلام ، فهذا الذى يعدونه غير معتبر فى الصيام هو عين الصيام ، وليراجع الناس جميع كتب الفقه ، ماذا قال الفقهاء فى

تعريف الصوم بعد قولهم هو لغة : الإمساك ، وشرعاً : الإمساك عن شهوتي البطن والفرج ، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس . فإذا جاءنا من يخاطب الناس بأن العبرة ليست بحقيقة العمل ، فما عسى أن يكون الصيام ! .

كان على هؤلاء أن يقولوا : وللصوم آداب ، وهى كذا وكذا من : حفظ اللسان ، والنظر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقول الزور قولاً وعملاً... وهكذا .

ومرد هذا إلى ضعف فقه الأساليب ، فإن قول النبى - ﷺ - : « مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ » ، ليس معناه أنه لا عبرة فى الصيام عن شهوتي البطن والفرج ، وإنما معناه : نقصان الأجر والثواب ، لكن ما قالوا فيه بلا عبرة هو قمة العبرة .

وحكم الشرع فى رجل أو امرأة - امتنع عن الطعام والشراب والجماع وسائر المفطرات ولم يمتنع عن الغيبة والنميمة أن صيامه صحيح ، وليس عليه قضاء ولا كفارة ، وإنما ينصح بترك المعاصى حتى يبارك له فى صيامه وقيامه ، وسائر ما يتقرب به إلى الله - ﷻ - ، فإن للعبادة ثماراً يجنيها المتعبدون ويجنيها غيرهم ، بحسن خلقهم الذى يعود بالنفع على الجميع .

3- ويقولون : « لا عبرة فى إنفاق المال ، فقد يكون المنفق مرائياً يبتغى الشهرة » !

وهذا باطل أيضاً ، وحكم غير رشيد ، فإنفاق المال فى وجوهه المشروعة ، من أحب الأعمال إلى الله - ﷻ - ، والله يحاسب عباده ، وهو وحده العليم بذات الصدور .

4- ويقولون : « لا عبرة بتلاوة القرآن الكريم آناء الليل وأطراف النهار ، فكم من قارئ لا يجاوز القرآن حنجرته » !؟

فهل يعنى ذلك : أن يترك المسلمون كتاب الله تعالى ، وأن يهجروه !

5- ويقولون : « إن العبرة ليست بالشهادات والأختام ، فكم من حامل شهادة لا يحسن تخصصه الذى تنطق به شهادته » !

فهل معنى ذلك أن يلجأ الناس إلى الدجالين ؟ وأن يهملوا المدارس والمعاهد والجامعات ؟ وأن يحصلوا على شهادات مضروبة ؟

6- ويقولون : « العبرة ليست بكونه أزهرياً ، فهناك علماء من الأزهر لا يعرفون كما يعرف فلان » !

فهل نغلق أبواب الأزهر ، ونفتح أبواب الحوانيت ومجالس الصهبجية والفهلوة ، ومن كل بستان شوكة ؟ !

7- وتقول بعض المثقفات ، أعنى : المشهورة بالثقافة : « العبرة ليست بوضع طرحة فوق رأس المرأة ولا بالنقاب ، تعالوا ، أريكم ماذا تفعل المحجبات والمنقبات » !

فهل هى دعوة إلى السفور والفجور ؟ وخروج المرأة عارية عاصية ؟ ومن قال من أهل العلم إن المحجبة أو المنقبة معصومة من الخطأ وارتكاب المعاصى ، إنها كسائر البشر تخطئ وتصيب ، لكن ألف باء فى دينها ستر العورة ، ومسألة الغطاء والستر ليست حرية شخصية كما يدعى بعض الذين لا يعلمون ، فالحكم الشرعى أن ساترة العورة على صواب ، وأن المنكشفة عاصية وليست حرة ، ولسنا بصدد الحديث عن الحرية ، فهذا يتطلب عملاً مستقلاً .

وإنما أقول هنا خلاصة : هى أن الحرية إنما تكون فى الأمور المباحة شرعاً ، فأنت حر أن تأكل لحماً أو سمكاً أو عدساً أو فولاً... أو غير ذلك ؛ لأن ذلك كله

مباح أكله شرعاً ، فأنت وما تشتهي نفسك لا حرج عليك ، وحين عافت نفس رسول الله - ﷺ - الضب لم يأكله ، وأكله (خالد بن الوليد) بين يديه - ﷺ - وستر المرأة عورتها أو ترك المسلم الصلاة أو رفع الصوت في الطريق ، ذلك كله من الفواحش التي - حرمها الله ﷻ ، فمن ارتكبها لا يعد من الأحرار ، وإنما يعد من العصاة .

وأعتقد أن بيان الحكم الصحيح هو : منتهى الموضوعية التي لها أثرها في حياة الناس ، فكلمة : « أنت حرة » تفتح الباب للهوى والانزلاق في مزيد من الشرور والآثام ، أما كلمة : أنت عاصية مخالفة آثمة ، فيها من الصواب ما يشرح الله به صدوراً شرحها أناس للكفر للطاعة والإحجام والعودة فيها من الصواب ما يشرح الله به صدوراً شرحها أناس للكفر للطاعة والإحجام والعودة إلى الجمال ، لا الردة إلى التخلف !

والشاهد : أن الحصر الذي لا تتيح لنا تلك المساحة ذكره كله يدل على اضطراب في الخطاب ، وخطر في الفهم ، لأن فيه هدفاً لحقيقة الدين الذي أسلم له السلف الصالح من صحابة النبي - ﷺ - أسلموا وعلموا أن العبد يسجد لله سجدة ؛ فيحط الله بها من خطاياها ، ويرفع بها من درجاته ، وأن الصلاة إلى الصلاة والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان ، ومتابعة ما بين العمرة والحج كل ذلك مكفرات ما اجتنبت الكبائر .

أسلموا ، وقد علموا أن المرضى كما يداوون بالدواء تنفعهم الصدقة ، وأن الصدقة دليل صدق الإيمان ؛ ولذلك سميت صدقة وأن من صام رمضان إيماناً

واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، وأن من حج ، فلم يرفث ولم يفسق ، رجع من حجه كيوم ولدته أمه ، وأن لكل عبادة آداباً ؛ إذا تحلى بها العابد فقد حظى بوافر ثوابها ، وكامل أجرها ، وعظيم ما أعده الله تعالى لمن يؤديها ويصطبر عليها ، قال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ ﴾¹ .

إن الصحابة أسلموا لله وهم محسنون ، ولم يعرفوا فرقاً ولا جماعات ولا مذاهب ولا تعصب ، واجتهدوا في الفهم بين يدي رسول الله - ﷺ - ، فقال (أنس) - ﷺ - : سافرنا وفينا من صام في السفر ، وفينا من أفطر ، فما عاب صائم على مفطر ، وما عاب مفطر على صائم ... وهكذا ، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، بأن نكون أمة واحدة ، تجمعها كلمة الله وهي العليا ، وأن نعرف معنى الاجتهاد ، وأن نقف على دعائم الإسلام التي تبنى الفرد وتنصر الأمة ، وأن نلتزم بموضوعية الفكر ، وأن نحسن الحوار ، لعل الله يرحمنا ويهدينا سواء الصراط .

* * *

(1) سورة طه : 132 .

الْفَضْلُ الثَّانِي

الإسلام كما عرفه الصحابة

إسلام أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - :

ما عسى أن تسفر الصحبة في زماننا ، وما أثر العلاقات بين الناس وصفحات العمر تطوى ، ونجوم الليالي تأفل ، وينفض الجمع وتتفرق الخطا ، وننشد قول الأول:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر !

إن إسلام أبي بكر - رضي الله عنه - إثبات لمعنى ينبغي أن يتجدد في كل زمان ، وأن تتناقله الأجيال ، وأن يكون غاية لكل صحبة كريمة ، فالرجل لم تكن له كبوة حين دعاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الإسلام ؛ لأنه يعرف مَنْ دعاه ، لم تكن عنده مفاجأة أن يدعوه صاحبه إلى فضيلة ، وهو الذي لم يعرف عنه إلا كل فضيلة ، درس إلى كل جيل : يجب أن تكون لعلاقتنا ثمار نجنيتها ، ويجب أن نؤثر في أصحابنا مثلما يجب أن يؤثرنا ، ذلكم التفاعل المطلوب الذي تشم رائحته من المجتمع ، مثلما يشم شذا العطر من كل بستان كريم .

لقد كان الصديق - رضي الله عنه - رجلاً معروفاً بحسن الخلق ، تاجراً ، نساباً ، يعرف أخبار الناس وأنسابهم ، وكان رجلاً مؤلفاً لقومه ، سهلاً ، وكان الناس يألفون مجلسه . ولا شك أنه كان يعرف محمداً - صلى الله عليه وسلم - فلما دعاه إلى الإسلام لم يتردد ، وفيه

قال - ﷺ - : « ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبرة ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ما عكم عنه حين ذكرته له ، وما تردد فيه » .

ومعنى عكم : تلبث ، قال رؤية :

وانصاع وثاب بها وما عكم

قال السهيلي في الروض 288 / 1 : « وكان من أسباب توفيق الله إياه ، رؤيا رآها قبل ذلك ، وذلك أنه رأى القمر ينزل إلى مكة ، ثم رآه تفرق على جميع منازل مكة ويبيتها ، فدخل في كل بيت منه شعبة ، ثم كأنه جمع في حجره ، فقصها على بعض الكتابين ، فعبرها له بأن النبي المنتظر الذي قد أظلم زمانه تتبعه ، وتكون أسعد الناس به ، فلما دعاه رسول الله - ﷺ - إلى الإسلام لم يتوقف .

وقول السهيلي : وكان من أسباب توفيق الله إياه يدل على أنه ليست الرؤيا سببًا في دخوله في دين الله - ﷻ - وإنما سبب إسلامه : ما يعرفه عن صاحب الرسالة - ﷺ - من صدق وأمانة ، فقد كان - ﷺ - معروفًا عمره بين الناس بالصادق الأمين ، لبث في قومه أربعين سنة قبل نزول الوحي عليه ، أنضر فتى في قريش ، وأعف شاب فيها ، ما جرب الناس عليه كذبًا قط ، فمن وفق إلى الخير نفعه معرفة ذلك كما انتفع به أبو بكر - ﷺ - .

وقد أسلم بإسلامه عدد من الصحابة ، وهم : (الزبير بن العوام ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، وعثمان) ، وجاء بهم إلى النبي - ﷺ - فأسلموا وصلوا .

فانظر .. كيف يقتدى ثقة بثقة ؟ وكيف يهتدى إمام بإمام ؟ فمن الآن يتبعك على الحق ، ويمضى وراءك !

إننا في حاجة إلى أن نربى رجالاً ، يكون لهم تاريخ كتاريخ الصديق - ﷺ - إذا دعا غيره إلى فضيلة استجيب له ، لا بد أن يكون للأجيال وزن في مستقبلهم ، أن يكونوا رجالاً ، إذا اشتغلوا بالتجارة كانوا مع النبيين يوم القيامة بصدقهم ، وإذا كانوا صادقين في تعاملاتهم وكانوا من أهل السباحة والمروءة ، كان الإسلام بهم راية مرفوعة ، ودعوة مسموعة ، يستجيب الناس لها فيسعدون ، ويسعدون غيرهم .

أسلم - ﷺ - ففداء المظلومين كان هدفًا حققه ، وصحبة النبي - ﷺ - في هجرته كانت بغيته .

وقد تعلمنا من موقف أبي بكر - ﷺ - يوم بكى فرحًا : أن الفرح مسئولية ، قالت عائشة : ما كنت أعرف البكاء من الفرح إلا حين رأيت أبا بكر يبكي فرحًا ؛ لما أذن له النبي - ﷺ - بصحبته .

فرح وهو يعلم أنه سيصحب النبي - ﷺ - في رحلة المخاطر ، قد يدركه الكفار ويقتلونه ، وما في ذلك من بأس ما دام على الحق وفي صحبة المعصوم - ﷺ - .

فرح وقد أعد راحلتين من حرّ ماله ، فالفرح مسئولية ، فيا ليتنا نعلم أبناءنا الذين نرجو لهم يوم فرح بعروس : أن بعد الزفاف والطبل والغناء ثلاجة تنتظر المأكولات ، وباءة واجبة ، وهي مسئولية .

إسلام علي بن أبي طالب

مثلما تنبت الزهرة الندية في الأرض الطيبة، التي يتعهد راعوها بالعناية والرى والوقاية من الآفات والعلل، نبت علي بن أبي طالب - عليه السلام - وكرم وجهه، إنه ربيب بيت النبوة، شب علي حب ابن عمه، الذي غداه حين حمله تخفيفاً عن أبيه في سنة الجذب، كما حمل العباس - عليه السلام - أخاه (جعفر بن أبي طالب) وتركاً لأبي طالب (عقيلاً) حيث شاء، غداه من آيات الرضا قبل أن يقدم له صنوف الطعام، فإذا به فتى رجل، طاهر البدن والنفس معاً، رأى من ابن عمه محمد ما رآه (زيد بن حارثة) فآثر البقاء معه على العودة مع أبيه وعمه إلى مسقط الرأس وملعب الطفولة، ودفع الأمومة.

إن إسلام علي ما زال درساً يتجدد، لمن أراد أن يربى النشء على الفضيلة، ليحظى بالشهد من جراء هذه التربية السامية، تربية البدن والنفس معاً، نام في الفراش الطاهر ليلة الهجرة، فأدى الأمانة، ونما على نور الإسلام، فحمل الراية وقد شهد له رسول الله - عليه السلام - بأنه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله.

أصغر أبناء (أبي طالب)، الذي أخذه النبي - عليه السلام - وأخذ العباس (جعفرًا) عام الشدة؛ لأن أبا طالب كان رجلاً كثير العيال، فأراد النبي - عليه السلام - أن يخفف عن عمه، فقال للعباس: أنا آخذ ولدًا، وأنت تأخذ ولدًا فوافقه، فلما عرض الأمر على أبي طالب قال: اترك لي عقيلًا وافعلاً ما شئتما، فنشأ رضي الله تعالى عنه في بيت النبوة.

قال (ابن عبد البر) في الاستيعاب 9/199:

« قيل: أسلم وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وقيل: ابن اثنتي عشرة سنة، وقيل: ابن خمس عشرة، وقيل: ابن ست عشرة، وقيل: ابن عشر، وقيل: ابن ثمان ».

ثم قال 3/200: « أسلم وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين، وهذا أصح ما قيل ».

أسلم علي صبيًا، ومع ذلك قال (ابن عبد البر) 3/197: « أول من آمن بالله وبرسوله محمد - عليه السلام - من الرجال علي بن أبي طالب ».

ويعجبني التعبير بالرجولة هنا، فالفتى إذا آمن كان من الرجال، وذلك لأنه سمع فوعى، وعرض عليه الحق فقبل، ورب عجوز سخي منبوذ، ورب صغير حصيف ممدوح، إنه الرجل وإن كان صغيراً سنه.

إن إسلام علي - كرم الله وجهه - وهو صغير لدليل على أن الرجولة تأتي مبكرة، ولذا عد في الرجال - عليه السلام -.

قال أبو عمر 3/201:

حدثنا عبد الوارث، حدثنا قاسم، حدثنا أحمد بن زهير بن حرب، حدثنا أبي قال: حدثنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد، حدثنا أبي عن إسحاق، قال: حدثنا يحيى ابن أبي الأشعث عن إسماعيل بن إياس عن عفيف الكندي عن أبيه عن جده قال لي: كنت امرأ تاجرًا فقدمت الحج فأتيت العباس بن عبد المطلب لأبتاع منه بعض التجارة وكان امرأ تاجرًا، فوالله، إنني لعنده بمنى، إذ خرج رجل قريب منه، فنظر إلى الشمس، فلما رآها مالت قام يصلي، ثم خرجت امرأة من ذلك الخبء الذي خرج منه ذلك الرجل، فقامت خلفه تصلي، ثم خرج غلام قد راهق الحلم من ذلك الخبء، فقام معها يصلي: فقلت للعباس: من هذا يا عباس؟ قال: هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخي.

قلت: من هذه المرأة؟

قال : هذه امرأته خديجة بنت خويلد .

قلت : مَنْ هذا الفتى ؟

قال : هذا على بن أبي طالب ابن عمه .

قلت : ما هذا الذى يصنع ؟

قال : يصلى ، وهو يزعم أنه نبي ، ولم يتبعه فيما ادعى إلا امرأته وابن عمه هذا الغلام ، وهو يزعم أنه سيفتح عليه كنوز كسرى وقيصر ، وكان (عفيف) قد أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه ، لو كان الله رزقنى الإسلام يومئذ فأكون ثانيًا مع على .

وقال على - عليه السلام - : صليت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كذا وكذا لا يصلى معه غيرى إلا خديجة وأجمعاً على أنه صلى القبلتين ، وهاجر وشهد بدرًا والحديبية وسائر المشاهد ، وأنه أبلى ببدر وبأحد وبالخندق وبخير بلَاءً حسنًا عظيمًا ، وكان لواء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيده فى مواطن كثيرة .

لم يتخلف عن مشهد شهده رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مذ قدم المدينة إلا تبوك ، فإنه خلفه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على المدينة وعلى عياله بعده ، وقال له : أنت منى بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدى .

وفى صحيح مسلم أنه قال له « كتاب فضائل الصحابة » : « أنت أخى وصاحبى » .

إن إسلام الإمام ، لبيت فينا تلك الروح : روح الأسرة الواحدة ، التى تجتمع على الفضيلة ، ويكون فيها درس الأسوة أقوى من درس الخطبة ، فقد عجبت من رجل يأمر ولده بالصلاة ، وهو لا يصلى ! فلما قالها له ذات يوم :

- ولكنى أراك يا أبى لا تصلى !

أجابه أبوه بقوله :

- لا عليك ، لا تنظر إلى ، لكنى أدلك على الخير ، فافعل ما أمرك به .

وقال الصبى فى نفسه :

لو كانت الصلاة خيرًا لسبقنى أبى إليها ، وصدق الله العظيم القائل : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾⁽¹⁾ .

إسلام عبد الله بن مسعود :

سيظل ابن مسعود صوتًا فى أذن كل عاشق للمعاني العالية ، التى تدرك باليقين ، وإن ضم البدن ، فهو كُنَيْفٌ⁽²⁾ ملئ علمًا كما قال فيه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وفى تلاوته يقول النبى - صلى الله عليه وسلم - : « من أراد أن يقرأ القرآن غَضًّا كما نزل ، فليقرأ على قراءة ابن أم عبد » .

أول من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان ضئيل البدن عظيم الفضل ، وصدق الشاعر حيث قال من « الخفيف » :

وإذا كانت النفوس كبارًا تعبت فى مرادها الأجسام

شهد المشاهد ، وأقر الله عينه بقتل أبى جهل يوم بدر ، ما ضره أن يكون راعى غنم ، فذلك من فضل الله والنعم ؛ لأنه صاحب النبى - صلى الله عليه وسلم - .

رأى عبد الله بن مسعود من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما لا يرى إلا من نبى ، فكان كما قال : يرعى غنمًا لعقبة بن أبى معيط ، فمر به - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا غلام ، هل من

(1) سورة البقرة : 44 .

(2) الكنيف : على التصغير آنية الجبر .

لبن؟ قال: قلت: نعم، ولكنني مؤتمن، فقال: فهل من شاة حائل لم يَنْزُ عليها الفحل؟ فأتيته بشاة فمسح ضرعها، فنزل لبن فحلبه في إناء، وشرب وسقى أبا بكر، ثم قال للضرع: اقلص، فقلص، ثم أتيته بعد هذا فقلت: يا رسول الله، علمني من هذا القول فمسح رأسي، وقال: «يرحمك الله فإنك عليم معلم».

قال (ابن عبد البر) في «الاستيعاب» (3/111): «وكان سبب إسلامه: أنه كان يرعى غنماً (لعقبة بن أبي معيط)، فمر به رسول الله - ﷺ - وأخذ شاة حائلاً من تلك الغنم، فدرّت عليه لبناً غزيراً».

إن شاباً عرف الأمانة، وهى خلق له قيمته، والصادق الأمين - ﷺ - فأقره على أمانته، وسأله شاة لا لبن فيها، وليس في هذا من خيانة، فإذا به يمسح ضرعها فتدر اللبن الغزير.. هيهات أن يكون ساحراً؛ لأن السحر وهم وخيال، وهذا واقع ملموس مرئى، وإذا به يقول للضرع: اقلص، فعاد كما كان!

وإذا أردنا أن نقف على باب إسلام ابن مسعود، قلنا: إنه باب المعجزة الخارقة للعادة، وباب الكرامة. ولنا أن نسأل هذا السؤال:

هل اشتملت سيرة ابن مسعود على تتابع لهذا الباب؟

أم كانت سيرته - ﷺ - : كتاب الله، وفيه يقول النبي - ﷺ - : «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَسْمَعَ الْقُرْآنَ غَضًّا فَلْيَسْمَعْهُ مِنْ ابْنِ أُمِّ عَبْدِ اللَّهِ». قال (ابن عبد البر) وبعضهم يرويه: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أَنْزَلَ، فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدِ اللَّهِ».

صلى ابن مسعود وافتتح بالنساء، ثم أخذ يدعو، فقال: «اللهم، إني أسألك إيماناً لا يرتد، ونعيماً لا ينفد، ومرافقة نبيك محمد، في أعلى جنة الخلد».

وقال ابن عبد البر:

حين جلس ابن مسعود يدعو قال النبي - ﷺ - : سل تعطه.

فبشره أبو بكر - ﷺ - ، وذهب عمر ليشره، فإذا أبو بكر خارج من عنده، فقال: إن فعلت فقد كنت سباقاً للخير. وكان رضى الله عنه رجلاً قصيراً نحيفاً، يكاد طوال الرجال يوازونه جلوساً وهو قائم.

كان أول من جهر بالقرآن الكريم بعد النبي - ﷺ - بمكة، ونستطيع أن نقول مطمئنين: إن القرآن الكريم كان حياة ابن مسعود - ﷺ - .

قال أبو عمر: وروى أبو معاوية وغيره عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة قال: جاء رجل إلى عمر وهو بعرفات، فقال: جئتك من الكوفة، وتركت بها رجلاً يحكى المصحف عن ظهر قلبه، فغضب عمر غضباً شديداً وقال: ويحك، ومن هو؟ قال: عبد الله بن مسعود، قال: فذهب عنه ذلك الغضب وسكن، وعاد إلى حاله، وقال: والله ما أعلم من الناس أحداً هو أحق بذلك منه.

وقال ابن مسعود: والذي نفسى بيده، لقد أخذت من في (فم) رسول الله - ﷺ - سبعين سورة، وإن (زيد بن ثابت) لذو ذؤابة يلعب به الغلمان، والله ما نزل من القرآن شىء إلا وأنا أعلم في أى شىء نزل، وما أحد أعلم بكتاب الله منى، ولو أعلم أحداً تبلغنيهِ⁽¹⁾ الإبل أعلم بكتاب الله منى لأتيته.

ثم قال وقد أصابه الحياء مما قال: «وما أنا بخيركم».

قال (شقيق أبو وائل): فتعدت في الحلق فيها أصحاب رسول الله - ﷺ - فما سمعت أحداً أنكر ذلك عليه، ولا ردّ ما قال.

(1) تبلغنيهِ الإبل: توصلني إليه.

وفيه قال النبي - ﷺ - « رَجُلٌ عَبْدُ اللَّهِ أَوْ رَجُلًا عَبْدُ اللَّهِ فِي الْمِيزَانِ ، أَثْقَلَ مِنْ أَحَدٍ » .

وذلك حين أمره النبي - ﷺ - أن يصعد شجرة فيأتيه بشيء منها ، فنظر أصحابه إلى حموشة ساقية فضحكوا ، فقال النبي - ﷺ - « وما يضحكم ؟ ! لرجلا عبد الله في الميزان أثقل من أحد ! »

وقال - ﷺ - استقرئوا القرآن من أربعة ، قال أبو عمر : (112 / 3) : فبدأ بعبد الله بن مسعود .

إن رجلاً دخل الإسلام من باب الكرامة ، ثم عكف على كتاب الله - ﷻ - مع جهاد في سبيله ونشر سنة نبيه - ﷺ - لرجل أوتى الحكمة والصواب وفصل الخطاب ، وفي سيرته ما ينفع المسلمين ، الذين ما إن رأوا بعض كرامة في إنسان نصبوا له المقامات ، واصطنعوا له مزيداً من الكرامات ، وأوضعوا في الناس فتنة به . إننا في حاجة إلى التمسك بكتاب ربنا الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وفيه يقول ربنا تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾¹ .

ومن التواصي بالحق : أن يوصى بعضنا بعضاً بالعمل الجاد ، والجهاد الحقيقي وهو : بذل أقصى الجهد في كل ميدان ، في : الزراعة والصناعة والتجارة ، والبحث العلمي وطلب العلم ، والتقدم ، ومسابقة الأمم ، لكي يتم لنا النصر المبين .

في كتب التاريخ والسير أن (مسيلمة الكذاب) كان يسأل عن أعمال النبي - ﷺ - ليفعل مثله وكانت النتيجة على العكس ، بلغه أن النبي - ﷺ - تفل في بئر

ففاض ماؤها ، فلما تفل مسيلمة في بئر غار ماؤها ، وبلغه أن النبي - ﷺ - مسح على رأس طفل فكان شعره أجمل شعر وبورك فيه ، فمسح مسيلمة على رأس طفل فذهب شعره وسقط .

وابن مسعود لم يسأل ، وإنما شاهد وعين النبي - ﷺ - - يمسح على الضرع اليابس الخالي من اللبن ، فإذا به يدر لبنًا غزيرًا ، فلم يفعل مثلما فعل ، ولو على سبيل التجربة والتسلية ، وحين ذهب إلى النبي - ﷺ - سأل أن يعلمه من هذا القول أى من القرآن الذى هو منهج حياة الناس ورضارب الناس - ﷻ - الذى ارتضى لهم من الاستعانة بالصبر والصلاة ، فالله مع الصابرين ومع المتوكل على الله ، فالله - ﷻ - يحب المتوكلين ، وهنا يبدو لك الفرق بين كذاب يود أن يقلد من أظهر الله تعالى على يده المعجزة تأييدًا وتصديقًا للنبوة ، وبين صادق أراد أن يتعلم منهج من أيدى الله تعالى بالمعجزة !

لا يتصور عاقل أن يقلد جاهل طبيبًا في الكشف على مريض ، فيضعه أمامه ويقف منه موقف الطبيب ، ويضرب على صدره ، ويقول له : خذ نفسًا عميقًا ، ثم احبسه في صدرك ، ثم يقلبه على بطنه ، وينقر مواضع من ظهره ، ثم يجلس ويكتب على ورقة حروفًا أعجمية ، ويناوئها إياه أو يناوله إياها ، ويأمره أن يتجه بها إلى الصيدلية !

هذا ضرب من العبث واللعب والتمثيل ، لكن ما أبعده عن الحق والحقيقة ، والمنهج السليم في الحياة !

إن المعجزة للنبي وحده ، ومن رآها ، ووفق إلى الصواب أخذ بمقتضاها ، ومقتضاها : الأخذ بمنهج ذلك النبي الذى أظهر الله تعالى المعجزة على يديه .

لقد رأى سحرة فرعون معجزة موسى ، وعلموا أنها ليست سحرًا ، يتعلمونه ، وإنما هي الحق الذى يتبعونه ، لم يقولوا لموسى : هذا ضرب من السحر جديد ، علمنا إياه يا معلم ، وإنما سجدوا للرب العالمين قائلين : آمنا برب العالمين رب موسى وهارون .

إسلام عمر بن الخطاب :

حقائق بين أيدينا تكشف الطريق وتنير الدروب ، منها : أن الله - ﷻ - قادر على تأليف ما تنافر من القلوب : ﴿ وَاللَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾¹ .

رق قلب عمر ، وقد كان قاسيًا : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ ﴾² .

إن إسلام عمر يجدد الأمل ، ولا حياة بلا أمل ، ومنها : أن كتاب الله - ﷻ - كفيل وحده بأن تشرق له قلوب مظلمة دون خطب رنانة ، وقصائد عصماء ، وفلسفة متعمقة ، ومجادلة وسجال ، إن القرآن الذى أسلم بسبب سماعه عمر - ﷺ - هو الذى نتلوه ، وصدق القائل : هذه هى الفاتحة ، فأين هو عمر !

لو صدق المبلغ دين الله ، وتلا كتاب الله حق تلاوته ، لأسلم على يديه من أراد الله لهم السلامة .

(1) سورة الأنفال : 63 .

(2) سورة الممتحنة : 7 .

﴿ إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلْغُ ﴾¹ . وقد جاء فى الصحيح : « بلغوا عنى ولو آية » ، فلو نزلت الآية على جبل لرأيناه خاشعًا متصدعًا من خشية الله ، فلعلنا نتفكر مليًا فى هذه الحقيقة .

قبل بزوغ الفجر تبدو فى الأفق أمارات ، وقبل بلوغ الحضارات تحدث علامات ، تلك سنة الكون التى تتجلى عبر الزمن .

إطلاقة فجر :

ومن ذلك ما كان فى إسلام عمر الفاروق - ﷺ - لقد قالت (أم عبد الله بنت أبى حنمة) : والله إنا لنرتحل إلى أرض الحبشة ، وقد ذهب عامر (ابن ربيعة زوجها) فى بعض حاجاتنا ؛ إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف على وهو على شركه ، وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشدة علينا .

فقال : إنه الانطلاق يا أم عبد الله ؟

قالت : فقلت : نعم والله ، لنخرجن فى أرض الله ، آذيتمونا وقهرتمونا ، حتى يجعل الله لنا مخرجًا .

فقال : صحبتكم الله .

قالت : ورأيت له رقة ، لم أكن أراها ، ثم انصرف وقد أحزنه - فيما أرى - خروجنا .

قالت : فجاء (عامر) بحاجته تلك ، فقالت له : يا أبا عبد الله ، لو رأيت عمر آنفًا ورقته وحزنه علينا .

قال : أطمعت فى إسلامه ؟

قالت : قلت : نعم .

(1) سورة الشورى : 48 .

قال : والله لا يسلم الذى رأيت حتى يسلم حمار الخطاب يأسأ منه؛ لما كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام . وتلك البادرة التى هى كالقطرة التى تسبق الغيث المنهمر ، وقفت عليها امرأة مسلمة مهاجرة ، ولا يفوتنا ما فيها من دروس نافعة .

منها : أنها قالت : لنخرجن فى أرض الله ، حتى يجعل الله لنا مخرجاً .

فالذى يرجو المخرج من الله لا بد له أن يخرج إلى حقل يزرعه ، أو متجر يفتحه ، أو مصنع يبنيه ، أو أرض يهاجر إليها ليعبد الله تعالى فى أمان ، فمند فجر الإسلام ، والأوائل على يقين وعقيدة صحيحة ، واليوم يريد كثير من الناس أن يهبط عليهم الرزق من السماء ، ويريدون أن يأتيهم المخرج بتعويذة يتلونها مائة مرة ، أو ألف مرة ، ويريدون مفسراً لأضغاث أحلام لا تفسير لها عند العلماء .

يقول لهم : فى الطريق إليكم رزق يأتى بلا تعب ولا مشقة ، هكذا يقول مفسر الأحلام الدجال لكل من رأى لحماً فى منامه ، يسأله :

هل كان اللحم الذى رأيت نبيئاً أم مطبوخاً أم مشويئاً ؟!

فإن كان نبيئاً فرزق يأتىك بتعب ومشقة ، وإن كان مطبوخاً أو مشويئاً فرزق يأتىك بلا تعب ولا مشقة ، ولا دليل على ذلك من كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا قياس ، وما كان كتاب الله تعالى ، ولا سنة رسوله ﷺ - مصادر لتفسير الأحلام ، وإنما الكتاب والسنة نور لحياة الأنام ، فى اليقظة لا فى المنام .

ومنها قول (أم عبد الله) - ثم انصرف - أى عمر - وقد أحزنه - فيما رأى - خروجنا .

لقد قالت : فيما أرى .

وقولها هذا يفتقد فى طلاب الدراسات العليا اليوم ، الذين يعدون رسالة جامعية للحصول على درجة العالمية (الدكتوراه) حيث يجزم بعضهم بما لا يحيط به علمه ، مدعيًا أن هذا من قبيل الحصر ، والقطع .

إن من الجائز أن يكون حزن عمر على شىء آخر ، كمرض لم يكن لأم عبد الله علم به ، أو أى شىء آخر ، لكنه بدا لها من خلال الحوار أنه حزن عليهم ، وكان بوسعها أن تقطع بذلك لما قال لها : صحبتكم الله مثلاً ، لكنها ما دامت لا تعلم الغيب فهى تقول - فيما أرى - : أى هذا ما بدا لى !

فهلا تعلمنا من ذلك : أن ما عليه كثير من الناس تحجب مراجعته ، فإن لدينا أناساً يقولون بالقطع ، وكأنهم اطلعوا على الغيب .

قال لى أحد الفضلاء : إن فلاناً ظلمنى ظلماً بيناً ، ودعوت عليه ، وقد ابتلى بكذا وكذا ، فأدركت أن الله تعالى قد استجاب دعائى .

فقلت له : لعله ظلم غيرك ، فدعا عليه ، وتلك دعوته لا دعوتك ، فمن أدراك أنها دعوتك ؟ وهذا يتفق وقول أم عبد الله - رضى الله عنها - فيما أرى .

ولو قال هذا الفاضل : فيما أرى لأصاب ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

وفى إسلام عمر - رضي الله عنه - روايات متعددة ، أعلاها : أنه قرأ الصحيفة التى كانت عند أخته (فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد) ، وفيها الآيات الأولى من سورة طه ، وهى كما قال العقاد فى عبقرية محمد ، ليس فيها وعد ولا وعيد ، وإنما هى آيات ناطقة بقدرة الله تعالى ، مالك الملك الذى لا تخفى عليه خافية : ﴿ طه ﴾ مَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾ إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن تَخْشَى ﴿٢﴾ تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ

الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ۖ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ۚ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۚ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ۚ ﴿١﴾

فقد خرج عمر يومًا متوشحًا سيفه يريد رسول الله - ﷺ - ورهطًا من أصحابه، قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا، وهم ما يقرب من أربعين ما بين رجال ونساء، ومع رسول الله - ﷺ - عمه (حمزة بن عبد المطلب وأبو بكر وعلى)، فلقبه (نعيم بن عبد الله)، فقال له:

أين تريد يا عمر؟

قال: أريد محمدًا هذا الصابئ، الذي فرّق أمر قريش، وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها، فأقتله.

فقال له نعيم، أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟

قال: أي أهل بيتي؟

قال: ختنك وابن عمك (سعيد بن زيد وأختك فاطمة)، فوالله لقد أسلما وتابعا محمدًا على دينه، فعليك بهما، فرجع عمر عامدًا إلى أخته وختنه، وعندهما (خباب بن الأرت) معه صحيفة فيها (طه).

فلما سمع وقع عمر، تغيب خباب في مخدع لهم، وأخذت فاطمة الصحيفة فأخفتها، فلما دخل عمر، قال:

ما هذه الهيمنة التي سمعت؟

فقالا له: ما سمعت شيئًا.

قال: بلى والله، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدًا على دينه، وبطش بختنه سعيد ابن زيد، فقامت إليه أخته لتكفه عن زوجها، فضر بها فشجها، فقالت له:

نعم قد أسلمنا. وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك، فلما رأى ما بأخته من الدم ارعوى، وقال:

أعطيني هذه الصحيفة، وكان - ﷺ - كاتبًا أي وقارئًا فقالت: إنا نخشاك عليها.

قال: لا تخافي، وحلف لها بآلته ليردنها إذا قرأها إليها.

فلما قال ذلك، طمعت في إسلامه، ثم قالت له:

لا يمسه إلا طاهر، فقام فاغتسل، فأعطته إياها، فلما قرأ منها صدرًا انشرح صدره، وقال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه!!

وعندئذ خرج خباب بن الأرت، وقال:

يا عمر، إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإنه سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيد الإسلام (بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب)، فالله الله يا عمر. فقال له عند ذلك عمر: فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم، فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشحه وانطلق إلى حيث كان النبي - ﷺ - وفرح المسلمون بإسلام عمر القوي.

وما من شك في أن إسلامه سببه: تأثره بالقرآن الكريم الذي هو معين في أيدينا لا ينضب. وما أشد حاجتنا إلى أن نروى به قلوبنا حتى نفيق من جهالتنا وضلالتنا وبدعنا، وما نحن عليه من تخلف.

إسلام خالد بن سعيد:

كأن الحقيقة أبت إلا أن تتجسد له في منامه ؛ لتشغله في يقظته بما هو حادث في مكة من أمر النبي محمد - ﷺ - والوحي الذي يأتيه من السماء .

إنها حديث نفس مشغولة بما يجري حولها في اليقظة ، فأعظم ما ينشغل به الناس ، تلك الرسالة التي جاء بها من عرفوا صدقه وأمانته ووفاءه وطيب سيرته ، وكانت رؤياه جملة واحدة ، لا رواية طويلة (محمد ينقذه من النار) وهى جملة يتجسد فيها الإسلام كله ، فاتباع محمد - ﷺ - هو المنقذ الوحيد من عذاب الله .

شغلته هذه القضية : قضية النجاة من النار ، فقال حين عزل من ولاية كان قد وعد بها :

« ما سرتنى ولايتكم ، وما ساءنى عزلكم » .

(خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشي الأموي) ، أسلم قديماً بعد أبي بكر الصديق فكان ثالثاً أو رابعاً .

وسبب إسلامه : أنه كان صديقاً لأبي بكر ، يثق به ، ويعمل عقله وفكره ، وقد دعاه أبو بكر إلى الإسلام . ومن لطف الله به أنه نام فرأى في منامه أنه وقف به على شفير النار ، فذكر من سعتها ما الله أعلم به ، وكأن أباه يدفعه فيها ، ورأى رسول الله - ﷺ - آخذاً بحقوقه (والحقوق : الكشح : معقد الإزار) لا يقع فيها ، ففزع ، وقال : أحلف بالله ، إنها لرؤيا حق ، وحدث أبا بكر - ﷺ - ، فقال له : إنه رسول الله فاتبعه ، وإنك ستبعه في الإسلام الذي يحجزك من أن تقع فيها ، وأبوك واقع فيها ، فلقى رسول الله - ﷺ - وهو بأجياذ فقال له : يا محمد ، إلى من تدعو ؟

فقال : أدعوك إلى الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ، ولا يدري من عبده ممن لم يعبد فقال خالد : فإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله . فسرَّ رسول الله - ﷺ - بإسلامه .

عذبه أبوه ، وقال له لأمنعنك القوت .

فقال له : إن منعتنى ، فإن الله يرزقنى ما أعيش به ، فأخرجه وقال لبنيه : لا يكلمه أحد منكم إلا صنعت به ما صنعت به ، فانصرف خالد إلى رسول الله - ﷺ - فكان يلزمه ويعيش معه ، وتغيب عن أبيه في نواحي مكة حتى خرج أصحاب رسول الله - ﷺ - إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية ، فكان خالد أول من خرج إليها .

ومرض أبوه ، فقال : لئن رفعنى الله من مرضى هذا ، لا يعبد إله ابن أبى كبشة بمكة أبداً ، فقال خالد : اللهم لا ترفعه ، فتوفى في مرضه ذلك ، واستجاب الله دعوة الولد المؤمن على أبيه الكافر .

إن قضية الرؤيا التي رآها خالد بن سعيد - ﷺ - مهمة في حياتنا ، فقد رأى أن أباه يدفعه إلى النار ، فهل كان أبوه يدفعه إلى النار حقيقة ؟ وهو الذى كان يقدم له القوت والشراب ويدنيه منه ، إن حقيقة دفع أبيه له المال الذى يصير إليه بعد الموت على الكفر ، إن هو ظل متبعاً دين أبيه مع ظهور نور محمد - ﷺ - .

ولقد رأى أن رسول الله - ﷺ - هو الذى يحجزه ويمنعه من النار ، فبماذا فسر ذلك أبو بكر - ﷺ - ؟

لقد قال أبو بكر كما ذكر (أبو عمر) في «الاستيعاب» (2/9)، وأنتك ستتبعه في الإسلام الذي يجيرك أن تقع فيها.

ولو فطنا إلى هذه العبارة، لعلمنا أن إنقاذ محمد - ﷺ - أمته من النار، إنما هو بسبب اتباعهم منهجه الذي جاء به من ربه - ﷻ -، فإن ذلك من باب إطلاق السبب وإرادة المسبب، أي أن رسول الله - ﷺ - هو السبب، الذي يتسبب عنه فعل الخيرات، وترك المنكرات، وهو الذي يحجز الناس وينقذهم من النار.

فقد يظن كثير من الناس أن الأمة مرحومة بالنبي - ﷺ - لمجرد أن شهدت الشهادتين، وكتبت في المسلمين دون عمل وجهاد وإنفاق، وعبادة وحسن معاملة. ألم يخبر النبي - ﷺ - بامرأة كثيرة الصلاة كثيرة الصيام، لكنها تؤذى جيرانها بلسانها، فقال عليه الصلاة والسلام: هي في النار؟

ألم تكن مسلمة يشهد بإسلامها ما تؤديه من كثير صلاة وصيام، لكن ذلك لا يغني عنها من الله شيئاً، لأن من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بُعْداً.

لقد هاجر خالد بن سعيد إلى الحبشة، وكان أول من هاجر إليها، ولم يلزم النبي - ﷺ - ويأكل معه وقد منعه أبوه القوت.

وكان دينه أحب إليه من أبيه، فدعا عليه؛ إذ علم أنه نذر لله نذراً، إن شفاه ألا يعبد إله محمد - ﷺ -.

وقد ولاه أبو بكر ولاية، واستشار عمر - ﷺ - فلم ير في ذلك عمر صلاحاً فوافقه أبو بكر، لكنه قدم عليه في بيته ليعتذر بنفسه إكراماً له، ولسبق إسلامه، فقال خالد بن سعيد: «والله ما سرتني ولايتكم، وما ساءني عزلكم».

وما ذلك إلا لأنه رجل فرح بما رآه، مشغول به، إنه يرجو النجاة من النار، فإن ولي وكان في الولاية خير فيا مرحباً، وإن عزل وكان في العزل خير فيا مرحباً.

تلكم هي الشخصية الإسلامية التي تبنى على أساس الهروب من العذاب يوم الحساب، مشغول بها، لا يشغل بالمناصب فيموت كمداً إذا ضاعت، ويفرح طرباً إذا توافرت وجاءت.

إن من يؤمن بأن محمداً - ﷺ - ينقذه من النار بلا عمل، فقد صار أقرب إلى الشيطان منه إلى الرحمن، وليس أدل على ذلك من سؤال الصحابة جميعاً رسول الله - ﷺ - عن أحب الأعمال إلى الله، ولو كان الأمر مجرد إعلان إسلام ونطق بالشهادتين، لما سأل أحد هذا السؤال.

والأمة الآن وفي كل زمان، في حاجة إلى فقه هذا الدرس العظيم؛ لأن النبي - ﷺ - قد بلغ عند ربه - ﷻ - قوله: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾⁽¹⁾.

وبلغ عن ربه فيما بلغ: ﴿وَلَا تَحْسَبُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾⁽²⁾.
وبلغ عن ربه - ﷻ - : ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾⁽³⁾.

وبلغ عن ربه - ﷻ - فيما بلغ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾⁽⁴⁾.

(1) سورة التوبة: 105.

(2) سورة الحجرات: 12.

(3) سورة المجادلة: 11.

(4) سورة الحجرات: 10.

وبلغ عن ربه - ﷺ - : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾⁽¹⁾.

فمن التزم وأصلح فأجره على الله - ﷻ - ، ومن فهم خلاف ذلك وجب عليه أن يهتدى إلى صراط الله ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

إسلام الطفيل بن عمرو :

مهما يكثر الناس من قول لك ، لا بد أن تعمل عقلك ، هكذا أعمل (الطفيل ابن عمرو الروسى) عقله ، وكان قد سدّ أذنيه كيلا يسمع من النبى - ﷺ - شيئاً ، بعد أن اجتمع الناس إليه وقالوا له محذرين : إياك وسماعه ، فإنه يفرق بين المرء وأخيه ، وولده ووالده ، وزوجته ، وكأنه قال لأول وهلة : مالى ومثل هذا ، وقد أتيت إلى مكة وفى قلبى يسكن أحبابى : أبى وزوجتى وأهلى وجيرانى ، غابت العين عنهم فلا نور إلا ما يكشف طريق العودة إليهم ، لقد جئت مكة أدعو لهم بالبركة ، فما لى ولسماع ما يفرقنى عنهم ويفرقهم عنى ، إلا أن عناية الله تداركته فعاد يسأل نفسه : أليق ذلك بعاقل ؟ يسمع هكذا فيطيع دون أن يعمل عقله ، لماذا أنساق وراء هؤلاء ؟! فنزع سداد أذنيه ، فتفتح قلبه ، وانشرح صدره لما سمع منه - ﷺ - .

وعاد إلى قومه ، ونور الإسلام يصحبه ، ليسلم من أسلم ، وليصد من يصد ، وأخذته مراة الصدود كما أسعده إسلام من أسلم ؛ فعاد إلى النبى - ﷺ - - يسأله أن يدعو على (دوس) التى غلبته ؛ فإذا بالنبى - ﷺ - يقول : اللهم اهدِ دوساً ، فعاد من جديد يهدى جديد ، يبعث النور ويرسل الأمل فى الطريق .

(1) سورة البقرة : 255 .

قدم الطفيل بن عمرو الدوسى مكة ، ورسول الله - ﷺ - - بها ، فمشى إليه رجال من قريش ، علموا بقدومه ، وهو عَلم شريف معروف وشاعر لبيب ، فرحبوا به ، ثم قالوا له : يا طفيل ، إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا ، وقد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر ، يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وبين زوجته ، وإنما نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئاً .

قال الطفيل : فوالله ما زالوا بى حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه ، حتى حشوت فى أذنى - حين غدوت إلى المسجد كرسفاً - (قطناً) فرقاً من أن يبلغنى شىء من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمعته قال : فغدوت إلى المسجد ، فإذا رسول الله - ﷺ - قائم يصلى عند الكعبة ، فقمته منه قريباً ، فأبى الله إلا أن يسمعنى بعض قوله ، فسمعت كلاماً حسناً ، فقلت فى نفسى : وأثكل أُمى ، والله إنى لرجل لبيب شاعر ، ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فإن كان هذا الذى يأتى به حسناً قبلته ، وإن كان قبيحاً تركته . فمكث حتى انطلق رسول الله - ﷺ - - إلى بيته فتبعه ، وسأله أن يعرض عليه الأمر ، قال : فعرض على رسول الله - ﷺ - - الإسلام ، وتلا على القرآن ، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أمراً أعدل منه ؛ فأسلمت ، وشهدت شهادة الحق ، وقلت : يا نبى الله ، إنى امرؤ مطاع فى قومى ، وأنا راجع إليهم ، وداعيتهم إلى الإسلام ، فادع الله أن يجعل لى آية تكون لى عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه ، فقال : اللهم اجعل له آية .

وعاد الطفيل بنور الإسلام إلى قومه ، فلقى أبوه فقال له : لست منى ، ولست منك ، قال أبوه : ولمه ؟

قال : لقد أسلمت واتبعت محمدًا ، فقال والده : ديني هو دينك . وبمثل هذا قال لزوجته ، فأسلمت أيضًا .

ودعا الطفيل قومه فأبطؤوا عليه ، فعاد إلى النبي - ﷺ - وسأله أن يدعو ، فما كان منه - ﷺ - إلا أن قال : « اللهم اهد دوسًا » ، أى إنه دعا لهم ، ولم يدع عليهم - ﷺ - .

لقد تحدث الطفيل عن قصة إسلامه وهو مسلم ، فأسند الفضل إلى الله تعالى ، والله يهدي من يشاء : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾¹ .

ومع ذلك .. ذكر لنا الدرس الذى يجب علينا أن نعيه وهو : عرض حاله على نفسه ، فهو رجل شاعر لبيب ، شاعر يدرك أسرار البيان ، ولا يخفى عليه تمييز الطيب من الخبيث من القول ، وليب ذو عقل ، فما ثمرة العلم والعقل إن لم يكن لهما أثر في حياة الإنسان ؟ كيف يستجيب لقوم أشعلوها حربًا نفسية ، وشحنوه كرهاً وبغضاً للرسالة وصاحبها ، فالرسالة سحر يفرق ولا يجمع ، وصاحبها لا يألو جهداً في تبليغها ، وهو داعية إلى اتباعه ، فإن اتبعه فالويل له ، ومشوا على ذلك حتى وضع الرجل سداً في أذنيه لكيلا يسمع من محمد - ﷺ - شيئاً من أقواله التى تفرق بين الرجل وأبيه ، وبين الرجل وأخيه ، وبين الرجل وزوجته !

لكن اللبيب إذا خدع ، فإنه لا يستمر على خداع ، فسرعان ما ينخلع ثوب الزور ، ويرتدى ثوب الحق الذى يقبله عقله وقلبه الذى لم يلوثه اتباع الباطل والهوى . لقد قال الرجل في نفسه : ماذا فعلت ؟ وما هذا الذى كان منى ؟ وكيف أستجيب لهؤلاء استجابة الغر ، الذى ينقاد دون إعمال عقل ونظر ، إننى رجل شاعر لبيب ، فماذا على

لو استمعت إلى الرجل ، فإن كان ما يدعو إليه حسناً قبلته ، وإن كان الذى يدعو إليه قبيحاً تركته .

وقد استمع ، ووجد الحسن كله ، والعدل كله ، فأسلم . وبإسلامه أسلم أبوه ، وأسلمت زوجته ، وهذا يدل على ما كان بينهم من ثقة ، ومودة ، وتآلف ، إن الأب يعرف ولده ، عقله وفكره وما دام قد هدى إلى دين فلن يكون هذا الدين إلا حقاً ، والزوجة تعرف زوجها وما عليه فكره وعقله ، وقد ورد أن أباه قال له : ولمه ؟ وأن زوجته زادت : ولمه بأبى أنت وأمى ، فإن للزوج عند زوجته لمكانة ، كما قال النبي - ﷺ - حين صرخت (حمنة بنت جحش) لما علمت بوفاة زوجها (مصعب بن عمير) - ﷺ - فى أحد ، وكانت قد استرجعت حين علمت بوفاة أخيها (عبد الله بن جحش) وخالها (حمزة) - رضى الله عنهما - .

وهذا الترابط المحمود مطلوب فى حياة الأمة ، وقد قال الله تعالى فى سورة التحريم : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوتُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾¹ .

إسلام (حمزة) سيد الشهداء :

ما كل رجل تبدر منه بادرة يكون فيها خيره ، ألا ترى إلى قول البارودى :

إنى امرؤ لا يعرف الخوف بادرته ولا يحيف على أخلاقى الغضب

لكن بادرة العظماء أشبه بالفجر الذى يضيء الظلمة ، ويكشف ستر الليل .

وما كل من أسلم يدخل السرور على قلبك بإسلامه ، وإن وجب عليك حبه ، كما يقول (ابن حجر) في « فتح الباري » ، لكن إذا أسلم القوي الفارس ، فإنما يقتحم القلوب بحبه ؛ لما يحدثه إسلامه من خير يعم المسلمين ، ويرفع الأذى عنهم ، فالؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وللنقوة أثرها في الحياة لا ينكره إلا من كل بصره وسقم فكره .. والداعون إلى الفقر والضعف داعون إلى زوال الأمة ، لأن الله - ﷻ - يقول : ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدْنَا ﴾⁽¹⁾ .

كان لحمزة عم رسول الله - ﷺ - وأخيه في الرضاعة قنص (صيد) يرميه ويخرج له ، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالبيت ، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم ، وكان أعز فتى في قريش وأشد شكيمة .

وذا رجة من تلکم الرجعات ، علم حمزة من جارية كانت (لعبد الله ابن جدعان) أن أبا جهل - لعنه الله - آذى ابن أخيه ، وعاب دينه ، وشتمه ، ونال منه بعض ما يكره ، فلم يكلمه رسول الله - ﷺ - فتوجه حمزة إلى أبي جهل وقد احتمله الغضب لما أراد الله به من كرامته فخرج يسعى ، ولم يقف على أحد مستعداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم ، فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضر به بها ، فشجّه شجرة منكراً ، ثم قال : فأنا على دينه ، أقول ما يقول ؟

فرد ذلك على إن استطعت ، فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة ؛ لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة ، فإنني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً ، وتم حمزة - ﷺ - - على إسلامه .

فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله - ﷺ - قد عز وامتنع ، وأن حمزة سيمنحه فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه .

قال (السهيلي) في « الروض » 2 / 49 : « وعنه عن ابن إسحق : أن حمزة - ﷺ - قال : لما احتملني الغضب ، وقلت أنا على قوله (أي على دين محمد ﷺ) أدركني الندم على فراق دين آبائي وقومي ، وبت من الشك في أمر عظيم لا أكتحل بنوم ، ثم أتيت الكعبة وتضرعت إلى الله سبحانه أن يشرح صدري للحق ، ويذهب عني الريب فما استتممت دعائي حتى زاح عني الباطل ، وامتلاً قلبي يقيناً ، فغدوت إلى رسول الله - ﷺ - فأخبرته بما كان من أمري ، فدعاني بأن يثبتني الله ، وكان مما قاله - ﷺ - :

حمدت الله حين هدى فؤادي	إلى الإسلام والدين الحنيف
لدين جاء من رب عزيز	خير بالعباد بهم لطيف
إذا تليت رسائله علينا	تحد دمع ذى اللب الحصيف
رسائل جاء أحمد من هداها	بآيات مينة الحروف
وأحمد مصطفى فينا مطاع	فلا نغشوه بالقول العنيف

والسبب كما جاء في إسلام حمزة : انتصاره للمظلوم ، في نظره ، الذي ظلمه عدو الله أبو جهل ، ودفاعه عنه وهو ابن أخيه ، فكان أن وفقه الله تعالى إلى دينه ، وهداه إلى سبيله .

ولعل ذلك يفيد الذين لا صلة لهم بأرحامهم من قريب أو بعيد ، لعله يوقظ فيهم حرارة الوصال ، ويقضى على القطيعة .

فإن من قطع ما أمر الله به أن يوصل ، كانت له اللعنة ، قال عز من قائل :
﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۝١﴾ .

إنَّ غضبته في الحق جعلها الله تعالى سبباً للخير كله ، فأسلم حمزة ، وكان سيد الشهداء - ﷺ - فهل من غضبته في الحق ؟!

ولعل قائلًا يقول :

ولماذا لم يسلم أبو طالب ، وقد كان كفل رسول الله - ﷺ - في صباه ، ودافع عنه ولم يسلمه ؟

ويبدو لي أنَّ أبا طالب كان على وَشْك أن يسلم ، لولا حديث أبي جهل له والكفار ، فقد قالوا له :

أترك دين عبد المطلب ؟

وقد كان حديث الناس غالباً ، هذا الحديث قد ورد على نفس حمزة ، فهداه الله ، حيث دعاه .

وحديث الناس أقوى من السحر كما يقول الناس . فلعنة الله على الكافرين .

إسلام أبي ذر الغفاري :

حيث كان الطريق طويلاً ، والرحلة شاقة ، والفيافي ضياع محقق ، إلا لمن يُنقذه القدر ، وقد تفاعل الناس فأطلقوا على المعاني الصعبة أضدادها السهلة ، لعل لهم نصيباً مما وضعوه مخالفاً للواقع ، فأطلقوا على الصحراء المهلكة مفازة ، لعل الضارب في أعماقها يفوز بأن يبلغ غايته ، ويصل إلى مواضع الأمن والحياة ؛ حيث كانت السلامة مجرد احتمال لم ينس الأخ مقتضى الأخوة ، قال لأخيه أبي ذر : لبيك أخي ، وانطلق إلى مكة يعرف له أخبار محمد - ﷺ - .

فلما عاد بميسور لا يشفى الغليل ، أمره أبو ذر أن يعود ليستزيد ، فعاد دون مناقشة ، وعاد بالنور الذي أسلم له الرجال ، فصار كل رجل منهم أمة .

رحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث يوم القيامة وحده .

سمع أبو ذر بأن مكة ظهر فيها رجل يدعو إلى الله - ﷻ - ، فما خبره ؟ وما دعوته ؟ طلب أبو ذر - ﷺ - الخبر وأراد أن يستوثقه ، فكلف أخاه أنيساً بالذهاب إلى مكة ، والعودة بالخبر .

وذهب أنيس ، ثم عاد ليقول :

وجدته يدعو إلى مكارم الأخلاق ، وكلامه ليس بشعر ، فقال أبو ذر :

ما شفيتني فيما أردت .

فتزود أنيس الغفاري أخو أبي ذر ، وحمل شنة (قربة) فيها ماء ، حتى قدم مكة ، فالتمس النبي - ﷺ - وهو لا يعرفه ، وأمسى فاضطجع بالمسجد ، فرآه عليّ

وعرف أنه غريب ، فاستدعاه إلى بيته وأضافه ثلاثة أيام ، لا يسأل أحدهما صاحبه عن شيء . وفي اليوم الثالث قال على لأنيس .

أما آن للرجل أن يعرف منزله ، فأقامه وذهب به إلى نبيه وقال له :

ألا تخبرني خبرك ؟

فقال أنيس : على أن تعطيني موثقاً أن ترشدني ، ففعل ، فأخبره علىّ بأنه نبي وأن ما جاء به حق ، وصحبه علىّ إلى النبي - ﷺ - - فعرض عليه الإسلام ، وتلا عليه القرآن فأسلم ، فأمره بالرجوع إلى قومه خوفاً عليه من بطش المشركين .

لكنه أقسم أن يعلن دينه بين ظهرائهم وقد كان ، فهجم عليه القوم ، وخلصه منهم العباس ، قائلاً لهم :

ألا تعلمون أنه من غفّار ، طريق تجارتكم إلى الشام ؟ وعاد أنيس مسلماً ، فاتجه أبو ذر إلى النبي - ﷺ - - وأسلم ، وعاد إلى قومه ، وقدم على النبي - ﷺ - - بالمدينة قال (ابن عبد البر) في « الاستيعاب » 4 / 218 : « فلما رآه النبي - ﷺ - - وهم في اسمه ، فقال : أنت أبو نملة ، فقال : أنا أبو ذر ، قال عليه الصلاة والسلام : نعم أبو ذر وفيه قال - ﷺ - - : « أبو ذر في أمتي على زهد عيسى بن مريم » .

ذلك رجل سمع بالخير فأصبح يريد أن يستطلع أمره ، وأرسل أخاه ، فلما عاد بجملتين رغب في المزيد ، وطاوعه أخوه ، وعاد مسلماً فكان إسلامه خير جواب .

لقد لاحظنا أنه في المرة الثانية لم يقل شيئاً ، وإنما عاد مسلماً ، فكان إسلامه في نظر أخيه يغني عن كل كلام ، فالرجل يعرف أخاه . وإلاّ ما أرسله في المرة الأولى ليأتيه بخير الرسالة وصاحبها ، فلما عاد يقول :

يدعو إلى مكارم الأخلاق ، وكلامه ليس بشعر ، كان في حاجة إلى مزيد بيان . وقد أتاه البيان مجسداً ، في إسلام أخيه ، إذا ، لقد أسلم أنيس ؛ لما رأى وسمع ، فلماذا يبقى أبو ذر غير مسلم ، هذا الدرس العظيم ما أشد حاجتنا إليه في زماننا ! أن يعرف كل عقل أخيه ، وأن يثق فيه وأن يتبعه على الحق ، وذلك يحتاج إلى بناء متكامل وثقافة واعية .

إن رجلاً اليوم ، يقسم أنه ما يعرف أخاه ، وآخر يقسم أن أخاه بلا عقل ، وثالثاً لا يثق في أخيه ولا يعرف منهجه ولا مشربه .

إسلام أبي العاص بن ربيع :

الناس معادن ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا .
إننا بين يدي رجل سعى إليه الكفار أن يطلق زينب : كبرى بنات محمد ليغيظوه ، وأملاً أن يصرفوه عن رسالته ، فأبى الرجل ، فأثنى عليه النبي - ﷺ - - - خيراً حين علم بموقفه ، وشكر له حسن مصاهرته ، حيث لم يكن الحكم بالتفريق بين المؤمنة وزوجها الكافر قد نزل من السماء .

ظن القوم هذا الذي ظنوا ، ونسوا أنه - ﷺ - - قال لعمه أبي طالب : « والله يا عمي ، لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في شمالي ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله - ﷻ - ، أو أهلك دونه » .

لقد أسلم أبو العاص - ﷺ - - وقد رأى وفاء زوجته وعائنه حبها ، وكرم أبيها خير الخلق - ﷺ - - وقد أبى أن يعلن إسلامه ، إلاّ بعد أن يؤدي للناس في مكة أموالهم ؛ كيلا يظنوا أنه أسلم بالمدينة ليأكلها .

وما كان لمسلم أن يأكل أموال الناس، ولو كانوا كافرين ظلماً وعدواناً، سلم الأموال، وعاد إلى المدينة بسلامة الإيمان.

صهر رسول الله - ﷺ - زوج ابنته الكبرى: زينب، كان قد حضر بدرًا مع كفار قريش، وأسره (عبد الله بن جبير بن النعمان الأنصاري).

فلما بعث أهل مكة في فداء أسراهم، قدم في فدائه أخوه عمرو بن الربيع بمال دفعته إليه زينب بنت رسول الله - ﷺ - ومنه قلادة بها كانت لخديجة أمها قد أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها، فقال رسول الله - ﷺ - : «إن رأيتم أن تطلقوها أسيرها، وتردوا الذي لها، فافعلوا».

فقالوا: نعم، وكان أبو العاص وفيًا للنبي - ﷺ - وكان قد أبى طلاق زينب، حين سعى إليه مشركو قريش في ذلك، فشكر له رسول الله - ﷺ - مصاهرته، وأثنى عليه بذلك خيرًا.

وهاجرت زينب مسلمة - رضى الله عنها - وتركته على شركه، فلم يزل على شركه حتى كان قبل فتح مكة؛ حيث خرج بتجارة إلى الشام، ومعه أموال من قريش، فلما انصرف قافلًا لقيته سرية رسول الله - ﷺ - وأميرها (زيد بن حارثة)، كان في نحو مائة وسبعين راكبًا، فأخذوا ما في تلك العير من الأثقال وأسروا ناسًا منهم، وهرب أبو العاص.

وأقبل في جنح الليل على زينب بنت رسول الله - ﷺ - فاستجار بها فأجارته، فلما خرج رسول الله - ﷺ - إلى صلاة الصبح صرخت زينب - رضى الله عنها - : أيها الناس، إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع، فلما سلم رسول الله - ﷺ - من

الصلاة أقبل على الناس، فقال: هل سمعتم ما سمعت؟ فقالوا: نعم، قال: أما والذي نفسي بيده ما علمت بشيء كان حتى سمعت منه ما سمعتم، إنه يجير على المسلمين أذنهم.

ثم انصرف رسول الله - ﷺ - فدخل على ابنته، فقال: «أى بنية، أكرمى مثواه، ولا يخلصن إليك، فإنك لا تحلين له».

فقال: إنه جاء في طلب ماله.

فخرج رسول الله - ﷺ - وبعث في تلك السرية فاجتمعوا إليه، فقال لهم: «إن هذا الرجل منا بحيث علمتم، وقد أصبتم له مالاً، وهو مما أفاء الله ﷻ عليكم، وأنا أحب أن تحسنوا وتردوا إليه ماله الذي له، وإن أبيتم فأنتم أحق به».

قالوا يا رسول الله، بل نرده إليه، فردوا عليه ماله ما فقد منه شيئاً، فاحتمل إلى مكة، فأوى كل ذى مال من قريش ماله الذي كان أبضع معه، ثم قال: يا معشر قريش، هل لأحد منكم مال لم يأخذه؟ قالوا: جزاك الله خيرًا، فقد وجدناك وفيًا كريماً، قال: فإننى أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. والله ما منعنى من الإسلام إلا تخوف أن تظنوا أنى آكل أموالكم، فلما أذاها الله - ﷻ - إليكم، أسلمت.

ثم خرج حتى قدم على رسول الله - ﷺ - مسلماً، وحسن إسلامه، ورد النبي - ﷺ - ابنته عليه على النكاح الأول ولم يُحدث شيئاً بعد ست سنين، وتوفى أبو العاص ابن الربيع في البطحاء⁽¹⁾ في ذى الحجة سنة اثنتى عشرة.

(1) اسم موضع.

والتأمل في ذلك ، يجد أن أبا العاص بن الربيع قد عرف نبل الإسلام فيما يأتي :

- 1- سماحة الإسلام في إطلاق أسره دون فداء .
- 2- إجارة زوجته المسلمة له ، وإكرامها إياه .
- 3- وموافقة المسلمين ورضاهم عن هذا الجوار .

فالمسلمون يسعى بدمتهم أذناهم ، وهم يحIRON مَنْ أجارته امرأة مسلمة .

4- وسماحة الإسلام في رد ماله عليه ، وقد صار حقاً لهم ، فهو فيء أفاء الله به عليهم .

وقد خيرهم النبي - ﷺ - بين العفو عنه وتسليمه ، وبين الاحتفاظ به ، فما كان منهم إلا أن سلموه ، وذلك لقوله - ﷺ - : « وأنا أحب أن تردوا عليه ماله » .

ولأنه رجل عرف الدين ، وعرفه من خلال الأداء والعفو ، كان عليه أن يؤدي المال لأصحابه ، وكره أن يعلن إسلامه في عز الفرحة بما رأى وسمع ، فيقال فيه وهو مسلم إنه نهب أموالنا ، أو ما دخل في الإسلام إلا بغية أن يأكل أموالنا ، فلما احتمل إلى مكة ، وأداه ، قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وعاد إلى المدينة مسلماً .

إسلام ضماد بن ثعلبة :

كلمات يسمعها كل الناس ، لا تبدل من أذن إلى إذن ، وإنما تختلف القلوب في تناولها مثلها ، تختلف الأواني وقيعان الأرض .

فما هذه الكلمات التي سمعها (ضماد بن ثعلبة) فنزلت على فؤاده مثلما ينزل الندى على وجه الزهر ، والقدر على قلب التقى النقى الورع !

والسؤال الذي يتجدد من جيل إلى جيل وتتناقله العصور : هل تبددت الكلمات أو اختفى منها حرف ؟ والجواب يكاد يكون واحداً ، إن الكلمات لم ولن تبدد

أو تبدل ، وإنما تصدأ القلوب المتلقية ، وتبلى الشرايين كالتى هى كالحبال الواصلة بين المعانى والأواني ، فإن بليت الحبال فقد أذن المؤذن بالانقطاع ، وسقوط المعانى في كل مكان ، وإن تجددت وقويت ضمن الوصال والاتصال .

وما أشد حاجتنا إلى تجديد الحبال ، وتقوية الاتصال بين المعانى السامية والغايات النبيلة ، وبين الأواني الظامئة إلى ربيها ، وسقيهاها .

(ضماد بن ثعلبة الأذرى) ، رجل من أزد شنوءة ، ذكر (ابن عبد البر وابن الأثير) في « أسد الغابة » (3 / 50) أنه كان صديقاً للنبي - ﷺ - في الجاهلية .

وكان رجلاً يتطيب ، ويرقى ، ويطلب العلم .

وقد قدم مكة ، فسمع من سفائها بأن محمداً مجنون ، فقال : لو رأيت هذا الرجل لعل الله أن يشفيه على يدى ، فلقية فقال : يا محمد ، إنى أرقى من هذه الريح ، وإن الله يشفى على يدى من شاء ، فهل لك ؟

فقال النبي - ﷺ - : « إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله .. أما بعد ... » .

فقال ضماد : أعد على كلماتك هؤلاء ، فأعادهن النبي - ﷺ - ثلاثاً ، فقال :

والله لقد سمعت قول الكهنة ، وسمعت قول السحرة ، وسمعت قول الشعراء ، فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات ، والله لقد بلغت ناعوس البحر ، فمدّ يدك أبايحك على الإسلام ، فمد النبي - ﷺ - يده فبايعه فقال النبي - ﷺ - وعلى قومك ؟

فقال: وعلى قومي، فبعث رسول الله - ﷺ - سرية فمروا بقومه، فقال صاحب السرية: هل أصبتم من هؤلاء شيئاً؟ أعزم⁽¹⁾ على رجل أصاب شيئاً من أهل هذه الأرض إلا رده، فقال رجل منهم: أصبت مطهرة، فقال: أرددتها، إن هؤلاء قوم ضماد.

وسبب الإسلام واضح، كلمات سمعها خبير بالكلام، وأيقن أنها ليست بقول كاهن، ولا ساحر، ولا شاعر، كلمات من أساس هذا الدين، حمد الله - ﷻ -، نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

عبده الذي لم يقل للناس إني إله، ورسوله الذي يبلغ رسالته للعالمين: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾⁽²⁾.

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾⁽³⁾.

أحمدوه، فإنه لا يحمد على كل حال سواه، اثنوا على ربكم خيراً، فهو بيده الخير، والشر ليس إليه. ما أصاب من مصيبة إلا بما كسبت أيدي الناس، ويعفو عن كثير.

سبحانه وتعالى من يهده فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. ولا يضلل إلا الخاسر الذي لو علم الله فيه خيراً لأسمعه، ولو أسمعه لتولى وهو معرض.

وقول (ابن عبد البر وابن الأثير): إنه كان صديقاً للنبي - ﷺ - في الجاهلية، يعنى أنه يعرف خلق النبي - ﷺ - ومن ثم اهتم بأمره حين قال السفهاء إنه مجنون.

(1) أعزم: أقسم.

(2) سورة الأعراف: 59.

(3) سورة الحديد: 3.

كأن الرجل - وقد غاب عن صديقه وهو من أزد شنوءة باليمن - عز عليه أن يعود ويسمع عن صديقه بأنه صار مجنوناً، وهو يرقى من ربح الجنون، ولقى من زعم السفهاء بأنه مجنون، وعرض عليه أن يرقه، لعل الله يشفيه على يديه، فما سمع منه ما يدل على جنون، ولا ما يدل على كهانة، ولا ما يدل على شعر، فالشعر وزن وقافية، وخيال في كل درب، وكلمات الكهانة مسجوعة محفوظة، وكلمات السحرة أشبه بالأغاز، وهذا لسان عربي مبين، فيه حمد الله وإقرار بالاستعانة به - ﷻ -، وأن من يهديه الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وشهادة بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، هو المقصود عند الطلب، والسؤال والمرجو في كل حال، فلا يملك غيره للعبد ضرراً ولا نفعاً، وأن محمداً - ﷺ - عبده ورسوله، والعبودية مقدمة على الرسالة، فهو - ﷺ - أول من يمثل لأمر ربه، وقد كان خلقه القرآن، فهو مقروء على لسانه، ومشاهد في سلوكه.

أسلم ضماد بن ثعلبة وبائع والتزم، وما زالت الكلمات التي كانت سبباً في إسلامه بين أيدينا، فهل نفتح لها المجال لتستقر في قلوبنا، ويصلح الله تعالى بها أحوالنا، وندع الجهل والضلالة، والدجل والعمى، لعل الله يهدينا سبيل سلامه ورحمته في الدنيا والآخرة!

إسلام صهيب بن سنان الرومي .. وعمار بن ياسر:

رجلان التقيا على أكرم باب من ورائه محمد - ﷺ - كل منهما يريد لقياء، مثلما جمعتهم ظروف الاغتراب النفسي، ومحن المفارقة بين الناس، وفق الجاه والنسب والحسب والمال، جمعها: نداء الهوى، ورحم الله شوقياً حيث قال:

فإن يك الجنس يا ابن الطلح فرقنا إن المصائب يجمعن المصابينا
واليوم يحق لصهيب وعمار أن يقولوا فإن يك الظلم يا ابن الإنس فرقنا
إن الخلائق أصل فى تلاقينا

وعزيز على من جاء أرضاً وهو فقير، فإذا به يفنى ويكثر¹ أن يترك ماله وهو عزيز، لكى ينطلق إلى وطن الهجرة صفر اليدين، إلّا على من سكن اليقين قلبه، بأن الله الذى رزقه بين الضلالة هو مخلفه عما ترك فيها، ورازقه بين آيات الهدى والرشاد وقد تكاثر المال، ونما، وازدهر، وطهر، فربح البيع صهيب، وما زال الإيمان يسرى من رأس عمار إلى أخمص قدميه بشهادة رسول الله - ﷺ - ليرد على من زعم أن عماراً كفر بما نطق إرضاءً للمشركين كى يطلقوا سراحه، ويخففوا عنه تعذيبهم، رحلة الإيمان وموكب النور، ودروس ينضم بعضها إلى بعض.

رجلان من كبار الصحابة رضوان الله عليهم. سبق صهيب عماراً فى الوصول إلى دار الأرقم، ورسول الله - ﷺ - فيها، قال عمار:

لقيت صهيبيًا بالباب، فقلت له:

- ما تريد؟

فقال لى:

- ما تريد أنت؟

فقلت: أردت الدخول إلى محمد - ﷺ - فأسمع كلامه.

قال: فأنا أريد ذلك.

(1) يكثر: يكثر ماله وتتضخم ثرواته.

فدخلنا عليه، فعرض علينا الإسلام، فأسلمنا، ثم مكثنا حتى أمسينا، ثم خرجنا مستخفين، فكان إسلام عمار وصهيب بعد بضعة وثلاثين رجلاً.

إن الرجلين ممن أقاموا بمكة بلد الله الحرام، وموطن رسول الله - ﷺ - وقد سمعا بأمره مثلما سمع الناس، ومضيا فى خفاء إلى هذا الرجل الذى يعرفانه.

قال (أبو عمر) فى «الاستيعاب» (2/ 284) وروى عن صهيب أنه قال: صحبت رسول الله - ﷺ - قبل أن يوحى إليه، ومحمد - ﷺ - معروف عند الناس قبل البعثة بالخلق العظيم، والنسب الشريف، والأمانة، والصدق، فلما دخلا عليه عرض عليهما الإسلام، فأسلما، فأى إسلام عرضه النبى - ﷺ - على هذين الرجلين!

أكان إسلام أهل سنة وشيعة ومعتزلة وغيرهم، أم كان إسلام الوجه لله الذى خلق فسوى، وقدر فهدى، وأخرج المرعى، وخلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى، شهادة أن لا إله إلا الله الواحد الذى رفع السماوات بغير عمد، ومد الأرض وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها، وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين، الذى ييسط رحمته، ورحمته سبقت غضبه، كان - ﷺ - يمشى فى شوارع مكة ويقول: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»، ووراءه عمه أبو لهب يقول: لا تصدقوه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۚ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۚ﴾¹.

(1) سورة المسد: 1-5.

إنه الإسلام الذى تمثل فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾⁽¹⁾.

إنه إسلام الخلاص من الشرك والوثنية، وظلمات الكفر والضلال، إسلام لا مذهبية فيه ولا فلسفة ولا غموض، ولا آراء، ولا كلام ولا جدال، إنه إسلام الفطرة السوية، والنفس النقية، إنه دين الحق والعدل والمساواة.

وشهادة أن محمدًا - ﷺ - رسول الله - الذى بلغ رسالته وأدى أمانته، وهو الصادق الذى لم يكذب قط، وهو الأمين الذى ما خان عهدًا، وما قطع صلة، وهو بناء على ذلك لا يدعى ما ليس له، لم يقل ذات ساعة إنى أعلم الغيب، ولم يقل ذات ساعة إنى أملك نفعًا أو ضرًّا لنفسى أو لأحد، إنما هو مبلغ، بلغ فيما بلغ عن ربه الذى بالحق أرسله: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾⁽²⁾.

هذا هو الإسلام الذى عرفه صهيب وعمار وغيرهما من كبار الصحابة وفضلائهم.

ولقد كان صهيب يحب أن يحدث الناس عن الغزوات، ويقول: أمّا عن حديث رسول الله - ﷺ - فلا.

وقد مرّ أبو سفيان على سلمان وصهيب وبلال، فقالوا: ما أخذت السيوف من عنق عدو الله مأخذها، فقال أبو بكر: أتقولون هذا الشيخ قريش وسيدها؟ ثم أتى

(1) سورة النحل: 90.

(2) سورة الشورى: 48.

النبي - ﷺ - فأخبره بالذى قالوا، فقال: «يا أبا بكر، لعلك أغضبتهم، والذى نفسى بيده لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك» فرجع رضى الله عنه إليهم، فقال يا إخوانى، لعلى أغضبتكم، فقالوا: يا أبا بكر، يغفر الله لك.

فانظر كيف كان فضل هؤلاء، وكيف كانت منزلتهم، وما الدافع الذى حدا بهم إلى الإسلام؟!.

وما ورد من سيرة صهيب - ﷺ - يؤكد لنا تلك الحقيقة: حقيقة الإسلام فى جوهره وأساس مبادئه، فقد دخل عمر على صهيب فى بستان له بالعالية، فرحب به، ودعا غلامًا لخدمته وضيافته فقال عمر: ما فىك شىء أعيبه يا صهيب إلا ثلاث خصال، لولاهن ما قدمت عليك أحدًا، هل أنت مخبرى عنهن؟ فقال صهيب:

- ما أنت بسائل عن شىء إلا صدقتك عنه.

قال: أراك تتسبب عربياً، ولسانك أعجمى، وتتكنى بأبى يحيى اسم نبى، وتبذر مالك.

قال صهيب:

أما تبذرى مالى، فما أنفقه إلا فى حقه، وأما اكتنانى بأبى يحيى فإن رسول الله - ﷺ - كنانى بأبى يحيى أفأتركها لك؟ وأما انتسابى إلى العرب فإن الروم سبتنى صغيراً، فأخذت لسانهم، وأنا رجل من (النمر بن قاسط)، لو انفلقْتُ عَنْ رَوْثَةٍ⁽¹⁾ لانتسبت إليها. وذكر له أنه سمع من رسول الله - ﷺ - : «خياركم مَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَرَدَّ السَّلَامَ»، هذا هو الدين، دين يدعو إلى إطعام الطعام، وإلى

(1) يريد أنه لو خرج من أحقر شىء ما تبرأ من نسبه حتى ولو كان رَوْثَةً.

رد السلام على مَنْ بادرنا بالسلام ، ودين الانتساب إلى الآباء ولو كانوا ما كانوا :
﴿ اَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾¹ .

ودين من يؤثر كنية رسول الله - ﷺ - على ما عداها ، حباً فيه والتزاماً بطاعته .

وما أشد حاجة الأمة إلى تلك المعاني العالية التي تبني كيانها !

إسلام عبد الله بن سهيل بن عمرو :

حدث صغير ، مثله يلهو ويلعب ، ولا يعبأ بالأحداث وإن كانت رامية حوله ،
ما أكثر الشباب اليوم الذين يلعبون ويمرحون ، ويصولون ويجولون في كل ميدان
إلا ميدان الجد والرجولية .

صفت قلوب الشباب في زمان النبي - ﷺ - فهم قد عرفوا محمداً - ﷺ -
بالصدق والحق ، وسمعوا آراء الكبار في خلقه العظيم : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ
عَظِيمٍ ﴾² . ورأوا تحولهم العجيب ، وسلوكهم الغريب حين بلغتهم دعوته ،
وجاءهم رشده وهدايته ، فأى سر في هذا ؟ إن الذي حولهم من النقيض إلى النقيض :
أن محمداً - ﷺ - جاءهم بما يخالف هواهم والناس جميعاً ، إلا مَنْ رحم الله -
يميلون إلى الهوى ، ويجبون من يوافق هواهم ، والنفس كالطفل في اتباع الهوى ،
وهوى الطفولة حب الرضاع وإيثار اللهو ، فإذا دعا داعي الجد بكوا وصرخوا ، وهم
لا يعلمون أن للهوى منتهى ، وأن الأمور ينبغي أن تصير نحو الهدى ، كلمات قالها
النبي - ﷺ - في سهيل بن عمرو ، ما كان لمثله أن يجهل الإسلام فصدقت على

(1) سورة الأحزاب : 5 .

(2) سورة القلم : 4 .

ولده ، الذي أسلم قبله ومن يشابهه أباه فما ظلم - وازداد عبد الله إيماناً وهو يرى النبي
- ﷺ - يؤمن أباه رغم كفره ، هذا هو الإسلام الذي لا يشتهي إراقة الدماء ،
ويكرم الوالد لكرامة ولده ، وقد أسلم الأب كما أسلم الابن .

القرشي العامري المكنى : أبا سهيل ، ابن سهيل بن عمرو ، أسن من أخيه
أبي جندل الذي لحق بأبي بصير .

أسلم ، وكنم إسلامه ، ومن ثم خرج يوم بدر مع المشركين ، كان في صحبة أبيه
الذي لم يعلم بإسلامه ، وكأن بداراً كانت فرصة له ، ليهرب من جيش الشرك إلى جند
الله .

وسبب إسلامه : نبل في شخصه ، وسلامة فكر في عقله ، فقد ورد أن النبي -
ﷺ - قال في أبيه ذلك - له عقل وشرف - وما كان سهيل بن عمرو ليجهل الإسلام .

كان عبد الله بن سهيل بلا شك ، يرى في سلوك أبيه من مجارة قريش على الباطل
خلقاً سيئاً يأباه ، وهو الذي شابهه أباه في عقله وشرفه ، ثم خالفه في سلوكه وفعله .

ولقد رأى تعذيب الناس لمن أسلم ، ومن المؤرخين من رأى أن أباه علم
بإسلامه وأوثقه عنده ، وفتنه في دينه ، ولعل هذه فتنة ظاهرة كأنه قال مثلما قال عمار
وقلبه مطمئن بالإيمان .

أسلم عبد الله بن سهيل ؛ لأنه يعرف محمداً - ﷺ - ويعرف نسبه الشريف
ومجده ، وخلقه ، ودعوته الناس إلى الحق ، وهو الذي سأل الأمان لأبيه يوم الفتح ،
حين تذكر سهيل بن عمرو ماضيه الأسوأ مع محمد - ﷺ - .

قال ابن عبد البر في الاستيعاب (3 / 57) : وكان من فضلاء الصحابة ، وهو
أحد الشهداء في صلح الحديبية ، وهو الذي أخذ الأمان لأبيه يوم الفتح .

ولقد بلغ أباه قول النبي - ﷺ - حين سأله : يا رسول الله ، أتؤمنه ؟ قال : نعم ، وأوصى به أصحابه ، فقال أبوه : كان والله بَرًّا صَغِيرًا وَكَبِيرًا ، ولئن عرف أبوه سهيل بر رسول الله - ﷺ - وهو شاب صغير فقد عرف عبد الله ولده بر رسول الله - ﷺ - وهو رجل كبير .

إن البر يهdy إلى الجنة ، ودائمًا يهdy إلى الخير . ولم تعرف البشرية رجلاً أبر من رسول الله - ﷺ - .

ولقد استشهد عبد الله بن سهيل يوم اليمامة ، وهو ابن ثمان وثلاثين سنة ، ولقد كانت سنة اثنتى عشرة من الهجرة ، ومعنى ذلك أنه كان يوم بدر ابن ثمان وعشرين سنة ، لأن بدرًا كانت فى السنة الثانية للهجرة ، فهو شاب نشأ فى عبادة الله ، رضى الله عنه وأظله بظله يوم لا ظل إلا ظله .

إسلام نوفل بن الحارث بن عبد المطلب :

فى كل زمان أمارات تدل على الحق ، ودلائل تدل على الخيرات ، وفى كل زمان صور لفساد النفوس والعقول ، وانتحال وادعاء ، لقد عرف الناس فى الجاهلية الكهانة والتنجيم ، وذهبوا إلى العرافين والعرافات .

وقد أخبر النبى - ﷺ - نوفل بن الحارث بشىء - كما أخبر العباس ابن عبد المطلب وغيرهما ، هذا الشىء لم يطلع عليه أحد ، لكننا وجدنا إثر ذلك إيمانًا وإسلامًا ، ولم نجد اتهامًا له - ﷺ - بالاستعانة بالجن والعفاريت ، أو بالدجالين والمحتالين . ألا يدل ذلك على أن القوم كانوا على خبرة بالصادق والكاذب ، وأنه قد توافر لهم العلم بالفروق بين مَنْ يأتيه خبر السماء ، ومن هو فى ضلال مبين !

إن الذى ادعوه فى النبى - ﷺ - عين الكذب الذى أملاه عليهم أولياؤهم وكبرائهم من الذين عاندوا وكابروا ، وهم يعلمون أن الحق مع رسول الله - ﷺ - : وما زلنا نرى الحق ، ونبصر آياته ، ومع ذلك .. يتسلسل كثير منا إلى الخرافات وصانعيها ، وإلى الأباطيل ومحدثيها ، والحق واضح وضوح الشمس فى ضحاها ، ولن يكون لنا نصر أو فوز إلا باتباع الحق .

القرشى الهاشمى ، ابن عم رسول الله - ﷺ - كان شريكًا لعمه العباس بن عبد المطلب فى الجاهلية ، وكانا متحابين متفاوضين ، شهد مع النبى - ﷺ - فتح مكة ، وشهد حينئذ ، وهو من الذين ثبتوا فيها مع رسول الله - ﷺ - . وسبب إسلامه : أنه لما أسر يوم بدر قال له النبى - ﷺ - : افد نفسك .

فقال : مالى شىء أفدتى به !

قال : افد نفسك برماحك التى بجدة .

قال : والله ما علم أحد أن لى بجدة رماحًا غيرى بعد الله ، أشهد أنك رسول الله ، وكانت ألف رمح .

وقد أعان النبى - ﷺ - يوم حنين بثلاثة آلاف رمح ، فقال له - ﷺ - : كأنى أنظر إلى رماحك تقصف أصلاب المشركين .

وكانت له - ﷺ - دار بالمدينة توفى بها ، فى خلافة عمر سنة خمس عشرة ، وصلى عليه عمر بعد أن مشى معه إلى البقيع ، ووقف على قبره حتى دفن .

علم نوفل أنه الحق ، وعلم كما علم غيره أن إخبار النبى - ﷺ - عن رماحه إنما هو بوحي من الله - ﷻ - ، لا بإملاء شيطان .

إن مثل هذا السبب يبين لنا بوضوح : أن الناس كانوا على علم بأن الكهنة والسحرة لا يعلمون الغيب ، ولو كانوا يؤمنون بأن هؤلاء وهؤلاء يعلمون الغيب لقال مثل نوفل : هذا ما أوحى به الشياطين إليك .

لكن ذلك لم يكن ، لقد قال نوفل : لا يعلم أحد بعد الله وأنا أن لي رماحاً بجدة ، وما دمت أنا لم أخبرك فإلهي تعالى هو الذي أخبرك ، فأنت رسوله ، وأنا أشهد أنك رسول الله .

ونلاحظ كذلك في ضوء السيرة العطرة ، أن الذين قالوا : ساحر ، إنما قالوها لما سمعوا القرآن الكريم ، شبهوا أثره بأثر السحر ، لكن لم يقولوا في الإخبار بالغيب إنه سحر !

قالوا لمن عاد بوجه غير الوجه الذي ذهب به إلى رسول الله - ﷺ - : سحرك محمد !

وما (عاد عتبة بن ربيعة) وغيره بوجه جديد بعد سماعه شيئاً غير القرآن الكريم ، لقد قرأ النبي - ﷺ - القرآن على هؤلاء ، لم يقرأ غيره ، فكان له من الأثر ما كان ، ومن ثم قالوا لمن استمع إليه ، وعاد بوجه غير الوجه الذي ذهب به إليه : سحرك .

لكن الإخبار عن شيء مخبوء لم يعلمه إلا الذي يخرج الخبء - ﷻ - ومن أخبره فذلك شيء مرده إلى الله العليم الخبير ، أوحى به إلى عبده ورسوله - ﷺ - فهو رسول الله الذي اصطفاه وأخبره ، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب كان أكبر سنًا من إخوته ، ومن سائر من أسلم من بنى هاشم ، فهو يعلم حال ابن عمه .

وأنه ما كان ذات يوم ساحرًا ولا شاعرًا ولا كاهنًا ، وقد كان يعامل الناس كما كان عمه (العباس بن عبد المطلب) يعامل الناس وكانا شريكين في المال كما ذكرت ،

وقد ورد أن العباس كان له مال كثير هنا وهناك ، وقيل : إنه كان مسلمًا أخفى إسلامه من أجل تلك المصالح الاقتصادية ، وأنه خرج مع المشركين في بدر مكرهاً ، ولذلك... قال النبي - ﷺ - : « من لقي منكم العباس ، فلا يقتله » .

والذي يعلم الحق ، وينأى عنه ظاهرًا ، لا بد له أن يتفق معه ظاهرًا وباطنًا ذات يوم .

وقد شهد نوفل بن الحارث بن عبد المطلب مع النبي - ﷺ - - حينئذ وهو من الذين ثبتوا ، وما أشد حاجتنا إلى معرفة ذلك والتحلي به ، فالثبات على الحق دليل الإيمان به ، وعند الشدة تعرف معادن الناس لأنها تصهرهم ، ولم يشارك فقط ببذنه ونفسه ، وإنما شارك بهاله ، فقد قدم ثلاثة آلاف رمح ، كما ذكر (ابن عبد البر) في «الاستيعاب» (4 / 75) .

ولو أن كل مسلم في زماننا أعان المسلمين بما في طاقته ، لما كان في الناس من جائع ولا عريان ، ولما احتاجت الدول الإسلامية إلى قروض أجنبية تتضاعف فوائدها إلى حد يعجزها عن سدادها ، ولو علمت عند أغنيائها يدًا تمتد بالعطاء ، وعند الذين يحتاجون إلى ثمرة تلك القروض من عفة وإباء ، لتغيرت أحوالنا .

إسلام النضير بن الحارث العبدى :

ظل الرجل ملازمًا شكره الله - ﷻ - - أن من عليه بالإسلام ، وقد مات آباؤه وإخوانه على الكفر ، لقد أحس بأنه حظى بالخير الذي لم يخطوا به وهم في بيت واحد ، وتلك من ثمرات التفكير .

كم عادى أخوه النضر رسول الله - ﷺ - ومات كافرًا، أمّا هو فقد نظر فأبصر، ومشى فوصل، وحاول فاتصل وما انقطع.

الدنيا من حوله زخارف وزينة وألوان، لم يكفر فيمن نال نصيبًا أوفر من نصيبه، ولا حظًا أوفى من حظه، وبات الليل يفكر في ذلك ويتعكر، وإنما فكر في أكبر نعمة، وأجل منحة، وأعظم توفيق: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾¹.

وما زلنا في حاجة إلى الهدى، ومعرفة أن نعمة الإيمان كبرى النعم، وإلى العمل بمقتضاها، حيث بذل جميع الجهد في طاعة من هدانا إلى اتباع الحق والهدى والصراط المستقيم.

أخوه النضر بن الحارث الذى كان شديد العداوة للنبي - ﷺ - وقتله على ابن أبى طالب يوم بدر، فمات كافرًا.

كأنى به وهو يتأمل فضل الله عليه؛ إذ هداه إلى الإسلام، قال ابن عبد البر فى الاستيعاب (4/ 87): «وكان النضر بن الحارث يكثر الشكر لله - ﷻ - على ما من به عليه من الإسلام، ولم يمت على ما مات عليه أخوه وآبؤه».

مات أخوه كافرًا، ومات آبؤه كذلك كافرين، ومن الله عليه بعمر عاشه حتى اعتنق الإسلام قبل موته، بل إنه مات شهيدًا فى اليرموك فى رجب سنة خمس عشرة، وكان يعد من حكماء قريش.

ذلكم الحكيم الذى أفاد من الحكمة، حيث اهتدى إلى الحق، وقد علمنا من السيرة النبوية العطرة أن أخاه النضر كان قد حاكى كلام رسول الله - ﷺ - وكان

يجلس فى مكانه بعد أن ينصرف - ﷺ - ويحكى للناس الأساطير وأخبار الملوك مدعيًا أن معه مثل الذى يقول محمد - ﷺ - يريد أن يصرف الناس عنه ظنًا أن المسألة قضية كلامية، فلنأت بكلام فى مواجهة كلام، ولنأت بقصص فى مواجهة قصص، ولم يعلم أن الله - ﷻ - يقص على رسوله - ﷺ - أحسن القصص بالقرآن والوحي لا بالتأليف والهوى والحبكة والإثارة. وفى النهاية:

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾¹.

لقد علم النضر أن ما يقوله النبى - ﷺ - وحي من السماء، وأن ما قاله أخوه النضر هوس من مجون أهل الأرض، والحكمة حد فاصل بين الجد الذى يجب اتباعه، وبين الباطل الذى يجب اجتنابه، فلما وفق إلى الإسلام بإعمال عقله، وفكره، حمد الله تعالى وشكره على ما من به عليه من اعتناق هذا الهدى.

ولقد أمر له النبى - ﷺ - يوم حنين بمائة بعير، فأتاه رجل من بنى الدئل يبشره بهذا العطاء الكثير، وقال له: إخدمنى منها قال: ما أريد أخذها، لأنى أحسب أن رسول الله - ﷺ - لم يعطنى ذلك إلا تألفًا على الإسلام، وما أريد أن أرتشى على الإسلام، ثم قال: والله ما طلبتها ولا سألتها، وهى عطية من رسول الله - ﷺ - فقبضها وأعطى الدئل منها عشرة، ثم خرج إلى رسول الله - ﷺ - فجلس معه فى مجلسه وسأله عن فرض الصلاة وتوقيتها، قال: فوالله لقد كان أحب إلى من نفسى، وقلت له: يا رسول الله، أى الأعمال أحب إلى الله. قال: الجهاد والنفقة فى سبيل الله.

هاجر النضير إلى المدينة، ولم يزل بها حتى خرج إلى الشام غازيًا، وحضر بها إلى اليرموك وقتل بها شهيدًا.

كان رسول الله - ﷺ - أحب إليه من نفسه، وذلك شرط الإسلام والإيمان، ولم يكن ذلك كلامًا بل كان هجرة، وجهادًا، وشهادة، وكان قبل أن يعلم خير ما في هذا الدين قد أعطى الدليل عشرة من الإبل لما سأله، وصادف علمه فعله، فإن أحب الأعمال إلى الله - ﷻ - الجهاد والنفقة في سبيل الله.

فمن كان رسول الله - ﷺ - أحب إليه من نفسه، فليجاهد في الله حق جهاده، ولينفق في سبيل الله، وقد أنفق النضير، وجاهد حتى مات شهيدًا، وذلكم الصدق، وفضل الله الذي يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

إسلام سهيل بن عمرو:

عاش سهيل بن عمرو حتى فتح الله - ﷻ - مكة لرسوله - ﷺ - وأسلم كما أسلم غيره من الكبار، وقد لاقى كما لاقى غيره من رسول الإسلام - ﷺ - إحسانًا على ما كان منهم من إساءة، سجل (سهيل بن عمرو) للتاريخ شهادته، حين قال في محمد - ﷺ - «لقد كان برًا صغيرًا وكبيرًا».

سهل الأمر بسهيل، وقد كان، وامتد العمر بسهيل حتى حظى بالإيمان.

درسان لا بد لنا من وعيهما، يسفران دائمًا عن كل خير: درس التآني والصبر، ودرس البر والإحسان.

أما درس التآني فقد تعلمناه من موقفه - ﷺ - من رغبة عمر في انتزاع أسنان سهيل الأسير - قبل إسلامه - حتى لا يقوم خطيبًا في مكة، يشتم الإسلام ورسوله -

ﷺ - وقال لعمر: «لعله يقوم مقامه لا تذهبه»، حفظ النبي الكريم أسنان خطيب يهجوّه ليوم يكون فيه مسلمًا يمتدحه وقد كان.

وأما درس البر والإحسان، فقد حظى سهيل بأمان رسول الله - ﷺ - وبره وإحسانه، فكان ذلك سببًا في إسلامه.

فتح الله - تعالى - مكة لرسوله - ﷺ - وكان سهيل بن عمرو لا يشك لحظة أنه مقتول؛ لما كان له من أثر سيئ في ماضيه، قال فيها ذكره (الواقدي) ص 847: «جعلت أتذكر أثرى عند محمد وأصحابه، فليس أحد أسوأ أثرًا مني، وإنى لقيت رسول الله - ﷺ - يوم الحديبية بما لم يلقه أحد، وكنت الذي كاتبته، مع حضوري بدرًا وأحدًا، وكلما تحركت قريش كنت فيها».

دخل سهيل بن عمرو داره، وأغلق عليه بابه، وأرسل من يأتيه بابه (عبد الله) أو يخبره بما يطلبه منه وهو: أن يأخذ له أمانًا وجوارًا من محمد.

فذهب عبد الله بن سهيل إلى رسول الله - ﷺ - فقال لرسول الله: تؤمنه؟

قال: «نعم، هو آمن بأمان الله، فليظهر»، ثم قال - ﷺ - لمن حوله: «مَنْ لقي منكم سهيل بن عمرو فلا يشد النظر إليه، فليخرج، فلعمري إن سهيلًا له عقل وشرف»، وما مثل سهيل جهل الإسلام، ولقد رأى ما كان يوضع فيه أنه لم يكن له بنافع، فخرج عبد الله إلى أبيه فأخبره بمقالة النبي - ﷺ - فقال سهيل: كان والله برًا صغيرًا وكبيرًا، فكان سهيل يقبل ويدبر وخرج إلى حنين مع النبي - ﷺ - وهو على شركه حتى أسلم بالجعرانة.

ذلك الرجل الذي قال للنبي - ﷺ - : اكتب: باسمك اللهم، يوم الحديبية.

وقال له : لو نعلم أنك نبي لا تبعناك ، اكتب اسمك واسم أبيك .

وحارب المسلمين في بدر وأحد ، وكان كما قال أسوأ الناس أثرًا عند رسول الله ﷺ - ، ومن ثم .. رأى أنه مقتول لسوء ماضيه ، فلما طلب الجوار والأمان أعطاه النبي ﷺ - الجوار والأمان .

أى سبب أقوى من ذلك في إسلام الرجل الذى أساء وطلب الإحسان من النبي الإنسان ، فأعطاه أمان الله - وعجل - .

إنه خطيب قريش ، الذى أسرى يوم بدر مشركًا ، وطلب عمر أن تنزع ثنيتاه حتى لا يقوم خطيبًا عليه أبدًا ، فقال - ﷺ - لعمر : دعه ، فعسى أن يقوم مقامًا تحمده ، وقد كان ، فبعد أن توفي رسول الله - ﷺ - وماج أهل مكة ، وارتد من ارتد من العرب ، قام سهيل بن عمرو خطيبًا ، فقال : والله إنى أعلم أن هذا الدين سيمتد امتداد الشمس في طلوعها إلى غروبها ، فلا يغرنكم هذا من أنفسكم ، يعنى أبا سفيان ، فإنه ليعلم من هذا الأمر ما أعلم ، ولكنه قد ختم على صدره حسد¹ بنى هاشم ، وأتى في خطبته بمثل ما جاء به أبو بكر بالمدينة .

وقد جاء (الحارث بن هشام وسهيل بن عمرو) إلى عمر بن الخطاب ، فجلسا وهو بينهما ، فجعل المهاجرون الأولون يأتون عمر - ﷺ - فيقول : ههنا يا سهيل ، ههنا يا حارث ، فينحيهما عنه ، فجعل الأنصار يأتون فينحيهما عنه كذلك ، حتى صار آخر الناس ، فلما خرجا من عند عمر قال الحارث بن هشام لسهيل بن عمرو :

- ألم تر ما صنع بنا ؟!

فقال له سهيل :

(1) أى أن حسده بنى هاشم ختم على صدره .

إنه الرجل لا لوم عليه ، ينبغى أن نرجع باللوم على أنفسنا ، دعى القوم فأسرعوا ، ودعينا فأبطأنا ، فلما قام المهاجرون والأنصار من عند عمر أتيا ، فقالا له :

يا أمير المؤمنين ، قد رأينا ما فعلت بنا اليوم ، وعلمنا أنه أتينا من قبل أنفسنا ، فعل من شئء نستدرك به ما فاتنا من الفضل ؟

فقال : لا أعلم إلا هذا الوجه ، وأشار لهما إلى ثغر الروم ، فخرجا إلى الشام ، فماتا بها .

إسلام عبد الله بن الزبعرى السهمي :

معنى كريم ، ما زالت الصدور السليمة تتسع له ، ويتمدد فيها فيزيدها اتساعًا وبرًا وحنانًا ، وهو قبول عذر المعتذر نداء يتجدد كلما قرأ المسلم : ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾¹ ، وقوله تعالى : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾² .

وكلما قلب القارئ أوراق سيرة النبي - ﷺ - . ووقف عند قبوله الأعذار ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ هُوَ أَذُنٌ قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾³ .

كان يقبل - ﷺ - عذر المنافقين ، مع أنهم لا عذر لهم ، يضع بذلك لأمته طريقًا خالية من بذور الضغائن والشك والريب ، وكل طريق خلت من تلكم البذور الخبيثة هى طريق يخرج نباتها طيبًا بإذن الله ، والذى خبت لا يخرج إلا نكدًا .

(1) سورة آل عمران : 134 .

(2) سورة النور : 22 .

(3) سورة التوبة : 61 .

في ضوء إسلام عبد الله بن الزبير ، نتعلم أن من الإسلام أن تقبل عذر من أساء إليك ، وكم من الناس في زماننا من لا يقبل عذر معذر ، قائلاً : « أبداً لن يكون صلح بيننا ولا رضا » .

أى خطب هذا الذى يجر الويلات علينا ، حين مات المغيرة بن شعبة - رضي الله عنه - قيل للناس : اسألوا الله العفو عن أميركم ؛ فقد كان يحب العفو ، والجزاء من جنس العمل .

كان (عبد الله بن الزبير بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم القرشى) الشاعر من أشد الناس على النبي - ﷺ - وعلى أصحابه بنفسه ولسانه .

وكان يهاجى (حسان بن ثابت وكعب بن مالك) ، وهرب يوم الفتح إلى نجران ، وأرسل حسان بن ثابت إليه بيتاً من الشعر . قال ابن عبد البر 3/ 37 فإزاده عليه ، وقد وجدت الأبيات ثلاثة عند الواقدي ص 847 ، 848 وهى :

لا تَعْدَمَنْ رجلاً أهلك بُغْضُهُ نجران في عيش أخذ لئيم
بليت قناتك في الحروب فآلَقِيَتْ حمالة خوفاً ذات وُصُوم
غضب الإله على الزبيرى وابنه وعذاب سوء في الحياة مقيم

قال أبو عمر : فلما بلغ ذلك ابن الزبيرى قدم على رسول الله - ﷺ - فأسلم وحسن إسلامه ، واعتذر إلى رسول الله - ﷺ - فقبل عذره ، ثم شهد ما بعد الفتح من المشاهد .

وله قصة مع (هبيرة بن أبى وهب) فيها من الدرس العظيم ؛ فقد هرب هبيرة ابن أبى وهب مع عبد الله بن الزبيرى إلى نجران .

فلما وصلت أبيات حسان إلى ابن الزبيرى ، تهباً للخروج ، فقال له هبيرة :
- أين تريد يا ابن العم ؟

قال : أردت والله محمداً .

قال هبيرة : أتريد أن تتبعه ؟

قال : إى والله .

قال هبيرة : ياليت أنى راقت غيرك ، والله ما ظننت أنك تتبع محمداً أبداً .

فقال ابن الزبيرى :

هو ذاك ، فعلى أى شىء نقيم مع بنى الحارث بن كعب ، وأترك ابن عمى وخير الناس وأبرهم ، ومع قومى ودارى ، فانحدر ابن الزبيرى حتى جاء رسول الله - ﷺ - بينهما مات هبيرة هناك مشرّكاً .

هذا هو الفرق بين النور والظلام ، بين من رأى الحق حقاً وأثر اتباعه ، وبين ما رآه حقاً وأخذته العزة بالإثم .

قال فى نفسه ولزميله : لماذا الإقامة على الهوان ، ولدينا ابن عم صادق بار ، ولنا دار ومال ، وأثر غيره الهوان ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

قال الواقدي ص 848 :

« فانحدر ابن الزبيرى حتى جاء رسول الله - ﷺ - وهو جالس مع أصحابه ، فلما نظر رسول الله - ﷺ - إليه قال : هذا ابن الزبيرى ومعه وجه فيه نور الإسلام ، فلما وقف على رسول الله - ﷺ - قال :

السلام عليكم أى رسول الله ، شهدت أن لا إله إلا الله ، وأنت عبده ورسوله ، والحمد لله الذى هدانى للإسلام ، لقد عاديتك وأجلبت عليك ، وركبت الفرس

والبعير ، ومشيت على قدمي في عداوتك ، ثم هربت منك إلى نجران ، وأنا أريد ألا أقرب الإسلام أبدًا ، ثم أراد بي الله - ﷻ - منه بخير ، فألقاه في قلبي وحببه إليّ ، وذكرت ما كنت فيه من الضلالة واتباع ما لا ينفع ذا عقل . من حجر يعبد ويدبح له ، لا يدري من عبده ومن لا يعبد ، قال رسول الله - ﷺ - : « الحمد لله الذي هدانا لهذا ، إن الإسلام يجب ما قبله » .

إسلام معبد الخزاعي :

برغم أنه كان مشركًا ، حفظ العهد لرسول الله - ﷺ - فرق لما حدث من قرح لأصحاب النبي - ﷺ - يوم أحد ، وقام بما أملاه عليه ضمير الوفاء في نفسه بعمل بطولى ، حيث أوهم أبا سفيان والمشركين بأن محمدًا - ﷺ - قد أعدّ لهم من الجيوش ما لا قبل لهم به ، فصدهم بذلك عن التفكير في العودة إلى المدينة ، والإجهاز على المسلمين المجروحين ليتخلصوا نهائيًا من فكرة الإسلام .

وكانا ونحن نقرأ في كتاب القدر بنصر حكمة الله - ﷻ - في تأخير إسلامه إلى ذلك الوقت ، فلو كان معبد مسلمًا وكان قد حدث أبا سفيان بما حدثه به لما صدّقه أبو سفيان والقوم ، سبحان الحكيم الخبير ، أى شىء رآه معبد في شخصية محمد - ﷺ - دعاه إلى رقة القلب ، وهو على غير دينه ، كما دعاه إلى إعمال قريحته ، وإشعال زند شاعريته حتى يرتجل من الشعر ما يقذف به من رعب في قلوب المشركين ؟ إن ما رآه معبد يجب أن يراه منا غير المسلمين اليوم في بلادنا العربية وفي غيرها ، من نزاهة الفكر وحسن المعاشرة والصحبة والوفاء ، وعدم التعرض بالأذى لأى مخلوق لزم حاله ، وكفّ أذاه ، وسلك سبل عيشه .

كانت خزاعة عيبة رسول الله - ﷺ - مسلمهم ومشرکهم ، لا يخفون عنه شيئًا ، ولا يدخرون له نصيحة ، هكذا قال ابن عبد البر « الاستيعاب 3 / 481 » .

أردت أن أثبت ذلك في صدر هذا المطلب ؛ لأرى في نوره أن الحياة في زمان النبي - ﷺ - كان فيها مسلمون يعيشون مع كافرين ، وكان هؤلاء وهؤلاء على الجملة عيبة رسول الله - ﷺ - أى مستودع سره ، ومعاهدية والمخلصين له .

وكان معبد الخزاعي يوم أحد مشركًا ، وكانت أحد يوم السبت ، وقد أصاب المسلمين ما أصابهم من القرح ، وخرج النبي - ﷺ - يوم الأحد إلى حمراء الأسد وهى من المدينة على ثمانية أميال ، ليلغ المشرکين أن بهم قوة على أتباعهم . ولقى معبد - وهو مشرك - رسول الله - ﷺ - فقال له :

يا محمد ، أما والله لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك ، ولوددنا أن الله أعفأك منهم .

ثم خرج معبد الخزاعي من عند رسول الله - ﷺ - حتى لحق بأبى سفيان ومن معه بالروحاء ، وقد عزموا على الرجعة إلى القتال لاستئصال من بقى من أصحاب النبي - ﷺ - فلما رأى أبو سفيان معبدًا قال : ما وراءك يا معبد ؟ قال معبد :

لقد خرج محمد في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرقًا ، قد اجتمع إليه من كان تخلف عنه في يومكم ، وندموا على ما صنعوا ، فلهم من الحنق عليكم شىء لم أر مثله قط .

قالوا : ويلك ، ما تقول ؟!

قال أبو سفيان : والله لقد أجمعنا الكرة عليهم ، لنستأصل بقيتهم .

قال معبد : فأنا أنهاك عن ذلك ، فوالله لقد حملني ما رأيته على أن قلت فيه أبياتاً من الشعر .

قال أبو سفيان : وماذا قلت ؟

فقال معبد ما ذكره الواقدي (ص 339) :

كادت تُهْدُ من الأصوات راحلتى إذ سالت الأرض بالجرء الأبابل
تعدو بأسد كرام لا تنابله عند اللقاء ولا ميل معازيل
فقلت ويل ابن حرب من لقائهمو إذا تغطمط البطحاء بالجيل

فانصرف المشركون بعد ذلك ، ومرّ بأبى سفيان نفر من عبد قيس يريدون المدينة فقال : هل تخبرون محمداً وأصحابه ما أرسلكم به ، على أن أوقر لكم أبا عركم زبيبا¹ غداً بعكاظ إن أنتم جئتموني ؟ فقالوا : نعم ، قال : حيثما لقيتم محمداً وأصحابه فأخبروهم أنا قد أجمعنا الرجعة إليهم ، وأنا وراءكم ، فجاء الركب وقالوا ، وقد قال المسلمون حين سمعوا ذلك ما سجلته آية آل عمران : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾² .

قال الواقدي ص 340 : « وكان معبد قد أرسل رجلاً من خزاعة إلى رسول

الله - ﷺ - يعلمه أن قد انصرف أبو سفيان وأصحابه خائفين وجلين ، ثم انصرف أبو سفيان وأصحابه إلى المدينة » .

ثم أسلم معبد الخزاعي .

(1) أى أحملها لكم بالزبيب .

(2) سورة آل عمران : 173 .

أسلم الرجل ، وقد رأيته أنه لو أسلم يوم أحدًا وقبلها ما سمعه أبو سفيان وما اطمأن إليه ، فكأن القدر الحكيم قد أجل إسلامه حتى يقوم بتلك المهمة ، والله - ﷻ - يدبر الأمر ، ترى هل أسلم معبد لخوفه من سيف الإسلام ، أم لكرهه أن يدفع شيئاً للمسلمين من ماله !

أم أنه أسلم لما رأى وسمع وعاش وعان من خلق النبى - ﷺ - ومن وفائه بالعهد ، ومن مسالته من سالمه .

إن قصة إسلام معبد لترد بهدوء على أولئك الذين ينعقون بما لا يسمعون ، إلاّ دعاءً ونداءً ، يقولون : لقد انتشر الإسلام بالسيف ؟

لقد رأى معبد الخزاعي المسلمين وقد أصابهم القرع ، فما انتهر الفرصة وحارب مع المحاربين ، واعتدى مع المعتدين ، وما جمع قومه وحلفاءه ، وانضم إلى أبى سفيان وجيشه وحارب رسول الله - ﷺ - وأصحابه .

لقد رق لما أصاب رسول الله - ﷺ - في أصحابه وهو على دين قومه ، وأعرب عما فى نفسه من ألم لهذا المصاب ، وقام بمهمة الحرب النفسية ، وارتجل شعراً بين يدي أبى سفيان يوهمه أنه قاله حين رأى ما لم يره قط من تجمع الجموع حول رسول الله - ﷺ - ومن التحرق والتأسد الذى عليه أصحابه الذين لم يحضروا معه بالأمس ، وقد أشعلوا ندمهم ناراً . وفاضت بهم الأرض ، وزلزلت أصواتهم راحلته حتى كادت تهلك ، وكل ذلك يدل على رغبته فى ألا يصاب رسول الله - ﷺ - وأصحابه بأذى .

ذلك حب وقر فى القلب ، هيهات أن يكون لو أنه رأى فيهم ما يشين ، هيهات أن يكون لو أنه شاهد منهم غدراً ، أو عان عليهم عيباً ، أو وقف منهم على نقیصة ، كل ذلك قد تطور حتى كان إسلامه - ﷺ - .

إسلام عباد بن بشر الأشهلي :

على يد (مصعب بن عمير) - رضي الله عنه - أسلم عباد بن بشر ، ولم يكن مصعب شهيد أحد إلا قارئاً للقرآن ، لم تكن عند مصعب مجلدات فقه ، ولا كتب فلسفة ، ولا فضائيات تتناحر في برامجها الآراء والمناقشات ، إنه قارئ قد تحلى بخلق القرآن . وكان على لسانه للرجل يأتيه بالمدينة نور ساقه الله - وَعَلَى - عليه :

« اجلس ، واستمع ، فإن وجدت خيراً فاتبعه ، وإن وجدت غير ذلك فافعل ما بدا لك » ! هذا هو فكر الإسلام في الدعوة إلى الله ، وأى خير بعد كتاب الله تعالى الناطق بآيات الحق ، الساكب في القلوب معانى الصدق ، الحادى بالركب إلى بلوغ القصد السوى : أمر بمعروف ، ونهى عن منكر ، ذلك الذى يتفق والفطرة . وكان الرجل يرد على مصعب قائلاً : هذا هو النصف أى هذا هو العدل والحق ، ويجلس ، ويستمع ، فإذا به يسلم ، لم ترق قطرة من دم ، ولم تنزف مسحة من هم ، ولم تحم في الأفق سحابة من غم ، بل كان النغم الذى شدا به المخلصون الصادقون ، فوافقته الفطرة التى وافتها ، وظل القرآن الكريم في قلب (عباد بن بشر) حتى ود أن تقطع نفسه ولا يقطع سورة يتلوها .

(عباد بن بشر وقش بن زغبة بن زعوراء بن عبد الأشهل الأنصارى الأوسى) .

قال ابن الأثير في أسد الغابة (3/ 138) : « أسلم بالمدينة على يد (مصعب ابن عمير) ، قبل إسلام (سعد بن معاذ وأسيد بن حضير) وشهد بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله - ﷺ - وقد روى البخارى عن رسول الله - ﷺ - : « اللهم ارحم عبادًا » .

وسبب إسلامه بلا شك هو سبب إسلام (سعد بن معاذ وأسيد بن حضير) : أنه سمع من مصعب القرآن الكريم وفقهه في الدين ، ذلك الدين الذى قام على الطهارة والشهادة والعدل والإحسان .

لقد توغل الكتاب العزيز في كيان عباد بن بشر فكان في غزوة ذات الرقاع ، وزامل (عمار بن ياسر) وسأله ما الذى يختاره له ، أول الليل أم آخره ؟ وكانا قد عينهما رسول الله - ﷺ - - لحماية ثغر ، فقال عمار لعباد :

- اكفى أول الليل .

ونام عمار ، وقام عباد يصلى ، فأتى رجل من القوم فرآه ، فرماه بسهم فلم يقطع صلاته ، فرماه بآخر ، فلما تألم استيقظ عمار ، فهرب الرجل حين رآه وعلم أن الخطر قادم ، فسأل عمار بن ياسر عباد بن بشر :

- لماذا لم توقظنى ؟

فقال عباد كما ذكر الواقدي ص 397 من مغازيه :

كنت في سورة أقرأها وهى سورة الكهف ، فكرهت أن أقطعها حتى أفرغ منها ، ولولا أنى خشيت أن أضيع ثغراً أمرنى به رسول الله - ﷺ - - ما انصرفت ولو أتى على نفسى .

ما هم عباد بن بشر أن يقتله الرجل ما دام يقرأ القرآن ، لكن الذى منعه من مواصلة التلاوة : أن النبى - ﷺ - - أمره بأن يحفظ ثغراً ، فلو تركه يقتله لضاع ، وهذا هو عين الفقه قبل أن يؤلف فقيه ورقة في الفقه ، إن تلاوة القرآن عبادة ، وحفظ الثغر وحمايته عبادة ، وقد اجتمعا فلا بأس حيث كانت الدنيا أمناً ، فلما اخترق الأئمن من

أراد ورمى بسهم تحمله وقال في نفسه : لعله ينتهي عند هذا ، فرماه بسهم آخر ، ثم رماه بسهم ثالث فلم يستطع أن ينزعه منه ، فركع وسجد وأيقظ صاحبه ، وقال له : اجلس فقد أوتيت ، فقام عمار .

إن القرآن الكريم الذي دخل بسببه عباد بن بشر في دين الله كان أحب إليه من نفسه ، ويستطيع قارئ هذا الكلام أن يدرك سر التلاوة وحلاوتها ، وتأثيرها في النفس المؤمنة ، فهي أحب من الحياة ، وذلكم الإيمان ، وتلكم حلاوته ، فلما كان مرابطاً ساهراً على الثغر تنبه لعظم المسئولية ، وانتقل إلى حلاوة الطاعة فأيقظ صاحبه ، ونجى الله تعالى رسوله - ﷺ - وأصحابه من كيد الكاذبين بما منّ عليهم من الصادقين .

إسلام الراعى :

لا يعيب الرجل أن يجهل الناس اسمه ، وإنما يعيبه أن يجهلوا كريم خلقه ، وعظيم فضله ، ورجاحة عقله والحق - تعالى - يقول : ﴿ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾¹ . فما اسم هذا الرجل ؟ لا فائدة في معرفة اسمه ، وإنما الفائدة في أنه اتبع المرسلين ونصح لقومه ، ودخل جنة ربه . وفي حياتنا من يشور ويغضب إذا أخطأ أحد في ذكر اسمه أو لقبه : من هذا الراعى ؟

إنه رمز رجولة ، عمل بين الشعاب والهضاب وراء غنم ، وكان من قدره أن يمر به النبي - ﷺ - وصاحبه في طريق الهجرة المباركة ، ورأى آية من آيات النبوة فأسلم من فوره .

ومن الناس من قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾¹ . درس يقول للدعاة والناس : ﴿ إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلْغُ ﴾² . وعلى الله - ﷻ - الهدى :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾³ .

فمن الناس من يكاد يقتل نفسه لكى يرى ثمرات دعوته ، وربما كان ذلك محموداً على تأويله ، لكن الأخطر أن يتكلف الداعية بحيث يؤلف من عنده ما يظن أنه السبيل لجذب الناس وهدايتهم ، وهنا يكون الخطر !

في طريق الهجرة الغراء ، مرّ النبي - ﷺ - وصاحبه أبو بكر - ﷺ - - بعبد يرمى غنماً ، فاستسقيه من اللبن ، فقال : ما عندي شاه تحلب ، غير أن ههنا عناقاً حملت أول الشاء ، وقد أجذبت ، وما بقى لها من لبن ، فقال : « ادع بها عندي » ، فدعا بها ، فاعتقلها النبي - ﷺ - - ومسح ضرعها ، ودعا حتى أنزلت ، وجاء أبو بكر فحلب فسقى أبا بكر ، وحلب فسقى الراعى ، ثم حلب فشرب ، فقال الراعى : بالله من أنت ؟ فوالله ما رأيت مثلك قط ، قال : وتراك تكتم علىّ حتى أخبرك ؟!

قال : نعم !

قال : فإنني محمد رسول الله .

قال : أنت الذى تزعم قريش أنك صابئ !

قال : إنهم ليقولون ذلك .

(1) سورة الأنعام : 25 .

(2) سورة الشورى : 48 .

(3) سورة القصص : 56 .

قال : فأشهد أنك نبي ، وأشهد أن ما جئت به حق ، وأنه لا يفعل ما فعلته إلا نبي ، وإني متبعك .

قال : إنك لا تستطيع ذلك يومك ، فإذا بلغك أنني قد ظهرت فائتنا .

لقد رأى الراعي ما لم يره أبداً ، فأسلم معتقداً أنه لا يفعل هذا إلا نبي .

وأسلم بالإضافة إلى ذلك لما رأى من الصدق .

ألا تراه قد سأل رسول الله - ﷺ - عن قول قريش فيه ، فأجابه النبي - ﷺ -

بقوله : إنهم ليقولون ذلك .

﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ هُم مَّا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٠﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦١﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۚ وَتُحَوِّثُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٦٢﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ۚ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ۚ ﴿٦٣﴾

لقد سأل الراعي رسول الله - ﷺ - أن يأذن له في اتباعه ورسول الله - ﷺ - رحمة الله للعالمين .

لم يقل له : تعال معنا وهات الغنم فهي أموال كافرين ، ولم يقل له : اهجرها تذهب في داهية ، وإنما تركه يؤدي عمله ، ويحفظ مال أعدائه ، ويتتبع أخباره - ﷺ - وهو على يقين من أن الله تعالى ناصره ، فإذا سمع بظهوره فليأت ، تركه مسلماً يعمل في مال الظالمين ؛ لأنه مؤتمن عليها ، فأى حضارة بعد الإسلام ، وأية رحمة في قلب بشر كالرحمة في قلب محمد - ﷺ - ؟!!

إسلام مالك بن عوف :

حذر النبي - ﷺ - المرأة التي وعدت ابنتها بتمرة من الكذب إن لم تعطها ، لكنها الآفة الموروثة من العادات البالية ، وعود كاذبة ، لجر الرجل ، والريق ، وتحقيق المراد ، وما أكثر الوعود الكاذبة في حياتنا ! كم من رجل يعد امرأة : إن تزوجته أن يسكنها القصور ، ويدنى من أنفها الزهور ، ويناديها بدر البدور ، فلما تزوجته ما ألفت في كنفه إلا الشرور .

وكم من امرأة وعدت رجلاً : إن تزوجها أن تسهر على عنايته ، وأن تبذل النفس والنفس من أجل إسعاده ، فلما كان نامت وغطت ، وأهملت وبخلت ، وسألت حقها ولم تؤد واجبها .

رسالة أرسلها النبي - ﷺ - إلى مالك بن عوف ، خلاصتها : أنه إذا جاءه مسلماً أكرمه ورد عليه أهله وماله ، فاستجاب مالك ، وجاء مسلماً .

ما كان ليخالطه ريب في صدق وعد النبي - ﷺ - وهذه هي الفكرة ، وهذا هو الإسلام الذي عرفه الناس « صدق الوعد » ، واليوم يقول الناس : « إن الإنجليز إذا وعدوا صدقوا » ، فمتى يقول الناس : « إن المسلمين إذا وعدوا صدقوا » ؟!

لا بد أن يرانا الناس صادقين في وعودنا ، خصوصاً الذين لا يفرقون بين الإسلام وبين أتباعه ، إنهم يحكمون على الإسلام بسلوك أتباعه ، وقد قال الله ربنا : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿١﴾

كان (مالك بن عوف بن سعد بن ربيعة بن يربوع بن وائلة بن دهمان) من بنى بكر بن هوازن رئيس جيش المشركين يوم حنين، ولحق في انهزامه بالطائف.

قال الطبري في تاريخه 2/ 208: «قال رسول الله - ﷺ - لوفد هوازن وسألهم عن مالك بن عوف ما فعل؟ فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف، فقال: «أخبروا مالكا أنه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله، وأعطيته مائة من الإبل»، فأتى مالك بذلك، فخرج من الطائف إليه.

وقد كان مالك خاف ثقيفاً على نفسه أن يعلموا أن رسول الله - ﷺ - قال له ما قال فيحبسوه، فأمر براحلته فهيئت له، وأمر بفرس له، فأتى به الطائف فخرج ليلاً فجلس على فرسه فركضه حتى أتى راحلته، حيث أمر بها أن تحبس له، فركبها، فلحق برسول الله فأدركه بالجرعانة أو بمكة، فرد عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل، وأسلم فحسن إسلامه.

واستعمله رسول الله - ﷺ - على قومه وعلى من أسلم من تلك القبائل حول الطائف: ثماله وسلمة وفهم، فكان يقاتل بهم ثقيفاً، لا يخرج لهم سرح¹ إلا أغار عليه حتى ضيق عليهم.

وقال ابن عبد البر في الاستيعاب 3/ 413: «وحسن إسلامه»، وقال حين أسلم:

ما إن رأيت ولا سمعت بها أرى في الناس كلهم كمثل محمد

هذا رجل كمال أبو عمر معدود في المؤلفة قلوبهم، ومعنى ذلك: أن رسول الله - ﷺ - تألفه كما تألف غيره بالمال، وأعطاه مائة من الإبل كما أعطى غيره.

(2) أي: سرية.

لكني أقول:

لقد بلغ مالكا قول النبي - ﷺ - فلماذا صدقه وأتاه؟

وهل كل موعود بخير يصدق وعد من وعد!

إن مالكا وغيره يعلمون قبل إسلامهم تاريخ الخلق العظيم الذي كان عليه محمد - ﷺ - وأنه الصادق، لقد كان الرجل رئيس جيش يحارب النبي - ﷺ - والمسلمين، وقد أعز الله - ﷻ - جنده، ونصر عبده، وفر مالك بن عوف منهزماً إلى الطائف.

وجاء نبأ بأن محمداً يدعو إلى الإسلام، وأنه إن أتاه مسلماً رد عليه ماله وأهله وزاده مائة من الإبل، مما أفاء الله به عليه.

ألا يفكر ألف مرة بأن هذا استدراج، وأنها حيلة ربها له محمد ليقتله إذا شخص بين يديه!

هذا من معطيات العقل في المعارك والحروب، خصوصاً إذا كان من يدعى بمثلها رئيس جيش كان يجب أن يقضى على محمد وجنده، لكن الحق قد ظهر، والباطل قد دحض وزهق، وتاريخ محمد - ﷺ - تاريخ مجد ونبل وخلق، وما منع الكافرين أن يؤمنوا إلا الغرور، واللدادة، وكرهية أن يكونوا تابعين، وبغض أن يجالسوا الفقراء والمساكين، وحسداً من عند أنفسهم: ﴿أَهْدَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً¹﴾. لكنهم في ضمائرهم يعلمون أنه الرجل، الذي إذا قال صدق، وقد قالوا له - ﷺ - يوم وقف على الصفا يدعوهم: ما جربنا عليك كذباً قط، كما قال بعضهم لبعض: ما جربنا عليه كذباً.

(1) سورة الفرقان: 41.

وليلة بدر قال الأخنس لأبى جهل :

- هل تزعمون أن محمدًا كذاب ؟

فقال أبو جهل :

- كيف وما جربنا عليه كذبًا أبدًا .

فسأله الأخنس :

- فلماذا جئنا نقاتله ؟

فقال : إذا كانت السقاية والرفادة من بنى هاشم وكانت فيهم النبوة ، فماذا بقى

لنا ؟

عندئذ تركه الأخنس ، وقال :

والله لا أحاربه .

وسحب جنوده وانصرف

إن إسلام مالك بن عوف النصرى دليل على ذلك كله ، كان بلا شك يعلم في

قرارة نفسه ومستقر قلبه أنه إذا قال صدق ، وقد كان ، وأسلم ، وحصل على ما

وعده به رسول الله - ﷺ - وحسن إسلامه وتركت قصته لنا درس الوفاء في

العهد والصدق الذى بسببه أسلم ، وأسلم غيره .

: ومتى كان المسلم أهلاً للصدق ، أخاله كان داعية خير إلى هذا الدين .

والصدق مبدأ يعم القول والعمل ، فإن كنت صادقاً في معاملتك ، فقد كفيت

نفسك حرارة الخطابة ورفع الصوت ، وعرف الناس خبرك ، فأتوا عليك خيراً ،

أى أثنوا على دينك الذى أمرك بالصدق فكنت من الصادقين : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾⁽¹⁾ .

إسلام أبى محذورة :

ما زلت كلما علا صوت الأذان ، أستحضر صورة أبى محذورة ، وقد أعجب صوته حين حاكى بلالاً - ﷺ - رسول الله - ﷺ - فناداه ، وأدناه ، وكأنه دعا الله حين وضع يده الشريفة الطاهرة عليه أن يهديه وهو غلام إلى الإسلام ؛ ليكون صوتاً ندياً جميلاً يستميل القلوب ويسحب بسحره الخطا إلى إقامة الصلاة ، فاستجاب الله له مثلما استجاب له ، حين دعاه أن ينصر الإسلام بإسلام أحد العمرين : عمر ابن الخطاب - ﷺ - أو عمرو بن هشام على ما كان من أذاه ، فاستجاب الله ، وهدى عمر إلى الإسلام فكان الفاروق !

إن الإسلام الذى يرجو الأقوياء أولى الأيدى الفتية ، والنفوس الأبية ، والسواعد القوية ، كذلك يرجو الأصوات الندية التى تحب الناس فى إقامة شعائره ، والاجتماع على أركانه .

إن كثيراً من الذين يرفعون الأذان اليوم ، لا يحسن لهم أن يرفعوه ؛ لأنهم غير موهوبين ، وجمال الصوت قيثاره ، لا تقتنى كالبضاعة ، وإنما هى موهبة وصناعة ، من أجل ذلك كان على الموهوبين أن يرفعوا نداء الله الجميل لكى يتحقق الجمال !

المؤذن ، والمؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة ، جميل الصوت ، كان صوته بالأذان نغماً ، قال فيه أحد شعراء قريش :

(1) سورة يونس : 2 .

أما ورب الكعبة المستوره وما تلا محمد من سورة
والنغمات من أبي مخذوره لأفعلن فعلة مذكوره

لم يزل مقيمًا بمكة حتى توفي سنة 59 وقيل سنة 79 من الهجرة .

وقصة إسلامه : أنه لما سمع بلالاً يؤذن وكان غلامًا حدثًا ، أخذ يحاكيه في فنية من قريش فدعاه النبي - ﷺ - وقال فيما ذكره السهيلي : فرغمت أنه قاتلي لا محالة ، فوضع يده على كتفي فشعرت ببردها في كبدي ، فعرفت أنه نبي فأسلمت .

وقد كلفه النبي - ﷺ - بالأذان فأذن بين يديه - ﷺ - فأقره على الأذان بمكة ، فلم يزل يؤذن بها هو وولده ، ثم أذن بعدهم (عبد الله بن محيريز) ابن عمه وولده ، فلما انقطع ولد ابن محيريز صار الأذان إلى ولد (ربيعة بن سعد بن جمح) .

وكان كما قال يحاكي الأذان سخرية ، وقال : ما كان شيء أكره إليّ من رسول الله - ﷺ - فلما ناداني ومن معي وقال : « أيكم سمعت صوته قد ارتفع » ؟ فأشار القوم كلهم إليّ وصدقوا ، فأرسلهم وحسني ، ثم قال : « قم فأذن بالصلاة » ، وألقى على التأذين بنفسه ، وقال : قل : « الله أكبر الله أكبر » فذكر الأذان ، ثم دعاني حين قضيت التأذين فأعطاني صرة فيها شيء من فضة ، ثم وضع يده على ناحيتي ، ثم بين ثديي ، ثم على كبدي حتى بلغت يد رسول الله - ﷺ - سرتي ، ثم قال رسول الله - ﷺ - : « بارك الله فيك وبارك الله عليك » ذكر ذلك ابن عبد البر في الاستيعاب 4/ 315 وكان أن قال : « وذهب كل شيء كان في نفسي لرسول الله - ﷺ - من كراهة ، وعاد ذلك كله محبة لرسول الله - ﷺ - . وقدمت على عتاب ابن أسير عامل رسول الله - ﷺ - بمكة فأذنت معه بالصلاة عن أمر رسول الله - ﷺ - .

إن خلقًا هو العطاء قد تسلمه أبو مخذورة من رسول الله - ﷺ - وكان بأذانه ساخرًا ، وأدناه منه ، فشعر بأن يده - ﷺ - ليست كأى يد ، إنها يد المعصوم أظهر يد ، لمسته فسرى في كبده بردها وطهرها ونقاؤها ، فأدرك باللمس النقي ما لم يدرك بالخطب والمواظ ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

إن مثل أبي مخذورة في الكون كأرض تحتاج إلى لمسة يد لتنبت زرعها وخيرها ، ومن الدروس المستفادة من قصة إسلامه : البحث عن مواهب البشر ، واستمالتها حتى تكون في وطن المسلمين ، ومن نبي الإسلام ، وعطاء النبي - ﷺ - إياه رمز يتجدد ، وهو من باب الحقيقة لا الرّمز ، لكنه عنوان ينبغي ألا يغيب ؛ فقد أسلم كثير من الناس من المؤلفة قلوبهم وما في همهم إلا المال والحصول عليه ، فلما شربوا الإسلام صار أحب إليهم من الدنيا وما فيها .

وقد يحبك إنسان للقيمة يطعمها في بيتك ، ثم يصير حبه لك خالصًا محضًا ، فلا تكدر هذا الصفاء بما عرفت منه قبل .

إسلام أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب .. وعبد الله بن أبي أمية :

في عزة النصر ، ولذة الغلبة ، وسريان ماء الحق في كل طريق ، هل تنسى الإساءة ، وما كان من كيد ومكر وعذاب ؟ هذا السؤال الذي تكشف « نعم » ما وراءه من سر وأثر .

نعم ، فالصدر صدر محمد - ﷺ - الذي شرحه الله - ﷻ - : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۖ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۖ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۖ ﴾¹ .

(1) سورة الشرح : 1 - 4 .

إنه هدى الإسلام، ومنهجه وخلقه، لا يغرس في أتباعه تتبع السيئات، والاحتفاظ بسيئ الذكريات فقد جاء نصر الله والفتح، وخضعت القلوب، وجاء الناس أفواجًا نحو النور، يدخلون في دين الله.

فمن رأى ذلك سبح بحمد ربه واستغفره: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝١﴾. لا داعى إلى تعذيب الناس بذكر ما كان منهم زمان كفرهم، وقد أتوا مسلمين، مَنْ قال سَاهِمٍ عَلَى وَجْهِهِ إِنْ لَمْ يَقَابِلْنِي مُحَمَّدٌ، لَمْ يتركه مُحَمَّدٌ - ﷺ - يهلك، ومن شفعت فيه أم المؤمنين أم سلمة وغيرها.. قبل مُحَمَّدٌ - ﷺ - شفاعتها، لأنها شفاعة حسنة في عفو وصفح، والعفو لا يأتى إلا بخير.

كان (أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعبد الله بن أبى أمية) ممن صدقوا عن الإسلام، ونزل قول الله تعالى: ﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُفْقِكَ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا نَقْرُهُ ۚ﴾². خاصة في (عبد الله ابن أبى أمية) فقد تبع النبى - ﷺ - يوم اجتمع له صناديد الكفر بالبيت الحرام، وبجوار الكعبة المشرفة، وعرضوا عليه المال والرياسة والطب إن كان به داء، فلما وجدوه - ﷺ - مصرًا على أنه ذو رسالة سماوية ما بعث ليجمع أموالهم، ولا ليتولى رئاستهم، كما يرأس الملك الرعية يسوم مَنْ شاء فيها خسفًا، ويدنى إليه من يشاء محبة وودًا ومنة، وإنما هو بشير ونذير.

(1) سورة النصر: 1-3.

(2) سورة الإسراء: 93.

فقالوا له : ما دام الأمر كذلك ، فأنت تعلم أن الماء فى أرضنا قليل ، وأن الجبال تضيق علينا ، فاسأل ربك أن يخرج لنا نهرًا من الماء ، وأن يجعل لنا الصفا ذهبًا ، فكان ما أقرأه ربه : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّىَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۝١﴾.

وقام - ﷺ - منصرفًا عنهم ، فتبعه (عبد الله بن أبى أمية) ، وقال للنبي - ﷺ - : قد قال لك قومك ما قالوا ، أما أنا فلن أومن بك حتى ترقى فى السماء ، فتأتى بكتاب من عند الله ، وأربعة من الملائكة يشهدون بأنك رسول الله .

وقد هرب (أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب) ، وقدم على قيصر ملك الروم ، فقال له :

- ممن أنت ؟

فانتسب له أبو سفيان ، فقال قيصر :

- أنت ابن عم محمد إن كنت صادقًا ، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ؟

قال :

نعم ، أنا ابن عمه .

ثم قال فى نفسه : لا أرانى عند ملك الروم وقد هربت من الإسلام لا أعرف إلا بمحمد ، فدخلنى الإسلام ، وعرفت أن ما كنت فيه من الشرك باطل ، ولكننا كنا مع قوم أهل عقول باسقة ، وأرى فاضل الناس يعيش فى عقولهم ورأيهم ، فسلكوا فجًا فسلكناه ، ولما جعل أهل الشرف والسِّن يقتحمون عن محمد ، وينصرون أهلتهم ويغضبون لأبائهم فاتبعناهم .

(1) سورة الإسراء : 93 .

إسلام واثلة بن الأسقع الليثي .. وأخته :

قبل أن يسفر الصبح كان واثلة في صفوف المصلين ، صلاة الفجر التي يتمنى حضورها مَنْ ولد منا مسلماً وقد مضى من عمره معظمه ، ما زال يتمنى وهو الذي ربما قضى معظم ليله يشاهد المسلسلات والأفلام والمباريات الكروية ، إن واثلة - ﷺ - كان يصلي الفجر وهو حديث عهد بالإسلام . رجال ألفوا الهمة وألفتهم من أول يوم ، كما أسس النبي - ﷺ - مسجده على التقوى من أول يوم ، ما أجمل البدايات النبيلة التي تؤدي إلى النتائج العظيمة وكلمات جمعت كل المجلدات في حوار هادئ سوف نراه هنا بين النبي - ﷺ - وبينه انتهت بالبيعة على ما يطيق .

ولو أن كل مسلم اليوم جدد البيعة في نفسه ، وبذل كل طاقته ، لما كان هذا حال المسلمين اليوم ، الذين يبذلون نسبة ضئيلة من طاقاتهم ، وينفقون النذر اليسير من أموالهم .

وحين انصرف الرجل إلى عمه وأخبره بإسلامه ، قال في الإسلام : إنه دين يدعو إلى السلام ، وسمعت أخته فجاءت لتقول : السلام عليكم ، فلما سألها عن تلك التحية قالت : سمعتك تتحدث عن الإسلام فأسلمت ، ما هذا الجمال الذي ينساب كما ينساب الماء القراح في جداول صافية بين البطاح ! لم تستمع إلى محاضرات وشرائط ، ولم تنفق من الوقت سنوات لكي تضع طرحة فوق رأسها مثلما تفعل الفتيات اليوم ، وإنما استمعت إلى كلمة فبدلت دنيا بدين وحياة بحياة ، وقامت فجهزت أخاها واثلة ليغزو مع رسول الله - ﷺ - .

لقد عرف (عبد الله بن أبي أمية) الحق إذ دخل الناس في دين الله أفواجاً ، وكذلك عرف (أبو سفيان بن الحارث) ذلك ، وقد بين لنا أن سبب صده عن دين الحق تقليده العظماء من قومه ، وأنه حين خلا إلى نفسه ، وتحلل من وطأة الاتباع قرع سمعه قول ملك الروم له :

إن كنت صادقاً في انتسابك ، بأنك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، فأنت ابن عم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

فقال : نعم ، أنا ابن عمه .

ثم نظر فقال : أأهرب منه وأعرف به ؟ فلماذا أهرب منه ؟

كأنه قال : أين عقلي ؟

دخله الإسلام ، فأنكشفت له الحقيقة ، والحقيقة : أنه ما انصرف عن الإسلام إلا لاتباعه السادة ، وقد نجاه الله تعالى من اتباعهم ، حيث هداه إلى الإسلام وقبل النبي - ﷺ - شفاعته (أم سلمة) فيه وفي (عبد الله بن أبي أمية) .

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ ﴾ رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَافُ لَعْنًا كَبِيرًا ۝¹

ومما ورد في خبرهما قول الواقدي ص 811 من « المغازي » : « قال أبو سفيان ابن الحارث ومعه ابنه : والله ليقبلني أو لأخذت بيد ابني هذا ، فلاذهبن في الأرض حتى أهلك عطشاً وجوعاً » فبلغ رسول الله - ﷺ - ذلك فرق له .

وسأله عبد الله بن أبي أمية بحق القرابة والصهر فرق له - ﷺ - .

كان واثلة بن الأسقع الليثي ينزل ناحية المدينة ، عرف دين الله الحق ، ودخل فيه كما يدخل النسيم في خمائل الشجر ، ورأى نفسه بين المصلين ، يصلى ، ويصلى الفجر ، الصلاة التي هي أصعب صلاة عند المنافقين ، والتي هي أمنية كثير من المسلمين ، تسمع الرجل يتمنى - وما نيل المطالب بالتمنى - أن يكتبه الله مع رواد المساجد في الفجر ، يقول : أتمنى أن يعينني الله حتى أصلي الفجر (حاضر) !

وكان النبي - ﷺ - إذا صلى الصبح انصرف ، فيتصفح وجوه أصحابه ، ينظر إليهم ، فلما دنا من واثلة أنكره - ﷺ - كما قال الواقدي في المغازي ص 1028 فقال:

- مَنْ أَنْتَ ؟

فأخبره ؛ فقال له :

- ما جاء بك ؟

قال : أبايع .

فقال - ﷺ - فيما أطق⁽¹⁾

قال واثلة : نعم ، فبايعه .

وكان - ﷺ - يتجهز إلى تبوك ، فخرج الرجل إلى أهله ، فلقي أباه ، فلما رأى

حالته قال : فعلتها ؟ قال واثلة : نعم .

فقال أبوه : والله لا أكلمك أبداً ، فأتى عمه وهو مولّ ظهره للشمس ، فسلم

عليه بتحية الإسلام ، فقال له عمه : قد فعلتها .

(1) بإثبات ألف « ما » لأنها موصولة بمعنى الذي وليست استفهامية .

قال واثلة : نعم .

قال الواقدي : فلامه لائمة أيسر من لائمة أبيه ، وقال : لم يكن ينبغي لك أن تسبقنا بأمر .

كأن هدف الغضب هو سبق ، وكأن المجتمع يعز على أفراده أن يسبق الصغير الكبير ، إنه مجتمع يحافظ على النظام إذاً ، لكنه هدى الله يهدى به من يشاء من عباده .

أخذ واثلة يحدث عمه عن الإسلام ، فسمعتة أخته ، فجاءت ، وقالت :

- السلام عليكم ورحمة الله .

فقال واثلة :

- من أين لك هذا يا أخية ؟

قالت : سمعت كلامك وكلام عمك فأعجبت بالإسلام ، فأسلمت .

فقال واثلة :

- لقد أراد الله خيراً يا أخية ، جهزى أخاك جَهَّازَ غَازٍ ؛ فإن رسول الله - ﷺ -

على جناح سفر ، فجهزته ، فاتجه إلى المدينة وقد انطلق جيش رسول الله - ﷺ -

وبقيت بعض الإبل أمام البيوت ، فأخذ واثلة ينادى بسوق بنى قينقاع .

- مَنْ يَحْمِلُنِي وَلَهُ سَهْمِي ؟

ولم يكن معه راحلة ، فدعاه كعب بن عُجْرَة ، وقال له : أنا أحملك عقبة بالليل

وعقبة بالنهار ، ويدك أسوة يدي ، ولي سهمك .

قال واثلة : نعم .

فلما قضيت الغزوة ، قال واثلة :

جزاه الله خيرًا ، كان يحملني عقبتى وأكل معه ، حتى إذا بعث رسول الله - ﷺ - خالد بن الوليد (إلى أكيدر الكندي) بدومة الجندل خرج كعب بن عجرة في جيش خالد بن الوليد وخرجت معه ، فأصبنا فيها كثيرًا ، فقسمه خالد بيننا ، فأصابني ست قلائص ، فأقبلت أسوقها حتى جئت بها خيمة كعب بن عجرة فقلت : اخرج رحمك الله ، فانظر إلى قلائصك فاقبضها .

فخرج إلى وهو يتسم ، ويقول : بارك الله لك فيها ، ما حملتك وأنا أريد أن آخذ منك شيئًا .

وأعود إلى إسلام واثلة بن الأسقع الليثي فأقول : ذلك رجل دعاه إلى الإسلام سلامه وأمنه ومنهجه العام من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، صلى وباع .

وهيهات أن يفوتنا إسلام أخته ، التي كان سبب دخولها في دين الله كلمات ، لا محاضرات ولا كتب ولا مذكرات ، ولا شرائط ، ولا دعاة ووعاظ ، ونفح ليل نهار ، وطبل وزمر ، وترهيب وتخويف وتحذير . أسلمت أخته كما أسلم لدعوة ليس فيها رأى أبى حنيفة ، ولا مخالفة أبى يوسف ، ولا موطأ مالك ، ولا رسالة الشافعي ، ولا جدال ولا أدلة ودحض لأدلة ، إنها أسلمت لأن الإسلام أعجبها .

حفظت منه : (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) . وتلك تحية الإسلام التي شربت أخته معانيها كما شرب أخوها .

تري ما الذى تحدث به واثلة بن الأسقع عن الإسلام إلى عمه ؟

لا شك أنه لم يتحدث عن النامصة ولا الواشمة ، ولا عن الشك في الوضوء ، ولا عن وضع اليدين في الصلاة ، ولا عن مبطلات الصلاة ومضطرات الصائم ، ولا عن مسألة من مسائل الميراث الخلافية ، ولا عن فروع الفقه .

ويقينًا حدثه عن المعنى العام ، الذى تجمعت حوله القلوب ، وهو عبادة الله الواحد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، عن عدل الإسلام ورحمته ، ومساواته بين الناس ، وتجميعه بين شتاتهم : ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [١٢٩] وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [١٣٠] وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ .

إنه الإسلام الذى يبنى الأمة على التوحيد ، ويجمع أفرادها على معنى الأخوة ، فالمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته .

إن الإسلام دعوة خير ، ومن صادفه بقلب سليم فقد صادف أهلاً له ، خير صادف أهله ، ومن صد عنه فقد شقى ، وليس له في الخير من نصيب .

وحاجتنا إلى بناء الأمة على هذه الأسس ، أشد ما تكون في زمان الفوضى وبعد المنهج عن السوية : ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [٢] .

(1) سورة آل عمران : 103 - 105 .

(2) سورة هود : 56 .

إسلام عدى بن حاتم الطائي :

فارس ورث عن أبيه المجد ، ومن يشابه حاتمًا فما ظلم ، فإذا كان حاتم الطائي أباه فما ظلم ، وما ظلم لأنه اتبع الكرم ، وورث عروق الأصالة والقدم ، فهو أصيل أصيل .

لكن الحدث الجلل قد انتشر في بقاع الأرض ، وقد ظن بعض الناس أنه - ﷺ - ملك كالمملوك ، يسعى إلى توطيد ملكه ، وسيطرته على القبائل ، فما كان منه إلاّ الفرار .

وحين سقطت أخته بين الأيدي الأمينة والنفوس الطاهرة ، فلم تجد إلاّ تكريماً وكرماً وتزويداً وبراً ، وعادت إليه سالمة غانمة ، وحدثته بما رأت وسمعت والخير بين يديها ، وما هكذا يفعل أرباب الملك الدنيوي بمن يقع في أيديهم ، كان لزاماً عليه أن يأتيه ؛ فما راء كمن سمع .

فلما جاءه عرف أنه نبي فأسلم .

جاء في سيرة ابن هشام 4/ 211 مع الروض : أن عدى بن حاتم قال : « ما من رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله - ﷺ - حين سمع به مني ، أما أنا فكنت امرءاً شريفاً ، وكنت نصرانياً ، وكنت أسير في قومي بالمرباع ، فكنت في نفسي على دين ، وكنت ملكاً في قومي لما كان يصنع بي ، فلما سمعت برسول الله - ﷺ - كرهته فقلت لغلام لي عربي ، وكان راعياً لإبلي : لا أبالك ، اعدد لي من إبلي أجمالاً ذلاً سماناً ، فاحتبسها قريباً مني ، فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطئ هذه البلاد فأذني ، ففعل ، ثم إنه أتاني ذات غداة ، فقال : يا عدى ، ما كنت صانعاً إذ غشيتك

خيل محمد فاصنعه الآن ، إنني قد رأيت رايات ؛ فسألت عنها فقالوا : هذه جيوش محمد ، فقرب إليّ أجمالي ، فاحتملت بأهلي وولدي ، ثم قلت : ألحق بأهل ديني من النصراني بالشام . وقد كان ، وأقام بالشام ، وقدمت خيل رسول الله - ﷺ - وأصابته ابنة حاتم فيمن أصابت ، فقدم بها على رسول الله - ﷺ - في سبايا طيء ، وبلغه - ﷺ - هرب عدى ، ومر بأخته ، فقامت إليه وكانت امرأة جزلة ، فقالت : يا رسول الله ، هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فامنن عليّ من الله عليك ؛ قال : ومن وافدك ؟ قالت : عدى بن حاتم ؛ قال : الفار من الله ورسوله ؟ ومن عليها رسول الله - ﷺ - وقال لها : لا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة ، حتى يبلغك إلى بلادك ثم آذنتيني ، وجاء وفد من قومها فأبلغته - ﷺ - فكساها وأعطاهما ما تحمل عليه ، ومضت معهم إلى الشام ولقيت أخاها ونعتته بالظالم ؛ لأنه حمل زوجته وولده وترك عورته ابنة أبيه ، فقال : والله مالي من عذر ، وسأها محمد - ﷺ - فقالت : أسرع إليه فإن يكن نبياً فللسابق إليه فضله ، وإن يكن ملكاً فلن تنزل في عز يمينه وأنت أنت ، فقال عدى : والله إن هذا الرأي .

وجاء عدى ودخل على النبي - ﷺ - في مسجده وسلم عليه فقال - ﷺ - :

- من الرجل ؟

قال :

- عدى بن حاتم .

فقام - ﷺ - به إلى بيته ، فلقيته امرأة ضعيفة كبيرة ، فاستوقفتها فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها .

قال عدى بن حاتم : فقلت في نفسي ، والله ما هذا بملك .

فلما دخل به - ﷺ - بيته ، تناول وسادة من آدم محشوة ليفاً فقفذها إليه ، وقال : اجلس على هذه .

قال عدى : فقلت ، بل أنت فاجلس عليها ؛ فقال : بل أنت . فجلست عليها وجلس رسول الله - ﷺ - بالأرض فقال عدى في نفسه : ما هذا بأمر ملك .

ودعاه النبي - ﷺ - إلى الإسلام ، وذكر له من الأمارات ما رآه ، حيث الأمن الذى تحقق ، فأصبحت المرأة تخرج من القادسية على بغيرها حتى تزور البيت لا تخاف ، ورأى القصور البيض من أرض بابل قد فتحت ، وبقيت ثلاثة كما قال عدى ، وهى كثرة المال حتى لا يوجد من يأخذه .

إن الذى دعاه إلى الدين ، ما رآه من هيئة أخته العائدة إليه سالمة غانمة ، سألت رسول الله - ﷺ - أن يمنّ عليها فمّنّ عليها ، ولم يقل لها : هيا ، انصرفى ، (غورى) ، وإنما قال لها لا تعجل بالخروج ، حتى يأتى من قومك ذو ثقة يحملك إلى بلادك ، وطلب إليها أن تخبره إذا هى وجدت ذلك ، وقد كان ، فكساها ، وأعطاه ركوبة ، ونفقة .

وقد استجاب عدى لرأى أخته الذى لا يتناقض ومعطيات العقل ، فللسابق إلى النبى فضله إن كان محمد - ﷺ - نبياً ، ولجار الملك عزته إن كان ملكاً ، فقال : هذا هو رأى .

ولما ذهب إليه - ﷺ - سلّم عليه وسأله عن نفسه ، فلما أخبره انطلق به إلى بيته ، ورأى موقفين :

أحدهما فى الطريق ، وهو وقوفه - ﷺ - مع امرأة طويلاً تقول له حاجتها . والثانى فى بيته ، يؤكد الأول الذى فى الطريق والذى ربما شابته شبهة الرياء ، لكنه - ﷺ - فى بيته متواضع ، كما كان فى الطريق متواضعاً ، قالها عدى مرتين :

والله ما هذا بأمر ملك .

وهو رجل يعرف عادات الملوك وسلوكهم ، فلما لم يكن ملكاً ، وكان هذا خلقه ، وقد رأى من انتصاره ما رأى ، وبشر بما سوف يكون من ظهور هذا الأمر ، أسلم عدى .

إسلام سعد بن معاذ .. وأسيد بن حضير :

إنه القرآن الكريم ، تنزيل رب العالمين . ما تلاه قارئ يتحلى بما تحلى به الأوائل من : صدق وإخلاص وصفاء ، إلا صفت إليه القلوب الصحيحة والنفوس السوية ، فآمنت واطمأنت .

هذا ما حدث فى إسلام رجلين من أعز الرجال وأغلى الرجال ، ممن نصر الله بهم دينه ، وأيد بهم رسوله - ﷺ - .

كانا يودان الفتك برسول رسول الله - ﷺ - مصعب بن عمير ، فما حال دون الغاية إلا الهداية ، وكان سماع القرآن الكريم سبيلها الوحيد .

واليوم وقد ضعفت اللغة العربية التى هى لسان الذكر الحكيم ، وضعف الإحساس بجملها وبلاغتها ودلالات مفرداتها وتراكيبها ، لا بد من العودة إليها حتى يؤثر الكتاب الكريم فى الأجيال الناشئة ، التى رأى كثير من الناس أن يصرفوهم عنها إلى اللغات الأخرى منذ نعومة أظفارهم ، فيباعدون بينهم وبين كتاب الله تعالى من حيث لا يشعرون .

أرسل النبى - ﷺ - (مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار) مع القوم الذين بايعوه ببيعة النساء - أى على الإسلام ، وألا يسرقوا وألا يزنوا ، وألا

يقتلوا أولادهم، وأن لا يأتوا ببهتان وأن يطيعوه، ولم يكن قد فرض الجهاد، فلذلك سميت بيعة النساء، وكان فيهم (عبادة بن الصامت) الذي روى له البخارى حديث تلك البيعة، أرسل معهم مصعب بن عمير - رضى الله عنه وعنهم - ليقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فكان مصعب بن عمير يقال له: القارئ.

وكان منزل مصعب على (أسعد بن زرارة بن عدس بن أبى أمامة)، قال الطبرى في تاريخه 1/ 575: «خرج أسعد بن زرارة بمصعب بن عمير يريد به دار بنى عبد الأشهل ودار بنى ظفر، وكان (سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس) ابن خالة أسعد بن زرارة، فدخل به حائطاً من حوائط بنى ظفر على بئر يقال لها بئر مرق، فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، و(سعد بن معاذ وأسيد ابن حضير) يومئذ سيدا قومهما من بنى عبد الأشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه، فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبالك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا، فازجرهما وانهما أن يأتيا دارنا؛ فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منى حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدماً.

فأخذ أسيد بن حضير حربته، ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد قال لمصعب: هذا سيد قومه، قد جاءك فاصدق الله فيه.

قال مصعب:

- إن يجلس أكلمه.

فوقف عليهما متشتمًا، فقال:

- ما جاء بكما إلينا، تسفهان ضعفاءنا!! اعترلانا إن كانت لكما في أنفسكما

حاجة.

فقال مصعب:

- أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته فكف عنك ما تكره؟

قال أسيد:

- أنصفت.

ثم ركز حربته، وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن.

فقالا: والله لقد عرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهيله، ثم

قال:

ما أحسن هذا وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟

قالا له:

تغتسل، وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى ركعتين، فقام واغتسل وطهر ثوبه وشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، وقال لهما: إن ورائى رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما.

وجاء سعد إليهما بعد أن أخبره أسيد بن حضير بأن ابن خالته على خطر من القوم ليسرع في نجده، وقال أسعد لمصعب الكلام نفسه الذى قال لهما أسيد: بأن سعد بن معاذ لو اتبعهما ما تخلف عنه واحد من قومه، وقال مصعب لسعد الكلام نفسه الذى قاله لأسيد، طلب إليه أن يجلس، فإن سمع ما أحب أقبل وإلا ترك، وقد كان منه ما كان من أسيد بن حضير، وأسلم الرجلان على الحب، حب ما جاء به الله - ﷻ -.

إن مصعب بن عمير قرأ القرآن بصدق على رجلين صادق قلبيهما، فالتقت التلاوة من صادق وقلب رجل صادق، فأثمرت إسلامًا.

إن مسألة: هذه هي الفاتحة، فأين عمر؟ هي بيت القصيد، فإن قال قائل: ألم يسمع أبو لهب القرآن من ابن أخيه محمد، فلماذا لم يسلم؟ فالجواب: أن محمدًا - ﷺ - أصدق إنسان، لكن أباهب أكذب إنسان: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۚ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۚ ١ 》.

وشرط الصدق في المبلِّغ (بكسر اللام) والمبلِّغ هو سر المعادلة الذي متى وجد، تحققت بلا جدال ولا نزاع.

لقد جاء أسيد بن حضير متوعدًا مصعب بن عمير وأسعد بن زرارة، جاء وهو يريد أن يحقق لسعد بن معاذ رغبة يريد أن يكفيه مئونة ابن خالته، وهذا أول ما يقرع الأسماع ابن خالته، ما معنى ابن خالته؟

رحم، صانها سعد بن معاذ، لأن صونها فضيلة، والفضيلة يصونها الفاضل الصحيح، ويضيعها الفاجر الماجن الفاسق.

هو يكره أن يسفه الضعفاء من قومه، على زعمه بأن الدعوة باطلة، وتلك أيضًا فضيلة إلى أن يثبت لديه العكس، وقد ثبت، فدعا قومه إلى الإسلام، وتلك هي الفضيلة الكبرى، فالرائد لا يكذب أهله، إنه يقودهم دائمًا إلى ما فيه خيرهم، وهم واثقون به، مطمئنون إليه. لقد قال أصحاب السير والتواريخ: إن سعدًا حين أسلم، قال لقومه:

ما تحسبونني فيكم؟

سؤال من يعرف الجواب، لكنه استدراج العاقل الذي يحسن الخطاب، فلما قالوا: سيدنا وعظيمنا وعاقلنا.

قال: أسلموا، فقد أسلمت لله رب العالمين، فما بقي أحد من قومه إلا وقد دخل في الإسلام، وقد تنبأ بهذا ابن خالته أسعد بن زرارة، وتنبأ به كذلك أسيد ابن حضير.

نعم جاء أسيد عازمًا على الشر، ويكفي دليلًا على ذلك أنه أمر مصعب بن عمير وأسيد بن حضير بترك هذه الدعوة، والمضى سريعًا من هذا المكان إن كانت لهما حاجة في نفسيهما، يعني أن الرجل عازم على القتل ورفض الجلوس، ظل واقفًا وهو ممسك حربته، لكنه لم يمسك لسانه عن الشتم.

ومصعب بن عمير تعلم من رسول الله - ﷺ - المبدأ: أن يدعو الناس وهم جلوس. فقد جاء في سيرة ابنى إسحق وهشام أن رسول الله - ﷺ - كان يعرض نفسه على الناس، فإن كانوا جلوسًا أقبل عليهم، وسلّم، وجلس حيث ينتهى به المجلس ودعاهم، وإن كانوا قيامًا قال لهم: ألا تجلسون أحدثكم، لذلك قال مصعب بن عمير: إن جلس أحدثه.

إنها دعوة عقل وإنسانية وحضارة وثبات واستقرار، وليست حاجة: (ع السريع، ولآع الواقف)!

﴿ فَأَمَّا الْزَبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ ١ 》.

وتلك دعوة، ما ينفع الناس سواها، ومع هذا الحزم الشديد، والرغبة العاجلة في إنهاء الموقف جلس أسيد بن حضير، وجلس سعد بن معاذ رضي الله عنهما، ولكن لماذا جلسا؟

هل جلسا امتثالاً لأمر مصعب بن عمير؟!

إنهما جلسا امتثالاً لحق سمعاه:

إن وجدت ما تحب فأقبل، وإن وجدت ما تكره فادفع عن نفسك ما تكره.

وهذا هو المعنى نفسه الذي انتقل إلينا في إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي حين قال له مشركو مكة ما قالوا في رسول الله - ﷺ - حتى وضع الكرسي في أذنيه؛ كيلا يسمعه، ثم عاد فقال لنفسه: أين عقلي؟ وأين علمي بالبيان والشعر؟ على أن أسمعه ثم أحكم، فإن كان حسناً قبلته، وإن تكن الأخرى تركته، فنزع الكرسي، وسمع رسول الله - ﷺ - ووجد الحسن كله، فاتبعه، وقد ذكرناه في قصة إسلامه.

إن رجلاً في قمة انفعاله يسمع الحق ويمثل له، لدليل على أن الخير آت بإذن الله، وقد كان، سمع الرجال الدعوة إلى الحق، وقرأ مصعب بن عمير عليهما القرآن، وبين لهما دعوة الإسلام، فما كان منهما إلا أن سألوا فوراً عن كيفية الدخول فيه، فدخلوا، وكانا من أعمدة هذا الصرح الكبير الذي أظهره الله تعالى.

إنهما أسيد بن حضير الذي نزلت عليه السكينة وهو يقرأ القرآن، كما روى البخاري، وسعد بن معاذ الذي حكم في يهود بنى قريظة بحكم الله تعالى من فوق سبع سماوات، وضرب في الخندق فانقطع أبهره، فدعا الله أن يقبضه إليه، إن كانت آخر غزوة بين رسول الله - ﷺ - وقريش، وألا يقبضه حتى يقر عينه بزوال

بنى قريظة، وقد كان، إن ذلك لدليل على أن من بدأ بهذا الصفاء والانصياع للحق والإذعان له، كان محمود السيرة فما أعتقد، وكان سبباً في نصرة ما آمن به.

إن من سوء الخلق: أن تجرد الرجل إذا غضب يشيط كما نقول، فيرغى ويزبد، وينطق بالفحش والسوء، ولا يلوى على شيء، لا يسمع حقاً، ولا يستجيب لدعوة حق، وإنما يضرب الأرض برجله، ويمزق بيده ثوبه لا يعرف تقدير الكبير، ولا رحمة الصغير، وإنما يبطش جباراً عنيداً.

وقتل هذا خيره قليل، وشره كثير، ولا يعد في ميزان العقلاء رجلاً!

ففي الصحيح يقول النبي - ﷺ - : « ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب ».

وجملة « اتق الله » قادرة على تفتيت الصخر، يلين لها الجبل، لكن لا يلين لها قلب هذا الشيء والمسمى رجلاً، وما هو برجل!

ومن ثم قال الله - تعالى - في صفة المنافق: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾⁽¹⁾.

ولقد صدقت امرأة حين وصفت شخصاً على هذه الشاكلة بقولها: أعوذ بالله منه، إنه ساعة يغضب يكون كالثور الهائج، وهل يخاطب الثور الهائج؟!

إنه في غضبه وثورته ثور هائج، وبناءً على ذلك، فهو في حال هدوئه ثور غير هائج، فلا يرجى نفعه كذلك، ولا خير في خطابه.

(1) سورة البقرة: 206.

إننا حين نشاهد مجموعة من الناس في برنامج يتحدثون في موضوع ، فلا نكاد نرى ونسمع حوارًا ، وإنما نرى ثورة وهياجًا ، وتطاولاً قد يصل إلى التشابك . وكأننا فرجة عظيمة لمن يكرهون الإسلام ، وأصبحنا نرى طائفة من الإعلاميين يطلقون على ذلك « حلقة ساخنة » أى : أن الضيوف فيها ثائرون مختلفون ، وليس مهمًا أن يخرج الناس بفائدة ، أو جملة مفيدة ، والحلقة الساخنة حلقة لها مشاهدون كثيرون ، فما الذى يشاهدونه ؟!

إن معنى ذلك : أن هناك راغبًا في مشاهدة شىء لا خير فيه ولا نفع ، مشاهدة معركة ، لا مشاهدة أهل فكر وعلم ، وتلك مأساة !!

إسلام كعب بن زهير بن أبى سلمى :

ما زالت المعانى العالية تفيض مثلما يفيض النور ، وتسطع الشمس فوق ظلام الكون ، أى إنسان يتصور أن من أخطأ فأفحش ، ثم جاء معترفًا يقبل منه عذره ، ويخلع عليه أظھر رداء ، وأعظم بردة تسجى بها من طاب حيًا وميتًا - ﷺ - .

هذا ما حدث منه - ﷺ - حين بلغ كعب قوله :

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

نعم معشر المسلمين ، إن الرسول لنور يستضاء به ، فهل فكرنا في معنى النور ، وهل كنا أول المتفاعلين به ، لتضاء سبلنا بهديه ، ولتسير ركابنا على هده .

إنه نور رسول الله - ﷺ - أى نور دينه الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، إن العفو عمن ظلم نور ، واتساع الصدر لمن رنا إلى نيل الصفح نور ، ونسيان

الإساءة نور ، وفتح باب التوبة وإن عظمت الذنوب نور ، وجميع هدى النبى - ﷺ - نور لمن أراد أن يتأسى بسنته - ﷺ - .

وماذا بعد النور إلا الظلام ، وماذا بعد الحق إلا الضلال المبين ، وماذا بعد اتساع الصدر إلا ضيق النفس والحياة !

قبل أن أكتب قصة إسلام كعب بن زهير الشاعر ابن الشاعر الكبير صاحب المعلقة وهى معروفة ، قرأت أبياتًا له يقول فيها :

أنا ابن الذى عاش تسعين حجةً فلم يُخزَ يوماً فى مَعَدٍّ ولم يُكَمْ
وأكرمه الأكفاء من كل مَعْشَرٍ كرامٍ فإن كذبتنى فاسأل الأُمَمَ
أقول شبيهاتٍ بما قال عالماً بهن ومن يشبه أباه فما ظلم
فأشبهته من بين مَنْ وطئ الحصا ولم ينتزعنى شُبُهٌ خال ولا ابنُ عم

وكان أبوه قد مدح (المهرم بن سنان والحرث بن عوف) لما بذلاه فى الصلح بين قبيلتى : عبس وذبيان .

فالرجل محب للإسلام كأبيه ، وفيه مجد موروث ، فإذا أخطأ مثل هذا ، كان ذلك عنده عظيمًا ، وضاعت عليه الأرض قبل أن يضيق به كل خليل .

فلما قال حين أسلم أخوه بُجير :

ألا أبلغا عنى بُجَيْرًا رسالةً على أى شىء ويك غيرك دلكا
على خلق لم تَلَفَ أما ولا أبا عليه ولم تدرك عليه أخالكا

فقال رسول الله - ﷺ - : « أجل لم يلف عليه أباه ولا أمه » .

وكتب إليه بجير أن : أقبل إلى رسول الله - ﷺ - فإنك إن فعلت ذلك ، قبل منك وأسقط ما كان منك قبل ذلك ، فقدم على رسول الله - ﷺ - ودخل عليه مسجده وأنشد راعته :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

أسلم كعب بن زهير ، لأنه عظيم عظم جرمه وإساءته ، وعلم أن رسول الله - ﷺ - يقبل المعتذر النادم .

هذا الخلق يجب أن يشيع في حياتنا ، فإن كثيرًا من أبنائنا خرجوا ولم يعودوا ؛ لإيمانهم أنهم إن عادوا فلن يقبل منهم اعتذار !

أعرف طفلاً فقد خمسة مليات (تعريفة) وكان أبوه يجلده كلما فقد شيئاً ، ويهدده ويتوعده ويضرب أمه إن اعتذرت عنه ، فلما ذهب بالتعريفة إلى البقال ، ونظر في كفه فإذا بها فارغة قال : لو عدت إلى أبي لقتلني ، فهرب ولم يعد أبداً ! يجب أن يشعر أبنائنا - فضلاً عن أعدائنا - أن في صدورنا سعة اكتسبناها من حبنا رسول الله - ﷺ - .

إسلام قرة بن هبيرة :

طال النظر ، وطول النظر مع غياب المنهج لا يقدم ولا يؤخر ، كلمة واحدة هي « النفع » ، ومعها النقيض الذي تخضع له الأفكار لما ترى من الأغيار ، فالحياة ما بين نفع وضر ، وربح وخسارة ، وصحة ومرض ، ونجاح وفشل ، فمن بيده النفع والضر ؟ إنه الله وحده .

والمنهج الذي أفاد (قرة بن هبيرة) وغيره هو ظهور الإسلام ، الإسلام الذي يقول للناس : إن الله - ﷻ - هو النافع الضار ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾⁽¹⁾ .

ومعرفة ذلك وصفها النبي - ﷺ - « بنعم ذا عقلاً » .

مدح النبي - ﷺ - عقل من اهتدى إلى تلك الحقيقة ، مع أنه لم يصل إلى اختراع الذرة ، ولا إلى اكتشاف البترول وثروات الأرض ، ولا إلى اختراع دواء للسرطان الحاصد للبشر ، واليقين أن من عرف تلك الحقيقة وصل إلى ذلك كله وأكثر ، لأنه سوف يهجر البدع والخرافات ومصاحبة الدجالين وزيارة الكذابين ، وسوف يولى وجهه إلى الله - ﷻ - وهو محسن ، وإذا تحقق من العبد الإحسان وهو مسلم وجهه إلى الله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، عندئذ يسعى إلى الأسباب ، يكتشف المزيد منها والله يوفقه ؛ لأنه مخلص ، تخلص من الشوائب والكدر ، واتجه إلى رب البشر .

وفد قرة بن هبيرة القشيري من بنى عامر بن صعصعة القشيري على النبي - ﷺ - وقال له : يا رسول الله ، الحمد لله ، إنا كنا نعبد الآلهة ، لا تنفعنا ولا تضرنا .

فقال - ﷺ - : نعم ذا عقلاً .

ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب (3/ 343) .

(1) سورة يونس : 107 .

وقوله - ﷺ - : « نعم ذا عقلاً » يدل على أن إعمال العقل يهdy إلى الدين الحق ، فالأصنام لا تنفع ولا تضر ، ولا تسمع ولا تبصر ، ولا تغنى من الحق شيئاً ، ولا عن أصحابها شيئاً .

قضية العقل من القضايا التي طالما غابت ، فساء أمر الذين غيها ، ولطالما حضرت فحسن أمر الذين أحضروها .

وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾¹ .

وقال جل شأنه : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾² .

والعقل وظيفته التأمل ، والتفكير ، وكما قال الشاعر :

إنارة العقل مكسوف بطوع هوى وعقل عاصى الهوى يزداد تنويرا

أى : إن الذى يحجب نور العقل طاعة الهوى ، وقد يكون الكفر بسبب اتباع الهوى ، هوى حب الآباء والأجداد ، فقد قال الكفرة للرسول :

﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾³ .

وبئس العمل الاقتداء بمن لا عقل له .

لقد قال الذين آمنوا بمسيلمة الكذاب :

إن كذابنا خير من صادق قريش .

هم إذا يقررون بأن محمداً - ﷺ - صادق ، كما يؤمنون بأن صاحبهم كذاب ،

لكنه منهم ، وتلك العصبية البغيضة التى ما دعا إليها داع إلا أهلك نفسه وقومه .

(1) سورة آل عمران : 7 .

(2) سورة الرعد : 19 .

(3) سورة الزخرف : 23 .

إن قول النبى - ﷺ - « نعم ذا عقلاً » ، من أساليب المدح المعروفة فى العربية ، فما المخصوص بالمدح ؟

إنه العقل ، ولماذا خص العقل بالمدح ؟ لأنه هدى صاحبه إلى ترك ما لا خير فيه ، وهجرته إلى ما فيه خير .

إن رجلاً يقول لك :

لم أسافر خارج البلاد للعمل ، فإن سألته : لماذا ؟

فأجابك : لأن أمى مريضة ومسننة ، وليس لها أحد غيرى .

فإن سألته : وماذا تفعل هنا ؟

أجابك : لا شىء !

كان قد أعمل عقله نصف الطريق ، ولم يعمل النصف الآخر ، ولا خير فى هذا الإعمال .

لأنه ببطالته يضيع نفسه ويضيع أمه ، لكنه إذا قال لك :

أعمل هنا كذا وكذا ، وبيارك الله من أجل برى بأمى ، كان رجلاً عاقلاً .

تاريخ الصحابة فى سيرة المعصوم - ﷺ - فيه : لما مات فلان تزوجت امرأته فلاناً ، وفيه : لما طلقت فلانة من فلان تزوجت فلاناً . ونحن نرى من تعكف دون زواج ؛ لأنها فشلت أو مات عنها زوجها .

ونرى ركب الحياة يتعطل لأول عشرة - ونرى من يلزم اليأس لأول ضر أصابه ، والعقل يقول منذ زمان :

وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متحول

إسلام عمرو بن عبسة السلمي :

تتحرك الفكرة في صدر الحى ، وتكاد تخرج من صدره إلى جوفه ، ومن ثم إلى لسانه بيانًا ينطق ، وصوتًا مسموعًا ، وقد كانت دون مستوى الهمس .

فإذا لقي من يسمعه الخير ، ويطلعه على الحق خرج ذلك البيان ، وظهر هذا الصوت الخفى .

وإن لم يلق من يسمعه الخير ، ويطلعه على الحق ، فلربما توهم أن ما دار في نفسه وهم من الأوهام ، وطيف من الخيالات والخواطر التى تطوف ألف مرة في كل ثانية برأس كل حى . من أجل ذلك كان لزامًا أن ينتشر الخير ، وأن تستمر الدعوة إلى الله ، فهناك قلوب تنتظر ، وآذان تهفو إلى سماعها ، هناك دائمًا من ينتظر سماع صوتك ، فأين صوتك !

والأهم من كل مهم أن يكون صوتك حيًا ، وأن تكون دعوتك صادقة صحيحة ، وأن يكون ما تقوله محققًا . هنالك يلتقى بك مَنْ لم تره ، ويدنو منك من لم تبصره ، وقد تلتقى به بعد حين ، وأنت لا تعرفه ، لكنه يعرفك فقد هداه الله - ﷻ - على يديك ، وهذا خير لك من الدنيا وما فيها .

ادعه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وترفق به وب عقله وفكره ، وجنبه الشقاق والنزاع وسوء البلبلة ، ادعه إلى دين الله كما أمر الله أن يعرفه رحمة واسعة .

وكما أسلم (سلمان الفارسي) باحثًا عن الحقيقة، أسلم عمرو بن عبسة السلمي باحثًا عنها أيضًا ، عاملاً مجتهدًا على الوصول إلى رسول الله - ﷺ - .

لقد قال عمرو بن عبسة فى الجاهلية : لقد ألقى فى روعى أن عبادة الأوثان باطل .

فسمعه رجل ، فقال له : إن رجلاً بمكة يقول كما تقول ، قال : فأتيت مكة أول ما بعث رسول الله - ﷺ - وهو مستخف ، فقيل لى : إنك لا تقدر عليه إلا بالليل حين يطوف ، فتمت بين يدي الكعبة ، فما شعرت إلا بصوته يهلل ، فخرجت إليه فقلت : من أنت ؟

فقال : أنا نبي الله .

فقلت : وما نبي الله ؟

فقال : رسول الله .

فقلت : بم أرسلك ؟

قال : أن تعبد الله ، وحده لا تشرك به شيئًا ، وتكسر الأوثان ، وتحقن الدماء .

قلت : ومن معك على هذا ؟

قال : حر وعبد ، يعنى : أبا بكر وبلالاً .

فقلت : ابسط يدك أبايعك ، فبايعته على الإسلام .

قال : فلقد رأيتنى وأنا ربع⁽¹⁾ الإسلام .

قال : قلت : أقيم معك يا رسول الله ؟

قال : لا ، ولكن الحق بقومك ، فإذا سمعت أنى قد خرجت فاتبعنى ، فلحقت

بقومى ، فمكثت دهرًا منتظرًا خيره حتى أتت رفقة من يشرب فسألتهم عن الخبر

فقالوا : خرج محمد من مكة إلى المدينة .

(1) أى بعد رسول الله ﷺ وأبى بكر وبلال فهؤلاء ثلاثة وهو رابعهم ، أى رُبُعهم .

قال : فارتحلت حتى أتيت ، فقلت : أتعرفني ؟

قال : نعم ، أنت الرجل الذي أتيتنا بمكة .

لقد تفكر الرجل في عبادة الأوثان التي عليها قومه ، فكان أن ألقى في روعه أن تلك عبادة لا تصح ، ولا يستقيم معها فكر ، فهي لا تنفع ولا تسمع ، ولا تغني شيئاً عما يعبدونها .

وكان أن سمع بالنبي المرسل الذي جاء بالرسالة الخاتمة تقوم دعوته على عبادة الله وحده ، فهذا خير صادق أهله ، وسبيل يسره الله تعالى لمن أعمل عقله .

إسلام عمير بن وهب الجمحي :

انظر إليه وقد توشح سلاحه ، وعزم على قتل من جاء بالهدى ودين الحق ؛ ليظهره على الدين كله حياة لا قتلاً ، وحباً لا بغضاً ، ورجاء لا يأساً ، ورياً لا جفاء .

فإذا بوزير للنبي - ﷺ - يعمل فيه فراسته كما أعمل بصره ، رآه على تلك الهيئة فقال : ما جاء إلا لشر وأمسك به ، فكان أول ما قاله له النبي - ﷺ - : أرسله يا عمر .

هذا رسول الحرية - ﷺ - الذي دعا إليها من أول معانيها ؛ حيث التخلص من الأغلال إلى أسمى معانيها ؛ حيث الوصول إلى غايات الجمال وخلق الرجال ، وهذا هو الإسلام الذي يحاول أعداؤه أن يصفوه بأنه انتشر بالسيف ، فهذا هو ذا حامل سيف ، وعدو جاء ليقتلنا ، وما كان أسرع أن يتخلص منه المسلمون وقد قبض عليه عضد قوى ، لو سلك شعباً لسلك الشيطان شعباً غير شعبه ، لكنهم ينتظرون إذًا رسول الله - ﷺ - فما أذن إلا بإرساله والعمل على راحته ، والاستماع إليه ، ومحاورته بالحق ، فأسلم الرجل .

نعم ، عرف الإسلام حقاً ناطقاً بالحكمة مخاطباً باللين ، رحيماً حتى بالمشركون ، لأنهم أنفس ، وأول مقاصد الإسلام صون النفس من إزهاق حياتها إلا بحقها .

قدم عمير بن وهب المدينة يريد الفتك برسول الله - ﷺ - فأخبره النبي - ﷺ - بما كان بينه وبين (صفوان بن أمية) حين انصرافه من بدر ليفتك بالنبي - ﷺ - وضمن له صفوان على ذلك أن يؤدي عنه دينه ، وأن يخلفه في أهله وعياله ، ولا ينقصهم شيئاً ما بقوا .

فلما قدم المدينة لقيه عمر على الباب ، فلبه ودخل به على النبي - ﷺ - وقال يا رسول الله : هذا عمير بن وهب ، شيطان من شياطين قريش ، ما جاء إلا ليفتك بك ، فقال :

« أرسله يا عمر ! »

فأرسله ، فضمه النبي - ﷺ - إليه وكلمه ، وأخبره بما جرى بينه وبين صفوان ، فأسلم وشهد شهادة الحق ، ثم انصرف إلى مكة .

وذكر السهيلي - رحمه الله - أكثر من هذا تفصيلاً ، لكن الشاهد أن علامات النبوة كانت سبباً في إسلام عمير ، وأضيف إلى ذلك تلك العبارة التي تكررت في سيرة رسول الله - ﷺ - وهي « أرسله يا عمر » .

كان عمر قد طوق عمير بن وهب ، فلما امثل بين يدي النبي - ﷺ - أمر عمر أن يرسله ، ومما ذكره السهيلي : أن عمير بن وهب كان متوشحاً سيفه ، وأن النبي - ﷺ - سأله عن سبب قدومه المدينة ، فقال : الأسير الذي في أيديكم وكان ولده أسيراً عند المسلمين ، فقال له :

- وما هذا السيف ؟

فقال : قبحها الله من سيوف ، وهل أغنت عنا ؟ أى يوم بدر ، حيث هزم المشركون برغم كثرة عددهم وعدتهم .

وعندئذ أخبره النبي - ﷺ - بما كان بينه وبين صفوان ، فأسلم .

أسلم لعلمه أن هذا خبر لم يعلمه أحد من البشر ، وأسلم لأن رسول الله - ﷺ - قد أرسله مع علمه بأنه قادم للفتك به .

فصدق الله العظيم : ﴿ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾⁽¹⁾ .

إسلام شطب الممدود :

ما زالت قصة إسلام شطب الممدود تنفخ من روحها في نفس كل داعية ، يقول لكل الذين يجانبهم الصواب : لا أمل لكم ولا رجاء ، وما من سبيل أمامكم لنيل رحمة ربكم .

وكأنى به وقد جاء يحمل أوزاره ، والإثم قد حاك في صدره ، وسود كل مبيض أمام عينيه ، يرجو الأمل ممن عنده الأمل كله - ﷺ - فقد بلغ عن الله - ﷻ - : ﴿ قُلْ يَعِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾⁽²⁾ .

(1) سورة فصلت : 34 .

(2) سورة الزمر : 53 .

ما من رياض تفوح بالأشذاء ، مثلما تنبثق تلك الأضواء من رياض تلك الآية الكريمة ، وما صادف يائس في حياته من جميع حياته من دعوة إلى استعادة صفاء الحياة ، مثلما يصادف في هذه الآية التي قيل : إنها أرحى آية في كتاب الله .

ورحم الله صحابة رسول الله - ﷺ - الذين عبروا بالأرجى ، ومعنى ذلك : أن كل ما في القرآن الكريم رجاء ، فأين الرجاء في حياة الأمة المسلمة ؟!

رجل من كندة ، نزل الشام ، وسكن بها ، أتى النبي - ﷺ - وقال له :

لو أن رجلاً فعل كل المنكرات ، لم يترك ذنباً من الذنوب كلها ، وهو في ذلك لم يترك حاجة ولا داجة إلا اقتطعها بيمينه :

والحاجة : يعنى يقطع طريق الحجاج وهم ذاهبون إلى الحج .

والداجة : يعنى يقطع طريق الحجاج وهم عائدون من الحج .

ثم قال له : هل لذلك من توبة ؟

فقال النبي - ﷺ - هل أسلمت ؟

قال أما أنا ، فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنتك رسوله .

قال : « نعم ، تفعل الخيرات ، وتترك السيئات ، يجعلهن الله كلهن خيرات » .

قال شطب : الله أكبر الله أكبر ، وظل يكبر حتى توارى (اختفى) .

إن قصة إسلام شطب هي باب الرجاء ، والإسلام دين الرجاء ، يسلم المجرم ؛

فالإسلام يجب ما قبله ، ويذنب فيغفر الله له إذا تاب على شرط التوبة .

وهذا الحديث يفسر لنا معنى قوله تعالى في سورة الفرقان : ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾⁽¹⁾.

فقد فهمها كثير من الناس على أن التائب بمجرد أن يقول : تبت إلى الله ، وندمت على ما فعلت ، يبدل الله سيئاته كلها حسنات !

وهذا لا أصل له ولا سند في دين الله ، وقد راجعت جملة من كتب التفسير ، منها : كشف الزمخشري ، والبحر المحيط لأبي حيان ، وغرائب الكرماني ، فلم أجد رائحة من هذا الشائع الذي وصل ببعض الرعاة إلى أن قال - وقد سمعته - : إن المجرم الذي يفعل مليون سيئة أفضل مني ، لأن له إذا تاب مليون حسنة .

وهذا عقم فكر ، وضعف نظر إن لم يكن عمى ؛ فخلاصة ما في كتب العلم أن التائب كلما فعل حسنة محال الله بها سيئة من سيئات ما عمل قبل توبته ، يصدق ذلك قوله تعالى من سورة هود : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾⁽²⁾.

إن باب التوبة مفتوح أبداً ما لم يغرغر المسلم ، ولكن ماذا بعد التوبة ! أهى توبة فم والسواعد قد شلت ، والخطا قد سد أمامها الطريق ؟ وقد ورد أن الصحابة منهم من كان يقول : كل موضع عصيت الله فيه فعلت فيه الخيرات .

(1) سورة الفرقان : 70 .

(2) سورة هود : 114 .

إسلام سلمان الفارسي :

دائماً نسمع « أنت مثل أخى » ماذا علينا لو حذفنا كلمة « مثل » فصارت الجملة « أنت أخى » . إنها على هذا التركيب أجمل وأبهى وأوقع دلالة وأشد أثراً ، وقد جاءت على منوال النظم الجليل ، حيث قال الله ربنا - ﷺ - : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾⁽¹⁾ . وعلى لسان رسول الله - ﷺ - حيث قال : « المسلم أخو المسلم » .

وفي ضوء قصة إسلام سلمان الفارسي القادم من أصل بعيد ، ونسب بعيد ، أسلم - ﷺ - وحظى بقول سيدنا رسول الله - ﷺ - « سلمان مّتا » وهى على ذات الطريق دون مثلية ، ودون تباعد .

إن هذا المعنى إذا تحقق صارت المسافات البعيدة قريبة ، والتحم الناس بعضهم ببعض برغم تفرق الأجسام . وقد قلت مرة في قصيدة نظمتهما لوداع زميل فاضل هو العلامة محمد فؤاد على الدين - حفظه الله حين أنهى عقده مع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأنها :

ولئن تجمعت القلوبُ عشيرةً ما ضرَّ أن تتفرق الأجسام

إنه الإسلام الذى آخى بين الناس فتهافت شعارات وسقطت نعرات ، وتوارت عصبية ، وصار الحق : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾⁽²⁾ .

أصله من فارس من رام هرمز ، من قرية يقال لها (بئ) وقيل بل كان أصله من أصبهان .

(1) سورة الحجرات : 10 .

(2) سورة الحجرات : 13 .

قال ابن عبد البر (2/ 195): وكان سلمان يطلب دين الله تعالى، دان بالنصرانية، وعرف صفات النبي - ﷺ - .

وقد ورد أنه جاء إلى النبي - ﷺ - بتمر وهو بين أصحابه في المسجد، وقال: هذا صدقة .

ورأى النبي - ﷺ - لا يأكل منها، وسمعه يقول: « لا تحل لنا الصدقة » .

وعاد بتمر غيره، وقال: هذه هدية، فقال النبي - ﷺ - لأصحابه: « كلوا » . وقيل إنه رأى خاتم النبوة، وغير ذلك .

فقصة إسلام سلمان قصة بحث عن الحقيقة، وقد أسلم عبد الله بن سلام وكان من اليهود لما عرف من صفاته - ﷺ - وصدق الله العظيم القائل: ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾⁽¹⁾ .

فالنبي - ﷺ - مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، فالسعيد من وفقه الله تعالى إلى الخير فاهتدى بها علم، والشقى من عرف الحق وحاد عنه .

إن قصة إسلام سلمان، ترينا ما نحن عليه من انحراف في الفكر، وتبين لنا أثر المفارقة بين العلم والعمل، فنحن نعلم أسباب التقدم ولا نتقدم، كما أننا نعلم أن الله يجزي المحسنين، فلماذا نسيء!

ولدينا من البحوث العلمية والرسائل الجامعية، ما يبين لنا عن تجربة وبحث سبل النجاة من عشوائية الإنفاق، وإهدار الأموال سدى، لدينا نظريات في الاقتصاد والاجتماع وغيرهما، ومع ذلك فنحن بعيدون عنها!

(1) سورة البقرة: 146 .

ولن نتقدم أبدًا ما دام هذا سلوكنا مع العلم، ومن مآسى تلك المفارقة بين العلم والعمل أننا نفتقد من يؤثر فيه علمه .

وعلى سبيل المثال:

من الغريب أنك تسمع خطيبًا يشنف آذانك في الغيبة والنميمة، ويبين لك أنها من الكبائر، فإذا قضى صلاته كان مجلسه مع أصفیائه في الغيبة والنميمة!

ومن العجيب.. أنك تجد فتاة جامعية تحمل شهادة راقية، فإذا تزوجت عاملت زوجها كأنها ما دخلت يومًا مدرسة، ولا عرفت عمرها جامعة .

ومن العجيب.. أننا نؤمن بأن الله وحده علام الغيوب، وترى أهل البحوث الميدانية يقولون لنا: إن ملايين تنفق على الدجالين وقراء الفناجين، ومعظم الذين ينفقونها من حملة الشهادات الجامعية .

لقد علم سلمان فآمن، وكان من آل البيت، فمتى نعمل بمقتضى علمنا لنكون من أهل الإسلام حقًا!

إسلام أبي سفيان:

الملك الذي بدا له ملكًا كان السبيل إلى إسلامه، وقد جاءت الفرصة تلو الفرصة ليسلم مع الأوائل، لقد أثر الصدق حتى لا يقال كذاب . حين حدث الملوك عن محمد - ﷺ - فبين صفاته، وذكر أتباعه، ونطق بالحق الذي ما صرفه عن اتباعه إلا الأوهام والكبر وغرور كل ما حوله .

آمن مَنْ آمن من قومه، وظل على شركه حتى رأى ما رأى من فتح الله - ﷻ - على نبيه ورسوله - ﷺ - .

الأمر الذى ينادى فى المسلمين اليوم ، أن يعودوا إلى العزة ، وأن يجمعوا ما تفرق من أسبابها قبل زواله ؛ فجميع أسباب العزة فى أيدينا ، كلمة واحدة هى الاتحاد .. ما أيسر النطق بها وما أيسر أن يتحقق معناها ، إذا صح القصد وسلمت النية ، أن يعود العلماء الهاربون بعلمهم إلى آفاق الدنيا ، وأن ينالوا من الكرامة والأجر أضعاف ما ينالونه فى مهاجرهم ، فأقل لاعب كرة يتقاضى أضعاف هذا الذى أرجوه ، وأن تعود الأموال المستثمرة فى الخارج إلى صحارينا الشاسعة لتجرب فيها مياه الحياة ، فيقضى على البطالة ، وتعمر الأرض ، ويعلو البناء وتزدهى الصروح وتصور الكاميرات ملك المسلمين ، فيأتى أمثال أبى سفيان بلسان الحال الذى هو أبلغ من لسان المقال .

بسبب كرم رسول الله - ﷺ - وأمانه الذى نشره ، واستجاب لمن طلبه ، آمن كثير من الناس ، أسلم (صخر بن حرب الأموى) (أبو سفيان) يوم الفتح ، وأعطاه النبى - ﷺ - من غنائم حنين مائة بغير وأربعين أوقية ، كما أعطى سائر المؤلفه قلوبهم ، وأعطى ابنه : يزيد ، ومعاوية ، فقال له أبو سفيان : والله إنك لكريم - فداك أبى وأمى ، والله ، لقد حاربتك فنعم المحارب كنت ، ولقد سالمك فنعم المسالم أنت ، جزاك الله خيرًا .

وأسلم (صفوان بن أمية)، وكان (عمير بن وهب) قد استأمن له رسول الله - ﷺ - حين هرب يوم الفتح ، هو وابنه (وهب بن عمير) فأمنه رسول الله - ﷺ - وبعث إليه مع وهب بن عمير بردائه أو ببردته أمانًا له .

فلما رآه عاد مع عمير ، ووقف على النبى - ﷺ - وناداه فى جماعة من الناس :
- يا محمد ، إن وهب بن عمير يزعم أنك أمتنى على أن أسير شهرين .
فقال النبى - ﷺ - « انزل أبا وهب » .

قال : لا ، حتى تبين لى .

فقال - ﷺ - : « انزل ، فلك مسير أربعة أشهر » .

وخرج مع النبى - ﷺ - إلى حنين ، واستعاره رسول الله - ﷺ - سلاحًا ، فقال : طوعًا أم كرهًا ؟
قال - ﷺ - :

- « بل طوعًا ، عارية مضمونة » ، فأعاره .

وأعطاه النبى - ﷺ - من الغنائم يوم حنين فأكثر ، فقال صفوان : أشهد بالله ما طابت بهذا إلا نفس نبى ، فأسلم وأقام بمكة .

ولما سمع أنه : لا إسلام لمن لا يهاجر ، اتجه إلى المدينة ، وسأل رسول الله - ﷺ - عن ذلك فقال : « لا هجرة بعد الفتح » فرجع إلى مكة .
فهل تعلمنا من ذلك أن ديننا لم ينتشر إلا بمكارم الأخلاق ؟!

إسلام ضمام بن ثعلبة :

إذا أردنا أن نبين للناس مبادئ الدين الأساسية ، وأركانه التى قال فيها الإمام (ابن أبى جمرة) : من أداها دخل الجنة ، وذلك فى الجزء الأول من كتابه « بهجة النفوس » قال كثير من الناس : إنكم بذلك تضعفون الهمة ، وتدعون الناس إلى الكسل ، وعدم تعظيم الشعائر ، هناك عدد غير قليل من الدعاة جل حديثهم عن

قيام الليل وسائر السنن ، وهذا جميل والله لو كان في كنف العلم الصحيح والدعوة إلى الأركان ، ما قام الليل كله من لم يصل العشاء ، وما قرأ آية واحدة من كتاب الله من ظل طوال الليل يتلو كتاب الله ، ثم نام عن صلاة الفجر .

وصح لسان من دعا إلى قيام الليل أمة من الناس لا عمل لهم بالنهار ، ومن هم هؤلاء ، وكيف يعيشون ؟ إن من يسر هذا الدين أنه دعا إلى الفرائض وجملها بالسنن ، والإسلام الذي عرفه الصحابة توحيد ، وصلاة مكتوبة ، وصوم رمضان وزكاة معروفة وحج مرة واحدة في العمر على من استطاع إليه سبيلاً ، ثم اشتملت هذه الأركان على بناء شخصية : تبنى وتعمر ، وتصدق ولا تكذب ، وتعين ولا تفت في العضد ، شخصية تتحرى الحق لتتأى بنفسها ومن حولها عن الفتن ، وما تقرب عبد إلى الله - ﷻ - بشيء هو أحب إليه تعالى مما كتبه عليه وكلفه به ، ثم تتوالى السنن .

إن غياب هذا المنهج عن كثير من فلاسفة اليوم ، سوف يؤدي إلى مصائب كثيرة؛ فلا بد من الحديث عن الأركان قبل الحديث عن النوافل .

أحد بني سعد بن بكر السعدي في قصة إسلامه قال ابن عبد البر (2/305) سأله (أى رسول الله ﷺ) فأسلم ، ثم رجع إلى قومه فأسلموا ، وفي حديثه وصف الإسلام ودعائمه وأنه من أتى بها دخل الجنة .

وهذا الذى نقلته عن أبى عمر - غفر الله له - بيت القصيد ، وقصة إسلام ضمام بن ثعلبة من المعالم التى يجب أن يتنبه إليها المسلمون ، خصوصاً في هذه الأيام التى شاعت فيها فوضى المسائل الخلافية ، والنزاع حول المسح على الخفين ، وستر

قدم المرأة فى الصلاة ، وخروجها بالعطر ، وغيره ، وتكفير الناس بالباطل ... وغير ذلك من الأمور التى يرى العقلاء من الناس من أهل العلم أن الكلام فى هذه المسائل ، خصوصاً أيام الأزمات التى تعانى منها الأمة من سوء الفكر وضعف العقل والبعد عن روح الفقه .

لقد سأل ضمام بن ثعلبة رسول الله - ﷺ - عن الإسلام ، فذكر أركانه : الشهادتان ، والصلوات الخمس ، وصيام رمضان والزكاة والحج ، وحديثه فى البخارى وغيره .

وأخذ ضمام يسأل النبى - ﷺ - هل على غير ذلك ؟ والنبى - ﷺ - .

يقول له : « لا ، إلا أن تطوع » .

فما كان منه إلا أن قال له : لا أزيد ولا أنقص ، ثم انصرف إلى بعيده ، فقال رسول الله - ﷺ - : « إن يصدق ذو العقيصتين يدخل الجنة » .

والشاهد كما ذكرت فى أن الدين يسر ، وأن الالتزام بفرائضه يدخل الجنة التى هى دندنة كل مدندن .

وليس فى ذلك من شبهة فى رفض السنة ، والتكاسل فى أداء النوافل ، وإنما معناه : أن غياب المنهج والحديث الطويل فى النوافل وإهمال الأركان من سوء النظر فى دين الله الحنيف .

إن رجلاً يسكن فى مدينة شبين القناطر ، ويعمل بالقاهرة ، يصلى الفجر وينطلق إلى القاهرة قبل أن تطلع الشمس ، ثم يعود فى الواحدة صباحاً كيف تخاطبه بقيام الليل ، وكيف تصور له أن من لم يقيم الليل فلا إسلام عنده ، ولا خير فيه .

إنه مهدود القوى والحيل ، وقد عمل وكفى نفسه وأهله ذل الفقر ومهانة السؤال ، إن مثل هذا الرجل يجب أن يجد منبراً يقول له : أنت على هدى مستقيم إن شاء الله ، وما دمت تؤدي أركان دينك ، وتعمل بشرف وأمانة ، فالله تعالى يحبك ورسول الله - ﷺ - .

إسلام خالد بن عقبة :

لم يذكر له النبي - ﷺ - شيئاً عن اللحية ، ولا عن السواك ، ولا عن تقصير الثوب ، ولا أن يردد كل يوم ألف مرة (لا حول ولا قوة إلا بالله) ، ولا أن يضع الحبة السوداء في طعامه ، ولا أن يذبح عقيقة عن ولده ، ولا أن يقول لكل أخ يقابله (جزاك الله خيراً) ، ولا أن يقطع كلامه بـ « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » ، ولا بصيام ثلاثة أيام من كل شهر ، ولا ستة من شوال ، وإنما قرأ عليه قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾⁽¹⁾ وأعادها عليه ، فأسلم .

وجميع ما ذكرت من أطيب الأعمال ، ومن أحب السنن إلى نفس كل مسلم يحب رسول الله - ﷺ - ولكن أى أثر لها ، والمرء ظالم قاطع مسيء ، لا يعاشر ، ولا يؤلف ولا يأتلف ، عبوس ، إن نظرت إليه شعرت بأنك في عينيه من أهل النار ، وإن تحدثت إليه شعرت بأن في أذنيه وقراً ، وشر الناس من هجره الناس اتقاء فحشه .

هكذا روى البخارى عن رسول الله - ﷺ - من حديث عائشة ، للدين أيها المسلمون عزائم ، وفي الدين سعة ، فهنيئاً لمن عظم العدل ولو على نفسه ، وأحسن

لمن أساء إليه ، ووصل رحمه وإن قطعوه ، ونأى بنفسه عن الفحشاء والمنكر والبغى واتعظ بغيره حتى لا يحل ما حل به بداره أو قريباً منه يوشك أن ينهى كل أخضر في طريقه .

جاء خالد بن عقبة إلى رسول الله - ﷺ - وقال : اقرأ على القرآن ، فقرأ عليه : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » إلى آخر الآية ؛ فقال له : أعد ، فأعاد ، فقال : والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ، وما هو بقول بشر .

إن ما ذكره هنا (ابن عبد البر) في « الاستيعاب » 16/2 ، 17 ليدل على أن الآية من كتاب الله سبب في إسلام الرجل ، إذا شاء الله تعالى هدايته إلى صراط مستقيم .

ومثل هذه الآية من القول الجامع المانع ، وذلك الدين القيم الذى لا يعرف (الرطرطة) في الدعوة والكلام ، ماذا عندنا أفضل منها في بيان ما جاء به رسول الله - ﷺ - من دعوة تحفظ الحياة ، وتطيب الصلوات بين الأسر والمجتمعات ، تصور حياة قائمة على العدل الذى هو أمر الله ، ومن عزائم الأمور ليس بنافلة ولا سنة ، وإنما هو الواجب بعينه .

وأول العدل التوحيد ، فإن الشرك ظلم عظيم ، وقد قال العلماء : إنما كان الشرك ظلماً عظيماً ؛ لأن المشرك يعدل بالله تعالى غيره ، وهذا لا يتأتى أبداً : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾⁽¹⁾ .

ومن العدل الإنصاف في القضاء ، والعدل بين الأبناء : « اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم » . ولم يرض رسول الله - ﷺ - أن يشهد على ضيعة وهبها أحد أصحابه لولد من أولاده وكان عنده غيره وقال : لا أشهد على جور .

والعدل في القول ، قال الله - تعالى - : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾⁽¹⁾ .

والله تعالى يأمر بالإحسان ، وهو مرتبة قد تكون لها صلة بالعدل ، لكنها شاملة ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾⁽²⁾ .

فالإحسان قيد لإسلام الوجه إلى الله تعالى ، وقد يظن كثير من الناس أنهم يسلمون وجوههم إلى الله والله ، ولكنهم مسيئون ، فكيف يكون هذا الإسلام ؟! إن إسلام الوجه لله دون طاعة الله لا يعد إسلامًا ، إنه كالزواج تحت إيقاف التنفيذ !

وكالعلاقة التي لا تتضح إلا من خلال التسجيل في الأوراق ، لكن لا ثمرة لها ! وقد أمر ربنا - ﷻ - بإيتاء ذى القربى وصلة الأرحام .

ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، فأى فضيلة قد تركت ! وأى قبيحة لم ينها عنها !

إسلام الحارث بن عقبة .. وعمه : وهب بن قابوس :

سؤال عن الناس يكشف لنا معنى قوله - تعالى - : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ﴾⁽³⁾ .

(1) سورة الأنعام : 152 .

(2) سورة لقمان : 22 .

(3) سورة البقرة : 13 .

ما الناس إلا المؤمنون ، وإن رأى شوقى أن الناس هم الشعراء ، والشعراء من رزقوا قلوبًا شاعرة ، تحس بالآخرين ، وتنعطف عليهم انعطاف الغصن على الغصن ، والفرع على الفرع ، فإذا بأطياب الربا وأطياf الآفاق أمة شاعرة ، ونحن لا ندرى ، إنها من فوق رءوسنا تنطق بالحياة ونحن نأبى أن نراها .

سؤال عن الناس ، فلما كان الجواب : ذهبوا إلى الجهاد ، انطلق الرجل وعمه ، أو العم وابن أخيه إلى حيث انطلق الناس ، فما قيمة الحياة ، وقد غابوا وما لذة الإقامة وقد ظعنوا !

وما معنى الوجود وقد خلا من وجودهم ، وهم الأمناء الأوفياء الأرقاء ، وإذا كان الواحد منهم يتمثل حين يموت صاحبه بقول القائل :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجر

فما مغزى تلك الحياة وقد ذهبوا جميعًا ؟!

لقد عرف (الحارث بن عقبة ووهب بن قابوس) أن الإسلام أمة أمينة في البيع والشراء وسائر المعاملات .

يذكرنى إسلام هذين الرجلين بما قالته (هند بنت عتبة) للنبي - ﷺ - عند البيعة التي جاء فيها : ولا تزني ، قال الله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾⁽¹⁾ .

(1) سورة الممتحنة : 12 .

فقلت هند : أوترزنى الحرة يا رسول الله ؟!

يعنى أن الزنا يتناقض وشعور الحرة ، التى لا ترضى أن تكون فراش رجل يدنس شرفها ، ويهتك عرضها ، ويخسف بوجودها ، ويحط قدرها ووزنها ، فلو لم يكن الزنا محرماً فى الشريعة لكان محرماً فى شعور الحرائر اللاتى لا يرضين بالسفاح ، ولا يقبلن الدناءة .

لقد كان الحارث بن عتبة بن قابوس وعمه وهب بن قابوس قادمين إلى المدينة بغنم لهما ، فإذا المدينة خالية ، أو شبه خالية ، فسألا :

- أين الناس ؟

وكان الذى سألاه طفل أو امرأة ، أو رجل معذور ، أو منافق تخلف ، فكان

الجواب :

- بأحد ، يقاتلون المشركين .

فأسلما ، ثم خرجا ، فأتيا النبى - ﷺ - فقاتلا المشركين قتالاً شديداً ، ثم استشهدا رحمة الله عليهما .

ذكر الواقدي الرجلين فى شهداء أحد ، فقال فى ص 301 : « ومن مُزَيِّنَةٍ¹ رجلان : وهب بن قابوس وابن أخيه الحارث بن عتبة بن قابوس » .

وذكرهما ابن الأثير فى أسد الغابة 1/ 438 ترجمة رقم (932) .

إن هذا الإحساس الذى دب فى قلب العم وابن أخيه أشبه بالإحساس الذى دب فى قلوب الأنصار حين رأوا رسول الله - ﷺ - يعمل فى بناء حجراته ، فأقبلوا إليه قائلين :

(1) مزينة : قبيلة معروفة .

لئن قعدنا والنبى يعمل لذاك منا العمل المضلل

وأنا أتصور أن هذين الرجلين اللذين هبطا من جبل مزينة كما قال ابن عبد البر فى الاستيعاب فى الاستيعاب 1/ 361 - بغنم لهما كانا يريدان سوق المدينة؛ لأن الوقت لم يكن وقت رواح بغنم ، وإنما كان ذلك صباحاً ، يوم السبت من شوال حيث كانت غزوة أحد ، ونحن نعلم أن النبى والمسلمين عادوا برغم القرح فى اليوم نفسه ، وقد خرجوا يوم الأحد وقد نهى النبى - ﷺ - عن خروج رجل لم يخرج بالأمس ، وذلك لمتابعة المشركين ، إظهاراً لقوة المسلمين ، ومطاردة للمشركين الذين يتصور أن يهجموا على المدينة للقضاء المبرم على الدعوة وأتباعها .

ومن الذى أتصوره : أنها عاملاً المسلمين وعرفاً حسن الخلق ، وكان الإسلام فى حياتهما ، وكانا فى الطريق إليه ، وقد جاءت اللحظة التى يجب فيها إعلانهما إسلامهما ، وهى لحظة شريفة يعرفها النبلاء ، وأصحاب الفطرة السليمة .

إسلام مقرون بجهد ، بدأ الرجلان بالقمة قمة جبل مزينة ، فإذا بهما يصعدان قمة المعانى مثلما هبطا من قمة المعالى ، فراحا مسلمين إلى ميدان الجهاد ، ليحصلوا على الشهادة : أعلى ما يرجوه مسلم حر ، ورسم القدر لهما المسار والغاية !

أصبحا فى صحبة غنم ، وأمسيا فى رحاب ولى النعم يرزقون ويفرحون . (رضى الله عنهما) .

تلك اللحظة المناسبة التى تذكرنى برجل حدث بينه وبين أخيه شىء ، وطلب إليه أن يصالحه ، فقال : فى النية إن شاء الله ذلك ، فلما سئل :

- متى هو ؟

قال :

- يوم الجمعة .

وسمع أن ابن أخيه جرح ، وكان ذلك يوم الثلاثاء فبادر إليه ، ليسأل عنه ويطمئن عليه ، وفي الجلسة صالح أخاه ، ولم ينتظر إلى يوم الجمعة ، فما الداعي إلى التأجيل ؟!

إسلام الحارث بن سويد المخزومي :

ذلة كانت من امرأة ، كادت أن تودي بحياة زوجها - ، وكان الفرار ، وظلت في بيت أهلها تظن الظنون ، ما عساه أن يفعل بها ، كان الطلاق أيسر احتمال ، لكنها كانت تستبعده فالقتل هو الجزاء ، هكذا قالت في نفسها وتوقع أهلها ، كانت تحمل طفلة منه بين ذراعيها ، رضيعة صغيرة لم تنطق ولم تُبْن ، كانت تحدثها : ترى ماذا سيفعل أبوك بنا ؟ وكأن طفلتها كانت شريكها في جريمتها ، وكان أهل الزوج كغيرهم من العقلاء يقولون له : طلق ، واسترح ، واحتسب .

وفي جنح الليل ، ذهب إلى بيت زوجته ، واحتضن طفلته ، وقبلها ، ونظر إلى زوجته وقال : هيا بنا ، فقامت وكأنها في حلم ومشيت وراءه ، فصحبها وانطلق إلى المدينة ، وقد أعد فيها بيتاً جديداً لم يعرفه أحد ، وعاش حياة جديدة بلا عتاب ، ولا تأنيب ، ولا شقاق لم تفتح فمها بكلمة اعتذار ، ولكن فتحت قلبها بكل الرياحين والأزهار ، تلك القصة من واقع عرفته لا من خيال ، وهى تمثل إسلام الحارث ابن سويد المخزومي الذى ارتد عن الإسلام ، وأراد العودة إليه ، فوجد كل الأبواب مفتحة ، ذلكم هو الدين الذى لن يشاده أحد إلا غلبه .

لقد أسلم هذا الرجل ، لكنه ارتد عن الإسلام ، ولحق بالكفار ، قصته في سطر !

لكنها لم تنته ، ولم يسدل عليها الستار ، فقد نزل قول الله - تعالى - من سورة آل عمران : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٢٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا تُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٩﴾ .

وطار بهذه الآيات رجل من المسلمين وقرأها عليه ، فقال له : والله إنى لأعرف أنك صدوق ، وإن الله لأصدق الصادقين ، قال ابن عبد البر (1 / 363) : فرجع وأسلم ، وحسن إسلامه .

وجاء التعبير بـ « رجل » أى أن الذى حمل هذه الآيات إلى الحارث بن سويد لم يكن علماً معروفاً ، وهو بلا شك علم في قيامه بتلك المهمة التى تكشف لنا عن أبعاد في الشخصية المسلمة ، إنه بعد حب الخير لمن تقلب قلبه ، وحاد عن الطريق ، وانضم إلى صفوف الكاذبين .

لم يقل هذا الرجل : لقد كفر الحارث بن سويد المخزومي لعنة الله عليه والملائكة والناس أجمعين خالداً فيها ، لم يتر الآيات ، لم يقصها ، لم يقف على صدرها دون عجزها ، وإنما قرأها كاملة ، وحمل على كاهله أمانة تبليغها ، ما الذى يمنع ؟

(1) سورة آل عمران : 86 - 89 .

ليس من الجائز، أن يثوب ويرجع .

وكان على علم بصاحبه الذى أقسم له أنه صدوق ، وأنه لن يبلغه كذباً ، ومن ثم تاب ورجع .

هناك دعوة تبشر التائبين بعفو الله ومغفرته ورضوانه ، ولا بد لها من مبلغ ، يثأر أريجها في صحراء النفوس التى قد تتصحر فجأة ، لكنها قابلة للماء والإنبات ، وقد حمل هذا الرجل الماء ونقله إلى صاحبه ، فإذا به يرجع عن كفره ، ويسلم ، ويحسن إسلامه الذى كان فتح باب التوبة سبباً فيه !

إسلام الحارث بن هشام المخزومى :

شقيق أبى جهل ، وشتان ما بين قلب قسا فكان كالحجارة أو أشد قسوة ، وبين قلب نحا إلى امرأة مسلمة يستجير بها ويحتمى ، فإذا به يجد عندها الأمان .
كان أخوها مصرّاً على قتله ، فكان لزاماً عليها أن تذهب إلى رسول الله - ﷺ - فإليه مرد الخلاف ، وهو الذى من حقه أن يقول ؛ لأنه المبلغ عن الله - ﷻ - الحامل رسالته إلى عباده ، وإذا به - ﷺ - يقول لها : « أجرين من أجرت يا أم هانئ » وصارت هذه الجملة النبوية دليل الفقهاء على إمضاء أمان المرأة ، فالمسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد واحدة على مَنْ سواهم .

ذلكم الإسلام الذى لم ينظر إلى المرأة على أنها مصدر فتنة ، ولا على أنها جثة تثير الرغبة فى الجنس ، وإنما هو الإسلام الذى عرف قدرها ، ووقر حرمتها ، وصان كرامتها ، وأخذ برأيها وأمضى أمانها ؛ لأنه معنى يشترك فى إثباته الرجال والنساء على سواء .

إنه شقيق أبى جهل ، شهد بدرًا وهو كافر ، وفر منها ، وشهد أحدًا كافرًا ، وأسلم ، وقصة إسلامه عام الفتح : أن عليًا - ﷺ - أراد قتله ، فاحتفى بأم هانئ بنت أبى طالب ، فأمنت ، وحاول على أن يغلبها عليه ، فدخل النبى - ﷺ - منزلها ذلك الوقت فقالت :

يا رسول الله ، ألا ترى إلى ابن أُمى يريد قتل رجل أجرته ؟

فقال النبى - ﷺ - : « قد أجرنا مَنْ أجرت يا أم هانئ ، وأما مَنْ أمنت » ، فأمنه .

إن رجلاً يرى ذلك كيف يبقى على كفره ! إنه دين من أصوله وقواعده أن المسلمين تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم . يحير النبى - ﷺ - مَنْ أجارت امرأة لا يخزيها ، ولا يقللها ، ولا يستخف بأمرها . لقد قال النبى - ﷺ - يوم الفتح : مَنْ دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، أعطاه شيئاً يحبه ، فهو رجل يحب الفخر ، لكنه لم يعطه ما لا يعطيه لغيره ، فقد قال أيضًا : من دخل داره فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

فأى فرق بين دار أبى سفيان ، ودار أى أحد ، إن إشاعة الأمان ، سبب الإسلام ، فلقد فتح النبى - ﷺ - مكة وهو ظافر منتصر بفضل الله - تعالى - وتأنيده ، وكانت الجيوش حوله مما لا قبل للمشركين به .

ولما قال سعد بن عباد - ﷺ - : اليوم يوم الملحمة ، وكان يحمل الراية أخذها منه - ﷺ - وقال : « اليوم يوم الرحمة » .

إنه يوم الرحمة ، وإنها الرحمة التى تجلت آياتها عيانًا ، فالقدرة على الانتقام وسفك الدماء فى أعلى مستوياتها ، والعفو مع القدرة آية من آيات النبوة ، ودليل

دامغ على أن هذا الأمر حق ، فلو كان محمد - ﷺ - يريد ملكاً لقضى على الأخضر واليابس من أجل الوصول إليه ، إنه اليوم حوله الألف المؤلفة التي تمتثل لأمره ، وبإشارة من يده تصبح مكة بمشركيها كومة من تراب ، لكنه الرحمة المهداة التي بعثها الله تعالى تبني ولا تخرب ، وترفع ولا تهدم ، وتحبى ولا تميت .

لقد أسلم الحارث بن هشام المخزومي وحسن إسلامه ، وشهد حيناً مع النبي - ﷺ - .

وقد مضى مجاهداً ، ومات شهيداً ، وحين خرج من مكة بكاه المطعمون وكان رجلاً في الجاهلية يطعم الطعام ، وتزوج عمر امرأته (فاطمة بنت الوليد بن المغيرة) بعده .

ومما رواه عنه ابنه عبد الرحمن بن الحارث أنه سأل رسول الله - ﷺ - عن شيء يعتصم به ، فقال له : « أملك عليك هذا » وأشار إلى لسانه ، قال : فرأيت ذلك يسيراً قال عبد الرحمن : فرأيت أن ذلك شيء يسير ، وكنت رجلاً قليل الكلام ، ولم أفطن له ، فلما رمته فإذا لا شيء أشد منه .

أى لا شيء أشد من ملك اللسان ، الذى هو شهوة متدفقة ، لا يقوى عليها إلا مَنْ آمن وصدق بأنه لا يكب الناس فى النار إلاّ حصائد ألسنتهم ، وأنه ما من عبد يملك ما بين فكيه ، وما بين فخذه إلاّ ضمن له رسول الله - ﷺ - الجنة وهو مسلم مقيم الصلاة مؤتى الزكاة ، صائم رمضان حاج بيت الله إن استطاع إليه سبيلاً ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، واصلاً ما أمر الله به أن يوصل .

إسلام حصين بن عبيد الخزاعى :

تعدد حولك الأشياء ، وإذا تفكرت وجدت بلا شك تفاوتاً بينها ، وقد يغنيك هذا التفكير عن الاحتفاظ بالكثير منها ، والإبقاء على ما حاجتك إليه أشد ؛ لأنه أكثر لك نفعاً من غيره .

فما بالك ولا شيء ينفعك منها جميعاً إلاّ شيئاً واحداً ، فعلام احتفاظك بما لا ينفعك ؟! وعلام دعاؤك من لا يستجيب لك ؟!

يقولون : المريض أشبه بالغريق الذى يبحث عن قشة - دفاعاً عنه - حين يذهب إلى الطبيب ، وإلى الدجال فى آن واحد ، أو حين يهجر الطبيب الذى تأخر علاجه بالكلية إلى الدجال الذى يصف له ما لم ينزل الله به من سلطان ، وليس هذا صحيحاً ، فما من سبيل إلى العلاج إلاّ الطبيب مع التوكل على الله وإخلاص الدعاء والتوسل إليه - ﷻ - بصالح الأعمال .

لقد كان حصين بن عبيد الخزاعى يعبد عشرة آلهة ، سأله النبي - ﷺ - عنها ، وكان الجواب الذى سوف نرى :

كلها لا تنفع ولا تضر ، إلاّ الله الذى فى السماء ، فأى عقل ينادى بعبادتها ، ووجودها كالعدم ، إلاّ أنه وجود يؤدى إلى النار !

روى ابن عبد البر فى الاستيعاب 1/ 408 ، 409 قصة إسلامه عن الحسن البصرى أن النبي - ﷺ - قال له :

- يا حصين ، ما تعبد ؟

قال : أعبد عشرة آلهة .

- قال : وما هم ؟

قال : تسعة في الأرض وواحد في السماء !

- قال : فمن لحاجتك ؟

قال : الذى فى السماء .

- قال : فمن لطيلتك ؟

قال : الذى فى السماء .

- قال : فمن لكذا ؟ فمن لكذا ؟

كل ذلك يقول : الذى فى السماء !

قال - ﷺ - : فألغ التسعة !

حوار هادئ مقنع ، لا عوج فيه ولا تكلف ، إنه حوار العقل ، الذى لا شطط

فيه .

فمن يملك السمع والأبصار ؟

ومن بيده الضر والنفع ؟

وهذا خطاب القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله - وَجِبَلَك - :

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۚ اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ ۚ

﴿ ٥١ ۝ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ

حَدَائِقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۚ اللَّهُ مَعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ

قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝ ٥٢ ۝ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ

وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۚ اللَّهُ مَعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ ٥٣ ۝ أَمَّنْ

يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۚ اللَّهُ مَعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿ ٥٤ ۝ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ

الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ اللَّهُ مَعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿ ٥٥ ۝ أَمَّنْ يَبْدُو أَلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ اللَّهُ مَعَ اللَّهِ ۚ قُلْ

هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿ ٥٦ ۝ ١ ۝

١ ۝ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿ ٥٦ ۝ ١ ۝

إسلام أسلم الحبشى الأسود :

قال لى أحد الفلاحين الأعزاء : لقد سمعت عن شيخ ذى مواهب وكرامات ،

ووددت لو طرت إليه ، اشتقت إليه ، وصار حديث نفسى فى يقظتى ومنامى ، ولما

حدثنى بعض الناس أنه متجه لزيارته ناشدته بالله والرحم والأحياء والأموات

وكل عزيز غال أن يصحبنى إليه ، على أن أكون خادمه ، ورفيقه الذى لن يندم على

صحبتة أبداً ، ووافق الرجل ، وصرت معه أمل أن أرى وجه القمر الذى أثر أن

يسكن فى جبين بشر ، فلما وصلنا إلى مكان ، دخلنا غرفة فيها شىء جالس حوله

الناس ، فجلست حيث جلس صاحبى ، وكان هذا الشىء هو الشيخ وأنا لا أدرى ،

فقد طال انتظارى قدوم الشيخ من بعيد حتى قلت لصاحبى :

- أين الشيخ ؟

فأجابنى : ذلك الذى يتصدر المجلس كالبدن .

فوليت منصرفاً ، وما شعر بى الشيخ المزعوم ، وما شعرت به .

وخلاصة هذه القصة : هى سبب إسلام أسلم الحبشى الأسود ، فقد كان من الذين قال الله فيهم : ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعِشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ۖ ﴾¹ . عرف أسلم الإسلام ديناً يعرض على الفقراء كما يعرض على الأغنياء .

قصة إسلام عجيبة ، تأخذ بالقلب وتؤجج الوجدان ، فقد كان أسلم الحبشى الأسود مملوكاً (لعامر) اليهودى يرعى غنماً له ، وقد عاد بالغنم ، وربما كانت الواحدة منها ذات قيمة تعلقو على قيمته عند سيده ، وإن كان يباع بأكثر من ثمنها جميعاً .

عاد مساءً ، فإذا بالنبي - ﷺ - محاصر بعض حصون خيبر ، فأتى النبي - ﷺ - وقال له : اعرض على الإسلام .

قال (ابن عبد البر) فى « الاستيعاب » 1/ 178 : « وكان رسول الله - ﷺ - لا يحقر أحداً يدعوه إلى الإسلام ويعرضه عليه » .

وهذا بيت القصيد ، وقصة الإسلام : لقد عرض النبي - ﷺ - الإسلام كما عرضه من قبل على كبار السادة من قريش ، وعلى الملوك والرؤساء .

نعم ، هذا الذى أسلم بسببه أسلم الحبشى لقد وجد نفسه كما نقول بين يدي رسول الله - ﷺ - شعر بوجوده ، وأحس بقيمته ، وأدرك أن محمداً رسول من الله ، يجالس عباد الله ، وأن الله تعالى قال له : ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ

بِالْغَدْوَةِ وَالْعِشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ۖ ﴾¹ .

ومن أول لحظة أحس أسلم الحبشى بالانفصال عن الشرك والمشركين ، ولكن ماذا يفعل بالغنم ؟

أهى النهبة التى فى اليد ، وهو أحق بها من صاحبها اليهودى ؟

أم أنها الأمانة التى يجب أداؤها إلى صاحبها ؟

سأل النبي - ﷺ - فأمره بأن يضرب وجوهها لتعود إلى صاحبها وقد كان ، فأخذ حفنة من حصا فرمى بها فى وجوهها وقال لها : ارجعى إلى صاحبك ، فوالله لا أصحبك أبداً ، فخرجت مجتمعة كأن سائقاً يسوقها حتى دخلت الحصن .

ثم تقدم - ﷺ - إلى الحصن ، فقاتل مع المسلمين فأصابه حجر فقتله ، وما صلى الله تعالى صلاة قط ، فأتى به إلى رسول الله - ﷺ - وقد سُجِّى بشملة كانت عليه ، فالتفت إليه رسول الله - ﷺ - ومعه نفر من أصحابه ، ثم أعرض عنه ، فقالوا يا رسول الله : لم أعرضت عنه ؟ فقال : إن معه الآن زوجته من الحور العين .

إن بعض الناس ممن يحمل شهادات قد تكون فى أصول الدين لينفرون من بسطاء الناس ، ويعاملونهم معاملة سيئة ، وهم يحفظون قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۖ ﴾² .

إِنَّ مِمَّا أَلْفَ بَيْنَ النَّاسِ ، شعورهم بتواضع رسول الله - ﷺ - وأنه يعرض الإسلام عليهم بلا فرق بين عظيم وفقير ، ومملك وسوقة .

ونحن ما زلنا ننصح للأغنياء باهتمام ووقار ، وعناية ، ونجيب عن أسئلة الفقراء باستخفاف وعدم عناية ، وكأننا أصحاب فنادق ومطاعم ، إذا أقبل نحوهم أحد الباشاوات رحبوا به واهتموا بأمره .

وإذا أقبل عليهم مسكين قالوا : لقد أخطأ الطريق ، ماذا يريد ؟

وقاموا إليه يصرفونه بلقمة أو بربع الجنيه ، ليحل عن سرائهم ، ويقلع عن أرضهم ، اللهم إلا إذا أبرز لهم الدولارات ، فعرفوا أنه ممن يحسبهم الناس فقراء وهم أغني الأغنياء .

عندئذ يسيل لعابهم ، ويغيرون لهجتهم قائلين :

مَنْ لَمْ يَعْرِفْكَ يَجْهَلُكَ .

يا مرحباً .

والعلماء ورثة الأنبياء ، وهل ورثوا عنهم شيئاً إلا العلم ! والعلم أمانة ، وقد قال النبي - ﷺ - : « لعل حين وجهه إلى اليمن : » ولأن يهدي الله بك رجلاً خير مما طلعت عليه الشمس . ولم يقل غنياً أو عظيماً !

إسلام الأحنف بن قليس :

كلمات غالية ، ليست من نافلة القول ، ولا من بلاغة المتحدث ، ولا من وادي الإنشاء وطيب الحديث ، ولكنها تصوير حقيقة الإسلام ، أنه ما حسن إلا حسناً ، كم هي قليلة المبنى ولكنها عظيمة المعنى .

أى شىء جاء به الإسلام يخالف الحسن الذى تستحسنه الطباع السليمة والنفوس السوية .

مَنْ ذَا الَّذِى يَقُولُ فِي حَسَنِ الْجَوَارِ وَالسُّؤَالِ عَنِ الْجَارِ . والإحسان إليه وغفران ذلته ، والعفو عنه ، وقبول عذره ، وعدم سد الهواء والضياء عنه : إن ذلك ليس حسناً ؟!

ومن ذا الذى يقول : إن إطعام الطعام ليس حسناً ؟

ومن الذى يقول : إن إجابة ذى الحاجة الملهوف ليست من الحسن !

ومن ذا الذى يقول : إن الوفاء ليس من الحسن !

ومن ذا الذى يقول : إن إمطة الأذى عن الطريق ليست من الحسن !

ومن الذى يقول : إن بر الوالدين والعطف على الصغار والرحمة بهم ، ليس من الحسن !

لقد سمع الأحنف الحكيم السيد دعوة الإسلام ، فلخصها لقومه بقوله : « ما حسن إلا حسناً » .

فدعا له النبي - ﷺ - بالرحمة ، فكانت هذه الدعوة أرجى أعماله .

وهذه الخلاصة التى ذكرها الأحنف بن قيس ، ستظل متى عدنا إليها مفتاح كل تطور واختراع ، ومفتاح انطلاق إلى كل جديد حسن ، ينتفع به الناس ولا إثم فيه ولا ضرر .

اسمه : (الضحاك بن قيس بن معاوية بن حصين) ، وأمه من باهلة . أدرك النبي - ﷺ - ولم يره ، وأسلم على عهده ، وهو رجل كان معروفاً بأنه سيد قومه ،

وكان يكنى : أبا بحر أسلم لما بلغت الدعوة فاستحسنها ، فكان لعقله وزن ، ولسيادته معنى ، تحدث عن ذلك ، فقال فيما ذكره ابن عبد البر (1/ 230) : « بينها أطوف بالبيت في زمن عثمان - رضي الله عنه - إذ جاء رجل من بنى ليث ، فأخذ بيدي ، فقال : ألا أبشرك ؟ فقلت : بلى ، قال : هل تذكر إذ بعثنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى قومك بنى سعد ، فجعلت أعرض عليهم الإسلام ، وأدعوهم إليه ، فقلت أنت : إنه يدعوكم إلى خير وما حسن إلا حسناً ، فبلغت ذلك إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « اللهم اغفر للأحنف » .

فقال الأحنف : هذا من أرجى عملى عندي .

توفي بالكوفة - رحمه الله - في إمارة (مصعب بن الزين) سنة سبع وستين ، ومشى مصعب في جنازته .

ذلك أبو بحر المعروف بأنه من دهاة العرب الحكماء العقلاء .

وأخباره متفرقة في الكتب خصوصاً كتب الأدب ، وقد وصف بأنه كان قصيراً دميماً ، وقد تعجب بعض الناس : كيف ساد الناس وهو على ما يرى ، وسأله كيف سدت قومك وأنت هكذا ، وقيل كان مع ذلك أعور فأجابه : لتركى ما أنت عليه ؟ فقال الرجل وما ذاك ؟

فقال : تركى ما لا يعنينى .

ومن أخباره : أنه سئل السؤال نفسه ، فأجاب : لعدم مخالفتى قومي ، لو اختلف قومي على الماء ما شربته ، والناس يحبون من يوافقهم ، ولا يحبون من يخالفهم .

إن قول الأحنف بن قيس : ما حسن إلا حسناً ، يدل على جوهر الدين ، فإنه ما حسن إلا حسناً .

إسلام ثمامة بن أثال الحنفي :

« ليس من رأى كمن سمع » ، حكمة قديمة ، لكنها قاعدة العقل ، ومناط الحق ، تسمع من بعيد وما من سبيل إلى ما تبتغي من حق إن كنت طالب حق سوى أن تدنو وتحقق ، وتحكم وتنطلق .

أما أن تسير مع يمانى فتكون يمانياً ، وتسير مع شامى فتكون شامياً ، دون أن تنظر فيمن تتبع ، ولا في أى طريق أمامك تخرج ، فتلك هى أم البلايا .

ذلك كالذى يقرأ فى كتاب لا يدري ما يعنى مؤلفه وما خطته فيه ، وما هدفه الذى ينشده من وراء تأليفه ، كالذى يستعين بالقراءة لكى ينال ، مع أن القراءة سبيل اليقظة لا المنام ، وقد قال الله - تعالى - ليحيى : ﴿ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾⁽¹⁾ .

أذكر أن امرأة خطبها رجل ، فحسدها الناس عليه ، وراح بعضهم ينفذ حسده ، ويحاول أن يقنعها برفضه والبعد عنه وكانت عاقلة ، فتزوجته وسعدت به مثلما سعد بها ، وما وجدت فيه شيئاً من السوء الذى ذكره الناس فيه ، فقالت : عاشرتهم ومثل الطيب شممتهم ، وبيت العز دخلته ، فلا نامت أعين الحاسدين .

وخلاصة هذه القصة ومغزاها هى : سبب إسلام ثمامة الذى رأى من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما رأى مما جذبه إلى دينه .

ذكر (ابن عبد البر) فى « الاستيعاب » (1/ 287) أن ثمامة بن أثال الحنفي سيد أهل اليمامة أسر ، فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم - « ما عندك يا ثمامة ؟ » .

(1) سورة مريم : 12 .

فقال : إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تمنن تمنن على شاكرك ، وإن ترد المال تعط ما شئت ، فغدا عليه يوماً فقال له مثل ذلك : فأسلم ، فأمره النبي - ﷺ - أن يغتسل .

إنَّ ثمامة بن أثال أسلم ، واعتمر ، وقطع الميرة عن قريش حتى كتبوا إلى النبي - ﷺ - يرجونه ويسألونه بالرحم أن يكتب له كيلاً يقطع عنهم الميرة ، فكان .

أسلم ثمامة ؛ لأنه أدرك بنفسه أن النبي - ﷺ - لا يريق دماء الناس ، ولا يمنن لكى يشيع ذكره ومدحه ، فالله تعالى قد مدحه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾¹ .

ولا يسأل النبي - ﷺ - أموال الناس فإن الله - تعالى - قد أغناه .

دين ، لا يريق دم أسير ، ولا يشتهي فداؤه وأخذ ماله ، ولا يرائى أتباعه بمن يجلب الشكر ويشيع مكارم الأخلاق .

ولقد ورد أنَّ ثمامة بن أثال قال حين أسلم : يا رسول الله ، والله لقد قدمت عليك وما على وجه الأرض وجه أبغض إلى من وجهك ، ولا دين أبغض إلى من دينك ، ولا بلد أبغض على من بلدك ، وما أصبح على وجه الأرض وجه أحب إلى من وجهك ، ولا دين أحب إلى من دينك ، ولا بلد أحب إلى من بلدك .

إن هذا التحول هو سر الإيمان وثمرته ، إذا هدى إليه العبد تحول البغض في قلبه حباً ، والعصيان في صدره طاعة ، وكما ورد من قول النبي - ﷺ - : « المؤمن يأكل في معي واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء » .

فحدث التحول في المعدة ، التي كانت بالأمس تحشى بها تحشى به سبعة أمعاء ، يحدث التحول كذلك في القلب .

وكما قال ابن حجر في الفتح في « حديث الأرواح جنود مجندة » : على المسلم إذا سمع بإسلام أحد الكفار وجب عليه أن يحبه .

وأنا أقول : إنَّ المراد بالحب في جميع النصوص في الإسلام مقتضاه ، ومقتضاه : نزع الحقد والحسد والسواد من القلب نحوه ، والعطاء ، فالمسلم ليس بطعان ولا لعان ولا سباب ولا فاسق ولا بذيء ، وهو أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ، وهو يسعى في حاجته ، فمن كان في عون أخيه كان الله في حاجته ، وعونه ، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة .

إننا في حاجة إلى مراجعة إسلام ثمامة ، فقصة إسلامه إنما هى قصة اليوم ، وقصة الغد ، وأعنى بذلك : خلق المسلم ، الذى به يسلم الناس لرب العالمين والله - ﷻ - يقول : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾¹ . فكيف تتحقق هذه الخيرية إن لم يكن المسلم معطاءً ، إذا أحس الناس بوجوده استبشروا وهشوا وفرحوا ، وكأنهم كانوا ينتظرون قدوم الربيع بقدومه ، ونزول الغيث بطلعته .

فإذا شاع بين الناس - خصوصاً غير المسلمين - أن المسلم إرهابى ، وأنه دموى ، وأنه بلا عقل ولا فكر ، وأنه يستحل أموال الناس ، ويكفرهم ، وأنه لا يعامل ولا يعاشر فكيف يحكمون على دينه ؟!

إن الناس لا تفرق بين الدين والمتدين ، ومن ثم كانت أهمية السلوك في حياة الناس ، لقد سأل هرقل عن النبي - ﷺ - كما جاء في حديث البخارى وغيره ، سأل عنه ليدرك أنه هو ، وكان من سؤاله : هل يكذب ؟

فقال أبو سفيان : ما جربنا عليه كذبًا .

وكان من سؤاله : هل يجالس المساكين ؟

وغير ذلك .

إسلام جابر بن سليم :

رجل اهتم بما رأى ، فدنا من المشهد ، وسأل ، وعرف وأعمل عقله فاهتدى ، ورأى الإسلام عطاءً قبل أن يكون أخذًا ، فالله - ﷻ - يحيب الدعاء ، ويسقى الظمان ، وينبت النبات ، ويرد الضالة إلى صاحبها .

وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبَعَهُمْ فِيْءِ إِذْنِهِمْ ﴾⁽¹⁾ .

تأمل قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ ﴾⁽²⁾ .

إنها الدعوة إلى نيل الخير ، وسحائب الجود والكرم ، إن ربنا تعالى ينادى كل ليلة عباده : « هل من سائل فأعطيه ، هل من مستغفر فأغفر له » ..

نداء يتجدد ما تجدد الليل ، في السحر ، قم واسأل يجب الله حاجتك ، قم واستغفر يغفر الله لك ، فلما دخل الإسلام قلب جابر بن سليم سأل كما يسأل الناس رسول الله - ﷺ - العلم ، فماذا كان الجواب .

ذلك ما نراه ، ولعلنا نتعلم منه .

(1) سورة نوح : 7 .

(2) المصدر السابق نفسه .

جابر بن سليم التميمي يحدثنا عن إسلامه فيقول :

رأيت رجلاً والناس يصُدُّون عن رأيه ، فقلت : لا إله إلا الله ، مَنْ هذا ؟

ف قيل : رسول الله - ﷺ - فأتيته فقلت : عليك السلام يا رسول الله .

فقال : « عليك السلام تحية الموتى ، ولكن قل : السلام عليك يا رسول الله » ؛

فقلت : السلام عليك يا رسول الله ، أنت رسول الله ؟

قال : « نعم ، أنا رسول الله الذي إذا دعوته أجابك ، وإذا أصابتك سنة دعوتك فسقاك ، وأنت لك ، وإذا كنت في أرض فلاة فضلت راحلتك دعوتك فردّها عليك » .

قال : قلت : يا رسول الله ، علمني مما علمك الله .

قال : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولو أن تكلم أخاك ووجهك إليه منبسط ، ولو أن تُفرغ من دلوك في إناء المستسقي ، وإذا عيرك رجل بأمر يعلمه فيك فلا تعيره بأمر تعلمه فيه ، فيكون وبال ذلك عليك ، وإياك وإسبال الإزار فإنها مخيلة ، والله لا يحب المخيلة ، ولا تسبن أحداً » .

قال جابر بن سليم : فما سببت أحداً بغيراً ولا شاة ولا إنساناً .

إنك حين تتأمل قصة الإسلام هنا ، تجد أن السر فيها مرجعه إلى ما قاله الأحنف بن قيس : ما حسن إلا حسناً ، إنها الدعوة الواردة في قول الله - تعالى - : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾⁽¹⁾ .

انظر إلى ما سمعه جابر بن سليم أول ما لقي رسول الله - ﷺ - .

(1) سورة النحل : 125 .

لقد فرّق له بين تحية الموتى وتحية الأحياء ودعوته - ﷺ - دعوة إلى الحياة ، وهذه إشارة يجب أن نقف على ما وراءها من معانٍ ، منها : ما جاء في الدعوة إلى الله ، التي هي دعوة إلى الحياة ، سبيكة من المعاني تتلأل في درر الألفاظ .

نعم ، أنا رسول الله الذي إذا دعوته أجابك ، أي قلب يسمع هذه العبارة فلا يتأثر ، وأي شريان ينبض في رياضها فلا يشدو : الله الله ؟!

لم يقل له : نعم أنا رسول الله الذي يدخلك النار ، ولا أنا رسول الله الذي مهمها دعوته فلن يستجيب لك .

لقد قال العلماء : إن الله تعالى يجيب دعوة المظلوم ولو كان كافراً .

فانظر كيف كان الظلم في نظر الإسلام منهياً عنه - منفراً منه إلى هذا الحد الذي قد يجلب الوباء والويل على المسلم إذا ظلم كافراً ، وهو يتوهم أن ظلمه حلال ، إن الظلم كله حرام .

لقد أقبل جابر بن سليم الهجيمي التميمي على الله الذي يجيب الداعي إذا دعاه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾⁽¹⁾ .

وأقبل على الله تعالى الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته .

وأقبل على الله تعالى الذي يرد عليه راحلته إن فقدتها في فلاة .

إن درس الحب هو قصة الإسلام ، فما بال بعض الدعاة ينأون عن هذا المنهج ؛ رغبة عن الترغيب وشهوة في الترهيب .

ولنا أن ننظر في درس العلم الذي تلا درس الإيمان المبني على الحب .

ما الذي علمه إياه رسول الله - ﷺ - ؟

لقد علمه :

• ألا يحتقر من المعروف شيئاً ، ولو أن يكلم أخاه ووجهه إليه منبسط ، ولو بجرعة ماء .

• وألاً يعير أخاه ، أو رجلاً بما يعلم عنه يرد به على ما عيره به أولاً ، فهذا الدين الخفيف لا يعرف المثل الشائع : « لا تعارني ولا عايرك ذا الهم طايلى وطايلىك » . وإنما يعرف ما أنزل الله تعالى : ﴿ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾⁽¹⁾ .

• وألاً يختال على الناس بجر ثوبه ، لأن الله تعالى لا يحب المخيلة .

• وألاً يسب أحداً ، فالمسلم ليس بسبّاب ، ولا لعان ، إن هذا الخلق يقبله من له نظر سليم ، وفكر مستقيم ، وقلب حيّ .

وقد تجلّى ذلك في جابر بن سليم ، حيث قال : فما سببت أحداً : بعيراً ولا شاة ولا إنساناً .

إسلام جابر بن سلمى الكلابي :

نوع من الجهاد لم يلتفت إليه كثير من الناس ، وصنف بديع من الدعوة إلى الإسلام لا يعرفه أكثر الناس ؛ لأنه صنف عزيز مكلف ، لا كتاب فيه ولا قراءة ، ولا خطب منبرية ولا أشرطة ، إنه جهاد سلوك حيّ ، يراه غير المسلمين فإذا بهم بسببه يسلمون ، مثلما انتشر الإسلام في بلاد كثيرة في آسيا وأوروبا ، تجار ورجال أعمال من المسلمين اتجهوا إلى تلك البلاد فعمروها ، وحفروا بها الأنهار وغرسوا فيها الأشجار ، وصنعوا الخير للناس فسأل الناس : مَنْ أنتم ؟

فقالوا : نحن مسلمون .

فأسلموا .

وجبار بن سُلمى الكلابي شاهد مسلمًا في موقف فأسلم ، فمن هذا المسلم ؟ وما هذا الموقف .

(جبار بن سُلمى بن مالك بن جعفر بن كلاب الكلابي) .

يحدثنا عن سبب إسلامه ، فقال : « ما دعاني إلى الإسلام إلا أنني طعنت رجلاً منهم ، فسمعتة يقول : فُزْتُ والله .

قال : فقلت في نفسي : ما فاز ؟ أليس قد قتلته حتى سألت بعد ذلك عن قوله ، فقالوا : الشهادة . فقلت : فاز لعمر الله .

قال ابن عبد البر (1/302) هو الذي قتل (عامر بن فهيرة) يوم بئر معونة ، ثم أسلم بعد ذلك .

يمكنك أن تسمع عن معنى ، مثلما تسمع عن شخص ، وأنت تعلم أنه ليس من راءٍ كمن سمع .

ولا شك أنك حين ترى الشهيد وهو يقبل على الله - عَزَّوَجَلَّ - بروحه ونفسه ، وكأنه يقبل على عرس ، وكأن صدره الذي يلقي به الضربة يفتحه أمام النسيم العليل في روض ظليل ، تدرك الفرق بين الأقوال والفعال .

فرق كبير بين أن تقول : الشهيد فائز ، وأنت على كرسى المحاضرة ، وأن تقولها والضربة في صدرك ، إن ذلك يذكرنا بأحد المحدثين الذي قال له ولده : مالى أراك إذا تكلمت بكى الناس ، وإذا تكلم غيرك لا يبكون ؟

فأجابه : ليس بكاء الثكلى بكاء المستأجرة ، إنه الصدق ، وللصدق سره الذى لا يفصح عنه البيان ، لقد كان وقع الكلمة على (جبار بن سلمى) أشد من وقع الخطب العصماء ، والقصائد الفرائد ، إنه مشهد الحق والصدق ، لقد سأل : كيف فاز ؟ أى فوز حصل عليه وقد قتلته ؟

لقد كان يرى الفوز الغنيمة المعهودة ، والنصر المحقق وعامر بن فهيرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يموت ، فهل في الموت من فوز !

فلما أخبر بأنها الشهادة ، بادر إلى هذا الدين الذى حجب إلى الناس الحياة الآخرة ، لقد آمنوا وصدقوا : ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ حُبَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾¹ .

دائمًا يكون السلوك سببًا في الخير إن كان حميدًا ، ولطالما كان سببًا في السوء إذا كان سيئًا .

إسلام الحارث بن ضرار الخزاعي :

قال لى أحد أبنائنا من طلاب الدراسات العليا : إن رجلاً سافر إلى دولة أوروبية ، وتزوج امرأة منها ؛ فنال الجنسية وتعلم اللغة وحصل على الدكتوراه ، وأنجب منها ثلاثة أبناء ، وبعد حوالى عشرين سنة طلقها وصحب أبناءه الثلاثة إلى بلده .

قلت في نفسي :

- وهو مسلم ؟!

(1) سورة الأحزاب : 23 .

قال : نعم .

قلت : والله ما عرف عن الإسلام شيئاً .

وأخذت أتصور حال تلك المرأة وما يدور في نفسها ، وما يعصف بكيانها من ألم ومراة ، وقد أعطت كل شيء ، وبقيت وحيدة محرومة بعد أن فر الجمل بما لم يحمل ، فر بحملها الذى حملته مراراً في بطنها وغذته بعمرها ، وكانت عاقبة أمرها خسرًا ، أى معنى في قلب هذا الرجل ينسبه إلى دينه الذى أمره بالرحمة حتى بالحيوان .

أما كان قادرًا على أن يذهب إلى البلد البعيد بزوجة من بلده ، أو أن يظل فارسًا عزبًا هنالك ، يطلب العلم ويشقى ولا يسرق عواطف البشر ، وهو كذوب يسعى إلى تحقيق مصلحة دنيئة سرعان ما تزول ، وتبقى بعدها أسوأ الذكريات .

كيف أسلم الحارث بن ضرار ؟ وما صلة هذه القصة بإسلامه ؟

والد أم المؤمنين : جويرية بنت الحارث - رضى الله عنها - وكانت في سبایا بنى المصطلق من خزاعة ، وقعت في سهم (ثابت بن قيس بن شماس) ، فأقبل أبوها الحارث لفدائها ، فلما كان بالعقيق نظر إلى الإبل التى جاء بها للفداء ، فرغب في بيعين منها ، فأخفاهما في شعب من شعاب العقيق ، ثم أتى إلى النبى - ﷺ - فقال :

يا محمد ، أصبتم ابنتى ، وهذا فداؤها .

فقال - ﷺ - « فأين البعيران اللذان غيبت بالعقيق في شعب كذا وكذا » .

فقال الحارث : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت محمد رسول الله ، فوالله ما اطلع على ذلك إلا الله ، فأسلم الحارث قال ابن عبد البر (1/ 357) وأسلم معه ابنان وناس من قومه .

وأنا أقول : إن سبب إسلام الحارث ما شاهده من علامات النبوة ، وذلك كما أسلم العباس عم رسول الله - ﷺ - .

وكان كما قال : ما اطلع على ذلك إلا الله .

إن الحارث لم يقل للنبى - ﷺ - أخبرك بذلك الجن مثلاً ، وهذا يدل على أن الناس كانوا يعلمون أن الجن لا يقوم بمثل هذا ، وأن الذى يخبرهم بما أخذوا إنما هو الوحي الذى من عند الله - ﷻ - .

ما كان أسهل أن يقول له الحارث :

أخبرك بذلك الجن !

وكون ذلك لم يحدث ، دليل على أن علم الغيب لله وحده .

فما للناس في هذا الزمان مولعين بالجن والعفاريت ، ومعرفة الدجالين ، الذين يقولون عنهم إنهم يعرفون .

لقد كان الحارث والدًا ، وجد ابنته في الحفظ والصون ، ووجد المسلمين أمة تطلق السبايا من أجل أنهم صاروا أصحاب رسول الله - ﷺ - .

هذا هو الإسلام الذى عرفه الناس ، لا الانتساب إليه بلا قيم ولا خلق ولا من ولا فداء .

إسلام حويصة بن مسعود الحارثي :

أصبح عند الناس من السهل أن يقال لهم :

- يقتلك أخوك على جنيته .

فإذا بالأخ يقول :

- أنت رجل مبالغ ، إنما يقتلني على نصفه .

ما يستمرأ اليوم ويستساغ ما كان بالأمس مستساغاً ، وتلك المفارقة هي غصة الوجود وآفة الحياة ، اختفت عبارة : (لا يمكن أن يقتلني أخي) .

لقد قال الله - ﷻ - : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ ۖ ﴾⁽¹⁾ . ومعنى ذلك أن قتل الأخ غير طبع ، وفي العربية باب المطاوعة ، ولها أبنية تدل على تلك المطاوعة ، نحو « كسرتة فانكسر » وهكذا .

لقد أسلم حويصة لما سمع أخاه يقول له : « لو أن محمداً أمرني بقتلك لقتلتك » فإذا به يبصر أن هذا الدين حق ؛ فما كان لأخيه أن يقول له ذلك إلا عن أمر جليل ، هو دين الحق الذي لا يعرف إلا الحق ، ورجاله يقولون للنبي - ﷺ - : سمعنا وأطعنا .

لماذا أسلم هؤلاء ؟

إن ديناً بلغ بك هذا العجب .

كان لحويصة بن مسعود الحارثي أخ أصغر منه اسمه : محيصة ، أسلم قبله ، وقد روى عنه أصحاب السير والتواريخ ، أنه بعد قتل (كعب بن الأشرف)

(1) سورة المائدة : 30 .

اليهودي الذي كان يؤذى رسول الله - ﷺ - قال النبي - ﷺ - : « من ظفر ثم به من رجال يهود فاقتلوه » فوثب (محيصة بن مسعود) على (ابن سبيئة) رجل من تجار يهود ، كان يلبسهم ويبائعهم فقتله ، فلما رأى أخوه حويصة ذلك أخذ يضربه ، ويقول له : أي عدو الله ، قتلته ، أما والله لرب شحم في بطنك من ماله ، فقال محيصة : والله لقد أمرني بقتله مَنْ لو أمرني بقتلك لضربت عنقك .

قال حويصة :

الله !

لو أمرك بقتلي لقتلتني ؟

قال : نعم ، والله لو أمرني بقتلك لقتلتك .

فقال : والله إن ديناً بلغ بك هذا العجب ، قال ابن عبد البر في الاستيعاب (25 / 4) : فأسلم حويصة ، وكان ذلك أول إسلامه .

وفي قصة إسلام حويصة من الدروس ما يأتي :

1- بيان العلاقة بين الأخ وأخيه ، وأن قتل الأخ لا يكون عن هوى ، فانظر كيف كان الأخ يرى أنه من المحال أن يقتله أخوه لأتفه الأسباب !

2- أن الأخ يعلم من أخيه عقله وفكره ، وقد علم حويصة أن أخاه لا يتبع كذاباً ، ولا ساحراً ، وقد عبد بالدين لا بالسحر والكهانة .

3- أن اتباع النبي - ﷺ - فيما أمر به أمرٌ كفيلاً بأن يخضع له الناس ، وأن يدخلوا في دين الله - ﷻ - لما يرون من العجب ، وكل ما جاء به الدين من سمو ورفعة يجب أن يشيع في الناس ليكون لسان الحال أبلغ من لسان المقال .

إنه لا يصلح عند الناس أن تكون داعية علم وأنت جاهل ، أو تكون داعية حُسن وأنت قبيح ، أو أن تكون داعية حضارة وأنت متخلف ، أو أن تكون داعية طهارة وفيك نجس ، أو أن تكون داعية سلام وأنت حرب ، وفي هذه القصة ما يبين لنا أهم أسباب تخلف الأمة ، حيث إن هناك مفارقة بين الدعوة الطاهرة على الألسنة ، وبين ما عليه حال الأمة ، فأين العجب الذى يراه الناس لكى يطمئنوا إلى أن ديننا هو الحق ، وأن رسالتنا هى الرسالة الخاتمة التى جاءت بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟

إننا يجب أن نشيع روح الإسلام فينا ، وفي الناس من حولنا ، كما نحب أن نتكلم ، ونملأ الدنيا خطابة وموعظة وكلامًا ، أكثره زبد ، يذهب جفاء .

وقد قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ۝¹ .

ومن سوء واقعنا فى الكلام : أننا نقضى زمانًا طويلًا فى الحديث عن زينة المرأة وخروجها ، وحق زوجها عليها ، والحياة الجنسية التى خصصت لها برامج ، وطولب بتدريسها فى المدارس الابتدائية ، وكأننا لنا غاية هى معرفة الصحة الجنسية ، ويا ليتنا تشدنا غاية أهم وأخطر ، وهى الصحة الفكرية والعلمية ، فأين يمارس الشباب الجنس وهم قد حيل بينهم وبين الزواج من فحش المغالاة ، وعدم وجود المساكن والحصول على عمل يكتسبون منه ما يفتحون بيوتًا ، ويخطبون أزواجًا أى عقل هذا؟

(1) سورة الرعد : 17 .

كما أن أحاديثنا أحاديث خلاف ومسائل فرعية ومناقشة أدلة ، بت فيها منذ أزمان ، أليس الأولى بنا أن نقتبس من هدى رسول الله - ﷺ - كلمات مختصرة ، فإنه كان يقول القول الفصل الذى يحفظه الناس ، ولم يكن قوله سرًا كسرنا !

أليس الأولى بنا . أن نقيم صروح المجد فى كل صحراء ، وأن نعمر الغبراء ، وأن نزرع الجرداء ، وأن نكتشف الدواء ، وأن نكون شعلة حضارة فى الناس ، فإذا سألوا مَنْ هؤلاء ؟

قيل : نحن المسلمون .

فقيل لنا : وما الذى دفعكم إلى هذا المجد ؟

قلنا : ديننا .

فقيل لنا : إن دينًا بلغ بكم هذا العجب ، نشهد أنه الحق .

فإن شهدوا كانوا إخواننا ، وإن لم يشهدوا كانوا لنا تابعين ، وفى حمانا يعيشون ؛ متى تتحد أمة المسلمين ؟ فى أى عام ؟ وفى أى شهر ؟ وما الخطة المرسومة للوصول إلى ذلك اليوم ؟ كم بقى أمامنا لإزالة العقبات الوهمية نحو اتحاد الكلمة والصف ، حتى نكون قوة ترهب عدو الله وعدونا !

لا أحد يعلم حيث لا خطة ولا سعى ، إنها خطة الكلمات والأمنيات ، طريقنا واضح ونحن نعلمه ، ولكن نأبى أن نسير فيه ، ونصرنا قريب وهو وعد الله تعالى المشروط بنصر دينه ، ونحن الذين نبتعد عنه بتفرقنا ، وإهمالنا ديننا .

حياتنا مرة ، ومستقبلنا أشد مرارة ، إن بقينا بلا حراك نحو العزة والكرامة .

إسلام صيرمة بن أبي أنس الأنصاري :

الناس ليسوا سواء ، فيهم من يتفكر ويتأمل ، ويجب إليه الخلاء ليخلو إلى نفسه ، ويستذكر حاله ، وينظر في الكون من حوله ، وقد حجب الخلاء إلى رسول الله - ﷺ - وكان أن اتجه إلى غار حراء ، وقضى فيه الليالي ذوات العدد .

ومنهم من هو تابع لغيره مقلد ، ومنهم غير ذلك ، ومنهم ذو النظرة السليمة التي تهديه إلى الحق ، فإذا هو منتظر ندائه ، مستعد للقاءه ، كما رأينا في إسلام أبي بكر - رضي الله عنه - الذي لم تكن له كبوة .

وصيرمة بن أبي أنس الأنصاري قد رأى بفطرته : أن الإنسان لا يمكنه العيش بلا دين ، اتخذ لنفسه مسجدًا ، فلما علم بوجود النور - ﷺ - أتاه مسلمًا . من بنى النجار ، يكنى : « أبا قيس » .

وسبب إسلامه باختصار : أنه كان رجلاً أراد أن يعبد الله ، أدرك بالفطرة أنه لا حياة بلا إله ، هم بالنصرانية ثم أمسك عنها ، واتخذ مسجدًا في داره ، لم يدخله حائضًا من النساء ولا جنبًا .

ذلك الأمر الذي بتنا نجد فيه زواج وخلافًا وحناقًا ، فلما قدم النبي - ﷺ - أتاه مسلمًا وكأنه من أهل الحظ السعيد ، قال ابن عبد البر : فأسلم وحسن إسلامه وهو شيخ كبير ، وكان قوًّا بالحق يعظم الله في الجاهلية ، وكان من شعره :

سبحوا الله شرق كل صباح طلعت شمسُه وكل هلال

أسلم أبو قيس ؛ لأن الإسلام جاء بما في قلبه وعقله ، فالذي قال : « سبحوا الله شرق كل صباح » جاءه من يتلو عليه قول الله - ﷻ - :

﴿ فَسُبْحَنَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿٥﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿٦﴾ ١٠ ﴾ .

والذي منع الحائض والجنب من دخول مسجده جاءه من جنب المسجد الحائض والجنب - ﷻ - .

وذلك يذكرنا بما قالته (هند بنت عتبة) للنبي - ﷺ - عند البيعة : أوتزنى الحرة يا رسول الله ؟!

وفي رواية : أوتزنى الحرة أو تسرق يا رسول الله .

إن الدين دين الفطرة ، والسعيد مَنْ وفق إلى معرفة أن دينه لا يأمره بغير ما عليه فطرته السليمة ، فهو يحمد الله تعالى على تلك النعمة ، فالحمد لله - ﷻ - لا يكلف نفسًا إلا وسعها ، ولا يكلف بما لا يتحملة العقل السليم والفكر السوي .

إنه دين جاء فيه السائل يسأل النبي الخاتم صاحب الرسالة - ﷺ - قائلاً له : معي دينار .

فقال : أنفقه على نفسك .

قال : عندى غيره .

قال : أنفقه على ولدك .

قال : عندى غيره .

قال : أنفقه على أهلك .

قال : عندى غيره .

قال : أنفقه على خادمك .

قال : عندى غيره .

قال : أنت أعلم به .

قال الشافعى فى الأم 10 / 256 وكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث يقول :

يقول ولدك : أنفق علىّ ، إلى مَنْ تكلنى ؟

وتقول زوجتك : إن لم تنفق علىّ ، فطلقنى .

ويقول خادمك : إن لم تنفق علىّ ، فبعنى .

أليس ذلك من مقتضيات العقل السليم ، ولدك إن لم تنفق عليه فمن ينفق

عليه؟

وزوجتك إن لم تنفق عليها ، فكيف تعيش معك ؟

وماذا تفعل وهى معدمة لا تجد ما تنفقه على نفسها ، وعلام احتفاظك بخادم

لا تنفق عليه ، أو لا تعطيه أجرة !

ثم إن الإسلام يعِدك بفضل الله تعالى وثوابه على ما أنفقت على نفسك وعلى

هؤلاء جميعاً ، كما جاء فى حديث البخارى : « حتى اللقمة تضعها فى فم زوجتك

صدقة » .

صدقة تثاب عليها مع أنها تحصل على جزاء حبسها على ذمتك ، ووجودها

فى بيتك لا تدخل فيه أحداً إلا بإذنك ، ولا تخرج منه إلا بإذنك ، فأى فضل بعد

هذا ؟

إسلام الجارود بن بشر بن المعلى :

يعز على الإنسان أن يترك عادة اعتادها ، وإن كانت سيئة ، فما بالناس بمن ترك

ديناً ورثه عن أبيه وأمه وجده ؟ وأهل الكتاب يعرفون رسول الله - ﷺ - كما

يعرفون أبناءهم ، بهذا نطق الذكر الحكيم وهو الحق ، وإيمانهم برسالة محمد -

ﷺ - لا تنقص من دينهم ، ولا تنأى بهم عنه ، فالمسلمون يؤمنون بجميع الرسل ،

والكتب السماوية : ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ

بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ؕ وَقَالُوا سَمِعْنَا

وَأَطَعْنَا ؕ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝ ١ ۝

إنما يكون إسلام أتباع الرسل السابقين نقيصة إذا قيل لهم اكفروا برسول الله ،

وأعلنوا أن كل الكتب السماوية هى القرآن ، وأن كل المرسلين هم محمد - ﷺ - .

لكن أحداً لا يقول لهم ذلك .

ونحن مأمورون بدعوة الناس جميعاً إلى الإسلام ، فإن أسلموا فقد اهتدوا ،

وإن تولوا قلنا اشهدوا بأننا مسلمون .

جاء الجارود أخو عبد القيس فى وفد عبد القيس ، وكان نصرانياً ، فلما انتهى

إلى رسول الله - ﷺ - كلمه فعرض عليه الإسلام ، ودعاه إليه ورغبه فيه ، فقال

يا محمد ، إنى كنت على دين ، وإنى تارك دينى لدينك ، أفتضمن لى دينى ؟ فقال

رسول الله - ﷺ - : « نعم ، أنا ضامن أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه » ؛ فأسلم

وأسلم أصحابه .

إنَّ الإسلام هو الرسالة الخاتمة ، وهو مصدق الذى بين يديه من التوراة والإنجيل : ﴿ اَلَمْ يَكُنْ اَللّٰهُ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ اَلْحَيُّ اَلْقَيُّوْمُ ﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ اَلْكِتٰبُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَاُنْزِلَ اَلتَّوْرَةُ وَاَلْاِنْجِيلُ ﴿٢٠٠﴾ مِنْ قَبْلُ هٰدًى لِّلنَّاسِ وَاُنْزِلَ اَلْفُرْقَانُ ۚ اِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا بِآيٰتِ اَللّٰهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيْدٌ ۗ وَاَللّٰهُ عَزِيْزٌ ذُو اَنْتِقَامٍ ﴿٢٠١﴾ .

وإنما كان الإسلام خيرًا للجارود وأمثاله ؛ لأنه دين شامل : ﴿ اَمَّا اَلرَّسُوْلُ فَمَا اُنْزِلَ اِلَيْهِ مِنْ رَّبِّهِ وَاَلْمُؤْمِنُوْنَ كُلُّ اَمَّاَنِ بِاللّٰهِ وَمَلٰئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ اَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوْا سَمِعْنَا وَاَطَعْنَا ۗ غُفْرٰنَكَ رَبَّنَا وَاِلَيْكَ اَلْمَصِيْرُ ﴾² .

فأى ضرر يلحق أهل الكتاب إذا شهدوا بأن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، رسول الله الذى جاء مصدقًا لما جاء به النبيون قبله ، قال : « لا تفضلونى على موسى » ، وقال : « رحم الله أخى يوسف ، لو كنت مكانه لأجبت الداعى » ، وقال : « لا تفضلونى على يونس بن متى » ، من كفر بنبى من الأنبياء فقد كفر بمحمد - ﷺ - ومن أنكر كتابًا أنزله الله تعالى قبل القرآن الكريم فقد كفر بمحمد - ﷺ - . ومن ثم كان الإسلام خيرًا لأنه لم يقل للنصرانى : اكفر بعبسى - عليه السلام ، ولم يقل لليهودى : اكفر بموسى - عليه السلام .

بل إنه قال لهؤلاء وهؤلاء : ﴿ الَّذِيْنَ ءَاتَيْنٰهُمْ اَلْكِتٰبَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُوْنَ ﴾ وَإِذَا يُتْلٰى عَلَيْهِمْ قَالُوْا ءَاْمَنَّا بِهِ ۖ اِنَّهُ اَلْحَقُّ مِنْ رَّبِّنَا اِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ

(1) سورة آل عمران : 1 - 4 .

(2) سورة البقرة : 285 .

مُسْلِمِيْنَ ﴿٢٠٢﴾ اُولٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ اَجْرُهُمْ مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوْا وَيَدْرَءُوْنَ بِالْحَسَنَةِ اَلْسَيِّئَةِ وَمِمَّا رَزَقْنٰهُمْ يُنفِقُوْنَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اَللَّغْوَ اَعْرَضُوْا عَنْهُ وَقَالُوْا لَنَّا اَعْمَلُنَا وَلَكُمْ اَعْمَلُكُمْ سَلٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِى الْجَاهِلِيْنَ ﴿٢٠٤﴾¹ .

مدح بذلك أهل الكتاب الذين أسلموا ، ولذلك وعدهم مضاعفة الأجر .

وقد سأل الجارود رسول الله - ﷺ - أن يحمله هو وأصحابه فقال عليه الصلاة والسلام - : « لا أجدا ما أحملكم » .

فقال الجارود فيما ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية 3 / 61 : إن بيننا وبين بلادنا ضوالاً من ضوال الناس أفتبلغ عليها إلى بلادنا ؟

فقال - ﷺ - : « لا ، إياك وإياها فإنما تلك حرق النار » ، فخرج الجارود راجعاً إلى قومه وكان حسن الإسلام ، صلباً على دينه حتى هلك من أول يوم ، والحق حق ، فالضالة مع الإبل ليست مشاعاً حلالاً لكل من مر بها ، معها سقاؤها ، وهى تسعى حتى تدرك صاحبها أو يدركها ، لا شأن لأحد بها .

إنها آمنة مطمئنة فى دين الله ، وأموال الناس ليست نهبه .

لقد نهى النبى - ﷺ - من أسلموا أن يتعرضوا لها ، وأمر النبى - ﷺ - سراقه ابن مالك أن يسقيها من حياضه وله على ذلك أجر . تلك هى حضارة الإسلام ، وذاك معلم من معلمه ، فلا اعتداء ولا عدوان ، وإنما تعاون وأمان .

(1) سورة القصص : 52 - 55 .

إسلام راشد بن عبد ربه السلمي :

يذكرني إسلام راشد بن عبد ربه السلمي بقصة فلاحنا القديم الذي شكا ضيق الرزق ، وسوء الحال ، فأرشدته بعض الناس إلى رجل معه سر ، حجاب إذا منحه إياه عاد وقد حلبت ماشيته ، وصحت زرعته ، ورأى الخير من ولده .

وبعد مدة ، فكر الرجل قائلاً من يدري ؟ أذهب إلى من عنده هذا الحجاب السحري .

وخاض الزروع والمساقى ، وتحمل صوت الكلاب والضفادع ، ووصل إلى قرية الرجل ، فإذا به يجده واقفاً على باب بقال يحاول معه عبثاً أن يعطيه بعض السكر والشاي وقطعة من الحلوى الطحينية ليتناول عشاءه والبقال يقول له بكل ثقة :

- امش من هنا يا دجال .

فعاد الرجل إلى قريته قائلاً : لو كان هذا صادقاً لأجرى سحر الحجاب على نفسه وبيته .

تلك هي خلاصة قصة إسلام راشد بن عبد ربه السلمي .

ذلك رجل كان يعبد الأصنام على دين قومه ، واتخذ له صنماً يعبده ، وذات يوم شاهد ثعلبين يبولان على صنمه فتحرك لسانه قائلاً :

أربُّ يبول الثعلبان برأسه لقد زل منْ بالت عليه الثعالب

ثم شدَّ عليه فكسره ، ثم جاء إلى رسول الله - ﷺ - فأسلم .

وذلك هو الرشد ، كان اسمه « غاوى » فسماه النبي - ﷺ - راشداً .

قال ابن كثير في البداية والنهاية 3 / 117 :

وقال رسول الله - ﷺ - : « ما اسمك ؟ » .

قال : غاوى بن عبد العزى .

فقال : « بل أنت راشد بن عبد ربه » ، وأقطعه موضعاً يقال له : رهاط . فيه

عين تجرى ، يقال لها : عين الرسول ، وقال : هو خير بنى سليم ، وعقد له على قومه ، وشهد الفتح وما بعدها .

وقال ابن عبد البر في الاستيعاب 2 / 84 « كان اسمه غاوى بن ظالم » ، فقال له

رسول الله - ﷺ - بل أنت راشد بن عبد الله .

ذلك رجل أعمل عقله ، وفكر فيما رآه ، ولو أن كل إنسان فكر فيما يرى لملت معضلات ، ولانفجرت أزومات .

فقد روى أن عمر بن الخطاب - رضيه الله عنه - سأل الحسن بن علي أن يأتيه ، فلما أتاه وجد ولده بالباب يستأذن على أبيه ، فلم يأذن له فرجع .

فلما قابله عمر سأله : ألم أقل لك ائتنا ؟

قال : أتيتك فوجدت ولدك ببابك لم تأذن له ، فانصرفت .

فقال عمر : إلا أنت .

وذلك لأنه سبط رسول الله - ﷺ - فهو مقدم عند عمر على ولده .

والشاهد في أنه - رضيه الله عنه - قد رأى أن الرجل إذا لم يأذن لولده فكيف يأذن

لغيره ، إنه يعلم مكانة الولد عند أبيه ، فإذا لم يسمح له بالدخول عليه ، فمن العقل والمنطق أن من سواه أولى بالمنع .

وفي حياتنا أناس يعيشون الوقوف على الأبواب المغلقة ، وأمامهم أبواب مفتحة ، ومنادح واسعة لو ولجوها لما ضيعوا أعمارهم وجهدهم ، وقد قيل :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

يرى عشاق الدجل رجلاً يدعى ما ليس عنده وما ينبغي له بائساً يعيش حياة الفقر والحاجة ويقصدونه ابتغاء السعة في الرزق ولو كان يملك ذلك لسأله لنفسه ، فكيف يعطى فاقد الشيء من يسأله شيئاً ليس عنده !

إسلام فضالة بن عمير بن الملوح الليثي :

ما كان أحد ليطلع على قلب أحد ، ولا على ما أضمره الناس في صدورهم ، فالله وحده علام الغيوب ، علیم بذات الصدور ، والله - ﷻ - يطلع رسوله - ﷺ - لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى .

بهذا المعنى ، جاءت قصة إسلام فضالة بن عمير ؛ حيث شاهد عجباً ورأى آية ، ووقف على حلم ، ما بلغه أحد إلا رسول الإسلام - ﷺ - .

أراد فضالة بن عمير بن الملوح الليثي قتل النبي - ﷺ - وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فلما دنا منه قال رسول الله - ﷺ - :

« أفضالة ؟ » .

قال : نعم ، فضالة يا رسول الله .

قال : « ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ » .

قال : لا شيء ، كنت أذكر الله .

فضحك النبي - ﷺ - وقال : « استغفر الله » ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه ، فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شيء أحب إليّ منه ، فرجعت إلى أهلى ، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها فقالت : هلم إلى الحديث ؟ ذكره ابن هشام في سيرته 2 / 104 .

والتكملة في البداية والنهاية 2 / 764 فقال : لا ، وانبعث فضالة يقول :

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا
لو ما رأيت محمداً وقبيله
لرأيت دين الله أضحى بيئاً
والشرك يغشى وجهه الإظلام

هذا رجل أسلم بعد ما تبين له الحق ، وأن النبي - ﷺ - ما علم ما في نفسه إلا بوحي ، ولا يوحى إلا للنبي ، كما أسلم غيره .

وفي إسلامه من الدروس : سرعة الطاعة والتغيير ، ألا ترى إلى قوله لمن كان يحدثها : لا ، إن الرجل إذا أسلم فقد أسلم وجهه لله - ﷻ - أى لدينه ، الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

وقد روى أبو داود حديث رقم (428) عنه أنه قال : علمنى رسول الله - ﷺ - فكان فيما علمنى « وحافظ على الصلوات الخمس ، قال : قلت : إن هذه ساعات لي فيها أشغال ، فمرنى بأمر جامع إذا أنا فعلته أجزأ عني ، فقال : حافظ على العصرين ، وما كانت من لغتنا ، فقلت : وما العصران ؟ فقال : صلاة قبل طلوع الشمس ، وصلاة قبل غروبها » .

والصلاة تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، والوصية بالفجر والعصر لا تعنى التفريط فى بقية الصلوات ، فإن أحب الأعمال إلى الله - ﷻ - الصلاة على وقتها ، ومن حافظ على الفجر كان ذلك أدعى إلى أن يحافظ على غيره ، والله - ﷻ - أعلى وأعلم . وكثير من الناس ينامون عن صلاة الفجر وهم مسلمون أباً عن جد ، ولهم فى سلفهم الأسوة ، وقد ذكرت فى إسلام (واثلة بن الأسقع) أنه صلى الفجر مع النبى - ﷺ - وكان عليه الصلاة والسلام يتصفح وجوه الصحابة بعد صلاة الصبح فلما رآه أنكره ، فسأله وقال له : وما الذى أتى بك ؟ فقال : جئت أبأيعك ، فهذا رجل صلى الفجر وهو حديث عهد بالإسلام ، فأين ثمرة القدم فيه ووراثته أباً عن جد .

ومتى يتخلى المسلم العاصى عن معاصيه وهو يسمع الوعظ والبرامج المختلفة التى ملأت الدنيا كلاماً فى كلام !

إن فضالة قد أبى أن يحدث امرأة كان يحدثها قبل إسلامه ، بعد أن أسلم بساعة زمن ، فمتى ينتهى مَنْ يعبث بالحرمان ، وهو مسلم يصلى ويصوم ويذكر الله كثيراً : ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾¹ .

إن الإصرار على المعاصى خطر يهدد المسلم ، والتوبة النصوح تقتضى عدم العود إلى الذنب ، وقد قال الزمخشري فى كشافه : لا يعود التائب إلى الذنب إلا إذا عاد اللبن إلى الضرع ، واللبن بعد حلبه لا يعود إلى ضرع الماشية ، وكذلك التائب لا يعود أبداً إلى الذنب ، بعد أن طهره الله - ﷻ - منه ، وقد يقع فى الذنب على غير

(1) سورة آل عمران : 135 .

عمد وإصرار ، لكنه يتذكر ويتوب : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾¹ .

ونحن فى حاجة إلى أن تبصرنا الذكرى ، فإن السوء كل السوء فى أن نعمى بعد الذكرى ، ومعنى ذلك : أن الذكرى لم تنفعنا ، والذكرى إنما تنفع المؤمنين .

إسلام مسعود بن هنيذة :

الترغيب معنى يتردد بين حق ثابت ، وزيف مؤلف ، قد يقضى على حقوق من دماء وأموال وأعراض .

ثابت بالكتاب الذى يدعو إلى الرحمة والجنة وبالسنة المطهرة ، وبإجماع العلماء الذين لا يملكون أن يضعوا العثرات بين عبد راغب فى ربه ، وبين طريق التقرب والرحمة والمغفرة .

كثر المسلمون بالترغيب ، وعرفوا الإسلام مبشراً لا منفراً ، جامعاً لا مفزقاً ، فاهتدوا إليه ، ومن هؤلاء الذين أثر فيهم الترغيب فصار مرغباً مسعود بن هنيذة .

كان عبداً (لأبى تميم بن حجير الأسلمى) على ما ذكره الواقدي ص 409 أو لفروة الأسلمى كما ذكر ابن عبد البر فى الاستيعاب 3 / 451 وفيه ورد أنه صحب النبى - ﷺ - وأبا بكر - ﷺ - ، وعرف الإسلام وهو معها فى تلك الرحلة ، ولما صلى رسول الله - ﷺ - وقف أبو بكر عن يمينه ، وجاء مسعود ووقف خلفهما ، فدفع النبى - ﷺ - صدر أبى بكر ، فرجع وصلى الرجلان خلف رسول الله - ﷺ - بمسعود صار الصديق صفاً فى الصلاة ، الذى أسلم من دقائق معدودة .

(2) سورة الأعراف : 201 .

ترى .. ما الذى عرفه مسعود عن الإسلام ، حتى عبّر بقوله : « فعرفت الإسلام وأنا معهما » ؟

إنَّ الإجابة عن هذا السؤال فى كلمة واحدة هى التّغيب ، والدليل على ذلك ما ذكره الواقدي ، حيث قال فى غزوة المريسيع : إن مسعوداً قدم على النّبي - ﷺ - ليسلم عليه ويبشره بأن سيده أعتقه ، فبارك له رسول الله - ﷺ - وعليه ، وسأله عن أهله فأخبره بأنه تركهم فى مكان يقال له « الخدرات » . وهناك كثر المسلمون ، فحمد رسول الله - ﷺ - ربه أن هداهم ، ثم قال مسعود :

يا رسول الله ، قد رأيتنى أمس ولقيت رجلاً من عبد القيس ، فدعوته إلى الإسلام فرغبته فيه فأسلم ؛ فقال رسول الله - ﷺ - لإسلامه على يدك كان خيراً لك مما طلعت عليه الشمس أو غربت .

ثم دعاه النّبي - ﷺ - للبقاء معهم ؛ ليحصل على خير قد يسوقه الله - ﷻ - غنيمة وقد كان ، أعطاه النّبي - ﷺ - قطعة من إبل وقطعة من غنم ، فقال : كيف أقدر أن أسوق الإبل ومعى الغنم ، اجعلها غنماً كلها أو إبلأً كلها ؛ فتبسم رسول الله - ﷺ - ثم قال :

« أى ذلك أحب إليك ؟ »

قال :

- تجعلها إبلأً .

قال : أعطه عشرًا من الإبل .

فساقها وعاد إلى أهله وقد سئل : قارعة من المال أو من الخمس ؟

قال : والله ما أدرى ، فرجعت إلى أهلى فوالله مازلنا فى خير منها إلى يومنا هذا .
إن التّغيب لا التّرهيب هو الذى حدا بمسعود إلى الإسلام ، وقد كان سبيله إلى دعوة الناس إلى دين الله .

ولا يفوتك أن تتأمل ما حدث بينه وبين رسول الله - ﷺ - حين أعطاه الإبل مع الغنم وردّه عليه ، وسعة صدر النّبي - ﷺ - وتبسمه رضاً بما قال .

وبعض الناس اليوم لا يجد بأساً أن يرد على مسعود قائلاً : ورب الناس لن تأخذ إبلأً ولا غنماً .

لكنه رسول الله - ﷺ - الذى أعطاه ، فلما قال : كيف أقدر على أن أسوق الإبل ومعى الغنم ! واقترح عليه إما أن يجعلها إبلأً كلها ، وإما أن يجعلها غنماً كلها ، قال له - ﷺ - :

« أى ذلك أحب إليك ؟ »

فلما قال : الإبل ، أعطاه عشرة مباركة - ﷺ - لقد عرف مسعود الإسلام رغبة ، فمن صد عنه فليس بذى قلب حى ؛ لأن الرغبة دعوة إلى الخير والمغفرة ، ومضاعفة الأجر والثواب ، والإسلام لا يحقر من الصالحات عملاً ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق ، بابتسامة وأنت تحدّثه .

وبعض الذين يدعون إلى الله - ﷻ - قد طلقوا الابتسامة طلاقاً لا رجعة فيه ، تجد الواحد منهم متجهماً فى وجوه الناس ، ذا نبرة قاسية ، كل ما فيه جاف والجفاف لا ينبت ، ولا يزهر ، وإنما هو عنوان الخريف ، وهذا الدين ربيع الحياة وربيع القلوب .

وفي سورة نوح يقول الله تعالى : ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْصِعُهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ ﴾¹ .

فالدعوة إلى الله دعوة إلى المغفرة ، لا دعوة إلى جهنم وساءت مصيرًا .
ولفظه « كلما » تدل على التكرار ، ومعنى ذلك : أنه كلما تكررت الدعوة إلى الله تكرر معها ذكر المغفرة ، وإسلام إنسان بين يدي إنسان مغفرة لمن أسلم على يديه ، وخير كثير حصله بدعوته أخاه في الإنسانية إلى الله تعالى الغفور الرحيم .

إسلام عثمان بن أبي العاص الثقفي :

نام الناس ، وهدأ الليل ، وإذا به يتجه إلى النبي - ﷺ - يسأله عن الإسلام ، فما مله النبي - ﷺ - ؟

وذات ليلة ، وجد رسول الله - ﷺ - نائمًا ، فاتجه إلى أبي بكر الصديق - ﷺ - فسأله واستقرأه القرآن الكريم ، فأجابه أبو بكر - ﷺ - وقرأ له من القرآن ما شاء الله له أن يقرأ .

وصارت هذه عادته مدة بقاءه مع وفده القادم من ثقيف إلى النبي - ﷺ - .
ما تقول في رجل يتردد على خير مورد ، فإذا به صفاء بلا كدر ، وجواب بلا إعياء ، وتلاوة تبعث في النفس معنى اليقين !

كان عثمان بن أبي العاص أصغر وفد ثقيف ؛ لذلك كانوا يتركونه عند رحالهم ، فكانوا كلما رجعوا إليه ، وناموا بالهاجرة خرج ، فعمد إلى النبي - ﷺ - فسأله عن الدين واستقرأه القرآن ، وأسلم سرًا من أصحابه كما قال الواقدي ص 966 .

(1) سورة نوح : 7 .

لقد كان القرآن الكريم سببًا في إسلام عثمان بن أبي العاص ، يقول الواقدي : «سمع القرآن ، وقرأ من القرآن سورة من (فم) رسول الله - ﷺ - فإذا وجد رسول الله - ﷺ - نائمًا عمد إلى أبي بكر - ﷺ - فسأله واستقرأه ، ويقال : إذا وجد النبي - ﷺ - نائمًا جاء إلى (أبي بن كعب) فاستقرأه ، فبايع النبي - ﷺ - على الإسلام قبل الوفد ، وكنتم ذلك عثمان من أصحابه ، وأعجب رسول الله - ﷺ - به ، وأحبه .

ولابد من تكملة قصة الوفد الذي كان رئيسه (عبد ياليل الحكم بن عمرو ابن وهب بن معتب) الذي سأل النبي - ﷺ - الترخيص في ثلاثة أشياء : في الزنا ، وفي الربا ، وفي الخمر .

وقدّم لكل شيء عذرهم فيه ، أما الزنا فهم في غربة وليس معهم نساء قال : ولا يصبر أحدنا على الغربة .

فقال النبي - ﷺ - «هو ما حرّم الله على المسلمين» يقول الله - تعالى - : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾¹ .

وأما الربا فقد قال : إن أموالنا كلها ربا .

فقال النبي - ﷺ - «لكم رءوس أموالكم» .

يقول الله - تعالى - : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾² .

(1) سورة الإسراء : 32 .

(2) سورة البقرة : 278 .

وأما الخمر فإنهم يزرعون العنب ، وهى عصير أعنابهم ، فقال - ﷺ - « فإن الله قد حرّمها » ، ثم تلا رسول الله - ﷺ - هذه الآية : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ ﴾⁽¹⁾ .

قال الواقدي ص 967 : « فارتفع القوم ، وخلا بعضهم ببعض ، فقال عبد ياليل : ويحكم ، نرجع إلى قومنا بتحريم هذه الخصال الثلاث ، والله لا تصبر ثقيف على الخمر أبداً ، ولا عن الزنا أبداً ، قال (سفيان بن عبد الله) ، أيها الرجل ، إن يرد الله بها خيراً تصبر عنها ، قد كان هؤلاء الذين معه على مثل هذا ، فصبروا ، وتركوا ما كانوا عليه ؛ مع أنا نخاف هذا الرجل ، قد أوطأ الأرض غلبة ، ونحن في حصن في ناحية من الأرض والإسلام حولنا فاش ، والله لو قام على حصننا شهراً لمتنا جوعاً ، وما أرى إلا الإسلام وأنا أخاف يوماً مثل يوم مكة .
وأسلم الوفد .

أسلم الوفد بعد التردد بين ما دعاهم إليه النبي - ﷺ - وبين ما هم عليه من الزنا والربا والخمر ، لم يسلموا خوفاً من تهديد ، ولا نائياً عن وعيد ، فقد أضافهم النبي - ﷺ - وقدم لهم أطيب الطعام والشراب ، وكان كلما أرسل إليهم بالطعام امتنعوا عنه حتى يأكل منه ، إلى أن أسلموا .

إنهم سمعوا كتاب الله - ﷻ - وعلموا أن من دخل هذا الدين فلا يزنى ولا يتعامل بالربا ولا يشرب الخمر ، إنه لا يزنى لأن أحداً لا يرضاه لأمه ولا لأخته ولا لابنته ، وهو لا يراى لأن الله تعالى أحل البيع وهو حركة حياة والربا ظلم ،

وهو لا يشرب الخمر حفاظاً على عقله الذى ما إن فقدته فعل كل الموبقات . فأى شيء حرّم الشرع الحنيف إلا الخبيث الذى تفسد به الحياة النقية الصافية .

وحين قال عبد ياليل : إن القوم لن يرضوا بتحريم هذه الأشياء ؛ فهم لا يصبرون عن الخمر والزنا ، أجابه (سفيان بن عبد الله) : بأن الله - ﷻ - إذا أراد بهم خيراً صبروا ، وكان الواقع كذلك يؤيده ، فالذين آمنوا برسول الله - ﷺ - كانوا في جاهليتهم كذلك ، فلما أراد الله بهم خيراً صبروا وتخلصوا من كل منكر .

والناس اليوم يظنون أن التخلص من بعض الموبقات شديد ، وهو شديد إلا على من وفقه الله - ﷻ - وأراد به خيراً ، وذلك يتحقق له بالصدق ، اصدق الله يصدقك ، والشيطان يوسوس للإنسان : أن لا طاقة له على ترك ما هو عليه من منكر ومعصية ، وقد يدخل إليه من باب الضرورة قائلاً له بالباطل المكنون تحت الحق المتمثل في القاعدة الشرعية : الضرورات تبيح المحظورات .

حتى يصبح كل شيء ضرورة ، فلا مجال إذن لترك معصية ، وأقرب دليل على ذلك : أنك تجد من يعمل في الخمور يقول لك : لا أعرف صنعة غيرها ، ومن يتعامل بالربا يقول : لا أعرف فن البيع ... وهكذا ، وكل ذلك مما يمليه الشيطان على أوليائه ، وهو باطل مردود ، فالضرورة تقدر بقدرها ، ومن ترك شيئاً ابتغاء وجه الله تعالى آتاه الله خيراً منه . وقد نفث روح القدس في رسول الله - ﷺ - « أن نفساً لن تموت حتى تستوفى رزقها ، فليترك الله كل مسلم ، وليجمل في الطلب » . ومن جمال الطلب : أن يطلب رزقه من حلال .

إسلام أبي رافع (مولى رسول الله - ﷺ -) :

حين يجد المرء نفسه تابعاً لأناس كلهم مجد وشرف ، أترأه يخالفهم في دين آمنوا به ورأوا أنه الحق ؟

وحين يجد نفسه معرضاً للطغيان ، وقد غاب سيده ، فإذا بامرأة سيده تذب عنه ، وتدفع الضيم عنه والهوان ، أيزيده ذلك يقيناً وإيماناً ، أم يرده إلى كفر وضلال ؟ إن من أسباب انحراف الناس عن حق ابتعوه ، ما يشعرون به من هوان وهم بين أهليهم ، وعلى أرضهم وفي أوطانهم .

فالضعف المادى والمعنوى كان من أهم أسباب ارتداد الناس الذين لم يتمكن اليقين من قلوبهم عن الدين ، وينبغى ألا يغيب هذا المعنى أبداً .

اسم أبى رافع « أسلم » وغلبت عليه كنيته ، كما قال ابن عبد البر في الاستيعاب 1/ 177 .

ذكر الطبرى في تفسيره 4/ 80 ، 81 « قال أبو رافع مولى رسول الله - ﷺ - : كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب ، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت ، فأسلم العباس ، وأسلمت أم الفضل ، وأسلمت ، وكان العباس يهاب قومه ، ويكره أن يخالفهم ، وكان يكتنم إسلامه ، وكان ذا مال كثير متفرق في قومه ، وكان أبو لهب (عدو الله) قد تخلف عن بدر ، وبعث مكانه (العاصي بن هشام بن المغيرة) وكذلك صنعوا ، لم يتخلف رجل إلا بعث مكانه رجلاً ، فلما جاء الخبر عن مصاب أصحاب

بدر من قريش كبته الله وأخزاه ، ووجدنا في أنفسنا قوة وعنوة ، وكنت رجلاً ضعيفاً ، وكنت أعمل القداح أنحتها في حجرة زمزم ، فوالله إنى لجالس فيها أنحت القداح ، وعندى أم الفضل جالسة ، وقد سرنا ما جاءنا من الخبر إذ جاء الفاسق أبو لهب يجر رجله بشر حتى جلس على طنب الحجرة فكان ظهره إلى ظهري ، فبينما هو جالس إذ قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم ؛ قال أبو لهب : هلم إلى يا ابن أخى ، فعندك الخبر ، فجلس إليه والناس قيام عليه ، فقال : يا ابن أخى ، أخبرنى كيف كان أمر الناس ؟

قال : لا شىء والله ، إن كان إلا أن لقيناهم فمحنناهم أكتافنا يقتلوننا ويأسروننا كيف شاءوا ، وإيم الله مع ذلك ما لمت الناس ، لقينا رجلاً بيضاً على خيل بلق ما بين السماء والأرض ما يليق لها شىء ولا يقوم لها شىء ، قال أبو رافع فرفعت طنب الحجرة بيدي ثم قلت : تلك الملائكة .

وكان من بقية القصة : أن أبا لهب ضربه ، ودافعت عنه أم الفضل .

والسبب في إسلام أبى رافع دخول الإسلام أهل البيت : أسلم العباس وامراته أم الفضل - رضى الله عنهما - فأسلم الغلام ، مولى العباس ، ومولى القوم منهم كما قال - ﷺ - .

وقد رأينا دفاع أم الفضل عنه - ﷺ - لم تقل إنه عبد ، فليضربه أبو لهب ما شاء ، فهو أخو سيده وإنما هبت في أبى لهب ، وهذا يدلنا على أثر المعاملة الطيبة بين أهل البيت .

إن سوء المعاملة بين الرجل وأهله ، أدى بالأولاد إلى ترك البيت ، وإلى الخروج منه بلا عودة ، وقد قال النبي - ﷺ - في الصحيح : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » .

ولقد سئلت فتاة تزوجت دون علم وليها ، لماذا فعلت هذا ؟

فقلت : أنا أدرى بمصلحتي منه ، لقد هجرني وأمى ، ولم ينفق عليّ ، ولم يشعر ذات يوم أن له ابنة كبرت ودخلت الجامعة ، ولها زميلات يرتدين أحدث الأزياء ، ويبلعن الطعام بالغازي من الماء ، ويشترين كذا وكذا ، وحين ذهبت إليه أستعطفه قال : عودي إلى أمك ، وكان بين يديه طبق فيه صنوف من الفاكهة لم يعطني ثمرة منها ، وكنت جائعة ، هذا ليس أباً ، إنما هو سلطان أذى . ولو أنى أرشدت خطيبي إليه ، لا اعتراض من باب الأذى لا من باب عدم كفاءته ، لذلك زوجني خالي ، وقد جاء معترضاً مهتداً ، ولكنني والحمد لله كنت قد تجاوزت الحادية والعشرين من عمري ، فلست بقاصر يتحكم فيّ ، قال وهو يتوعدني وأمى وخالي : لقد اغتصبتم حقى ، أنا أبوها فقلت له : يا أبت ، ألم يغتصب حقك خالي حين رباني وأنفق عليّ وجهزني ، فلماذا تركت هذا الحق يغتصب ، وأنت راض غير معترض ، وجئت اليوم تطالب بحقك .

إن هذا الضياع والتمزق يضر ولا ينفع ، ويفرق ولا يجمع ، وهو فرصة للشياطين ، لقد تزوجت هذه الفتاة ، لكن غيرها انحرفت وصادقت وزنت ولا عذر لها ، ولكن على من ضيعها إثم مبين .

لقد ذكرنا إسلام الأخوين (حويصة ومحيسة) وإسلام (الطفيل بن عمرو الدوسي) وأبيه وزوجته ، وإسلام من أسلم من الأنصار لإسلام سعد بن معاذ وكل ذلك آيات ناطقة بأثر التواصل والتراحم بين أفراد الأسرة والمجتمع ، ونحن في زمان كثرت فيه العلل والأمراض ، علل التمزق والقطيعة وهى هدف أعداء هذا الدين الذين هم أعداء الحياة ، الذين قالوا : فرّق تسد ، فهل إلى التئام الشمل من سبيل : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾⁽¹⁾ .

* * *

الفصل الثالث

الإسلام في عقول الصحابة

مما سبق يتبين لنا : أن الإسلام كما عرفه الصحابة دين يدعو الناس إلى عبادة الله ، الذي شهد الكون المرئى بالأعين المجردة له بالوحدانية ، قبل أن تخترع الآلات الحديثة ، والتي بواسطتها نرى ما لا يرى بها ، فأقل كلمة معبرة عن الدقة في كتاب الله تعالى « الذرة » وقد جاء التعبير بها فوقها وما تحتها ليتسع لكل زمان .

وصلاح الكون ونظامه دليل على وحدانية الله - ﷻ - ففي سورة الأنبياء - آية 22 : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ .

والعين ترى الألوان والظلال ، وسائر النعم ، ما كان لبشر أن يأتي بها ، أو أن يتدخل فيها ، وفي سورة الرعد - الآية 4 : ﴿ فِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

فمناط الأمر : النظر والتفكير في المحسوس المادى الذى تراه العين ، ويتذوقه الفم ، ويشعر به البدن ، وهو يؤدى إلى ما وراءه من الغيب الذى أخبر به الله - ﷻ - .

ومنهج القرآن دائماً : الربط بين الحسى والمعنوى ، والدنيا والآخرة ، فالدنيا بما فيها من قدرة الله تعالى دليل على الآخرة وما فيها من قدرته أيضاً .

ولو أننا دعونا أبناءنا إلى الله تعالى وفق المنهج لسلمنا من كل آفة ، فأبناءنا يأكلون الحلو والحار ، وكل يخرج من أرض واحدة ، ويسقى بماء واحد ، والزارعون للفواكه لا يضعون في الماء الذى تسقى به أشجارها سكرًا ولا غيره ، فمن الذى أودع فيها الخلاوة ... وهكذا . وإذا قلنا وقالوا معنا : سبحان الله ولا إله إلا الله وجب ربط ذلك بقدرته - وَجَلَّ - على البعث والحساب ، فعلى أى شىء يكون الحساب ؟

إنه على العمل ، فلنعمل الصالحات ، ولنبتعد عن السيئات كما أمرنا ربنا - وَجَلَّ - .

هذا هو منهج الإسلام ، وخطابه الواضح البسيط ، فلا تكلف ولا فلسفة ولا بعد فى التأويل ولا فى غيره .

فالحق تعالى يقول فى سورة الواقعة : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۚ ؕ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ۚ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۚ ١ ﴾ أى شىء أقرب فى الرؤية من كوب ماء أمامك دائماً ، إنه آية من آيات قدرة ربك ، أنزله إليك كما أنزل كل شىء ، وأنت تشربه بقدرته مستساغاً ، فاعلم أنه - وَجَلَّ - قادر على أن يجعله ملحاً لا يُشْرَب ، فاشكر الله - وَجَلَّ - كيما يظل مستساغاً .

(1) سورة الواقعة : 68 - 70 .

والشكر الذى يحفظ عليك الماء الذى لا حياة لك بدونه يزيدك أيضاً من النعم ، قال تعالى فى سورة إبراهيم : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۚ ١ ﴾ .

والنفس البشرية مجلوبة على حب الزيادة ، فلو كان لابن آدم واد من ذهب لتمنى عليه آخر ، ولو كان له واديان لتمنى ثالثاً وهكذا ، وقد قال الشاعر من قديم :

نروح ونغدو لحاجاتنا وحاجات من عاش لا تنقضى

والإسلام لم يحرم على الناس طلب الزيادة ، بل إن من فكره أن النقص كالعدم ، ومما دعا به النبى - ﷺ - : « اللهم زدنا ولا تنقصنا » ، لقد عرف الصحابة الإسلام ديناً يدعو إلى التأمل فى الكون ، والنيل من خيراته وشكر المنعم - وَجَلَّ - استقامة على العيش فيه ، وطلباً للزيادة من كنوزه وخيراته .

الإسلام والرسالات السماوية السابقة :

والذين أسلموا من أهل الكتاب عرفوا الإسلام ديناً كاملاً مكملًا لرسالات الأنبياء السابقين ، بل إنه يستشهد بهم على صدقه ، قال تعالى فى آخر آية من سورة الرعد : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ۚ ٢ ﴾ .

(1) سورة إبراهيم : 7 .

(2) سورة الرعد : 43 .

فالإسلام لا ينتقص دعوة سماوية ، ولا يسب أحداً آمن قبله ، ولا يفرق بين أنبياء الله ورسله ، قال تعالى في خواتيم سورة البقرة : ﴿ ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَكَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ ﴾¹ .

وحين سمع (عبد الله بن سلام) بقدوم النبي - ﷺ - إلى المدينة وكان فوق نخلة له ، كبر من عل ، وكانت تحت النخلة عمته ، فصاحت وقالت : لو كان (موسى بن عمران) هو الذى قدم ما زدت على ذلك ، وكان يهودياً ، وكأنها تقول له : أى فرق بين فرحك بقدوم محمد ، وفرحك بقدوم موسى !

فما كان منه - ﷺ - إلا أن قال لها - إنه أخوه .

أى : إن محمداً أخو موسى - عليهما السلام - فلا فرق ، كلاهما يدعو إلى الله .

وحين سمع النجاشى ملك الحبشة دعوة محمد - ﷺ - والتي عرضها (جعفر ابن أبى طالب) - ﷺ - قال :

« إن هذا والذى جاء به عيسى ، يخرجان من مشكاة واحدة » أى من مصدر واحد وكان نصرانياً .

فأى شىء ذلك الذى عرضه جعفر ، والذى يدلنا على ما جاء به عيسى عليه السلام ؟

إنه وفق ما قاله جعفر يتلخص فيما يأتى :

(1) سورة البقرة : 285 .

- 1- عبادة الله وحده .
- 2- حسن الجوار .
- 3- صلة الأرحام .
- 4- رحمة القوى بالضعيف .

ولكل شىء من هذه المعالم مقتضاه الذى لا تتسع له المجلدات ، فعبادة الله تعالى تقتضى السمع والطاعة والإخلاص ونبذ الشرك وسوء الاعتقاد والتوكل عليه وحده ، والاعتصام بحبله المتين وصراطه المستقيم ، وطاعة رسله وتوقيعهم والأدب معهم ونصرتهم ، واتباع سنتهم .

وحسن الجوار يقتضى البذل عند الحاجة ، وإهداء المعونة والنصح للجار ، والسؤال عنه ، وعدم التضيق عليه ... وغير ذلك .

وصلة الأرحام تقتضى السؤال عنهم وإعانتهم ، ومدّهم بما يحتاجون إليه ، وهم أولى بالمعروف من غيرهم ، وإصلاح معاشهم ، وقد تكون الصلة بالسؤال إذا كانوا أغنياء .

ورحمة الغنى بالفقير والقوى بالضعيف ، مما تقتضيه العطف عليه ، وإقراضه إن احتاج قرضاً حسناً ، وإنظاره حين ميسرة إن كان ذا عسرة ، والتصدق عليه إن عجز عن السداد ، وحمله ومنحه ما يحمله وعدم السخرية منه ، والتكبر عليه ، وظلمه وبخسه حقاً من حقوقه ... وغير ذلك .

وهذه الأسس كفيلة بأن تحقق ما يسمى : المواطنة والمعايشة ، وتأسيس مجتمع متضامن متعاون على البر والإحسان والتقوى .

وقد جاءت الأحاديث النبوية الشريفة مؤكدة أخوة الرسل ، وأنهم أبناء عَلاّت ، أبوهم واحد وأمّهاتهم شتى ، أى أن دعوتهم واحدة .

ونهى النبي - ﷺ - أصحابه عن تفضيله على واحد منهم ، قال - ﷺ - :
 « لا تفضلوني على موسى - عليه السلام - » ، وقال في يونس - عليه السلام : « هو
 نبي وأنا نبي » ، وقد قال العلماء في ذلك : إن السر في عدم التفضيل ألا يظن أن في
 الفضول نقصاً ، وكلهم صلوات الله عليهم معصوم ، توافر له ما توافر لإخوانه من
 الصدق والأمانة والتبليغ والفتانة .

وهذا كله من صلب الإيمان والعقيدة ، لا من الأدب واللياقة ، فالمسلمون
 يؤمنون برسل الله جميعاً لا يكفرون بأحد ، بل إنهم يؤمنون برسل الله جميعاً ،
 لا يكفرون بأحد ، بل إنهم يؤمنون بمن لم يأت ذكره في الكتاب العزيز : ﴿ وَرُسُلًا
 قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾¹ .

إسلام المقاصد :

والإسلام الذي عرفه الصحابة وآمنوا به هو : إسلام المقاصد والغايات ،
 الذي يعول على النية ، ويعتد بها ، وبها بدأ أصحاب الحديث كتبهم ، والمؤلفون
 خطبهم : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » .

وقد ذكر (المناوي) - رحمه الله - في « فيض القدير » شرحه الجامع الصغير -
 أن النية يدخل فيها ثلث الفقه ، وقد كان - رحمه الله - طويل النفس في ذكر
 الأبواب التي تدخل فيها النية ، ومنها :

- تمييز القتل الخطأ من القتل العمد .

(1) سورة النساء : 164 .

- وأخذ الدائن مال المدين بقصد الاستيفاء أو السرقة ، فيقطع في الثاني لا الأول .
- وفي اللُّقطة بقصد الحفظ أو التملك .
- وفي عصير العنب بقصد جعله خللاً أو خمرًا .
- وترك المرأة زيتها وطبيها فوق ثلاث ، إحداً على ميت غير زوجها ، إن قصدت الإحداً كان حراماً وإلا فلا .
- واستعمال الحلى بقصد الزينة ، أو بقصد الكنز فلا إثم في الأول ، ولا في الثاني إن خرجت زكاته .
- ومن باع ماله قبل الحول فراراً من الزكاة .
- ومما ذكره العلماء أن المسلم يكفيه في دينه أربعة أحاديث :

- 1- الأعمال بالنيات .
- 2- ومن أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد .
- 3- والحلال بين والحرام بين .
- 4- ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه .

ومنهم من ذكر « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً » .

وقال أبو داود : مدار السنة على أربعة أحاديث . حديث : « إنما الأعمال بالنيات » وحديث : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » وحديث : « الحلال بين والحرام بين » وحديث : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً » .

والمقاصد الأساسية في الإسلام خمسة : الدين ، والنفس ، والعقل ، والنسل ، والمال .

وعليها قوام الحياة ، أى : أن حياة الناس تتوقف عليها ، وهى منحصرة دون زيادة ونقص وعليها الضرورة ، وهى تسمى : مصالح ضرورية ، بحسب قوتها .
والمصلحة جلب المنفعة ودفع المضرة .

وقد اتفقت كلمة العلماء على وجوب الاقتصار فى الأمور التعبدية على ما ورد عن الشارع من غير زيادة أو نقص ؛ لأن وسائل رضا الله لا تعرف إلاّ منه سبحانه .
وقد عرف الصحابة الإسلام بأنه : دين العمل والسعى على الرزق وتيسيره وتدبيره ، وأنه ليس انقطاعاً للذكر والصلاة . بين لهم النبى - ﷺ - ذلك حين رأى رجلاً ملازماً للمسجد ، فسأل : « أيكُم يكفله ؟ » .

فلما قالوا : كلنا يا رسول الله قال : « كلكم أفضل منه » .

وقد ذكر - ﷺ - أن من الذنوب ذنباً لا يكفرها إلاّ الاهتمام بالرزق والانشغال به ، وقد أدرك هذا المعنى الإمام الشافعى حين قال : ينبغى للمسلم أن ينشغل بأمرين : درهم لمعاشه ، وحسنة لميعاده .

وهذا هو الذى أسميه : المعادلة فى الإسلام ، والتوازن بين صالح الدنيا وصالح الآخرة .

وقد جاء أنس بن مالك بأخيه الوليد إلى النبى - ﷺ - ليحنكه بتمره ويدعوه على عادة الصحابة معه - ﷺ - وكان رسول الله - ﷺ - يطلى جملاً له بالقار ، يصلمه بيده الشريفة ، فلما رأى أنساً قادماً بأخيه سأل :
- أمعه تمر ؟

قال : نعم .

فحنكه - ﷺ - - ودعا له ، ثم عاد فأكمل عمله .

وعرف الصحابة الإسلام صوناً للنفس التى حرم الله قتلها إلاّ بالحق : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْآلَبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾¹ . وصوناً للملكية فلا يحل مال امرئ مسلم إلاّ بطيب نفس منه ، وصوناً للأعراض : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » وسموا بالنفس والنأى بها عن الإهانة والذل « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود - عليه السلام - كان يأكل من عمل يده » .

وعرف الصحابة الإسلام رغداً فى عيش ، وسعة فى طلب الرزق ، واستمتاعاً بما أحل الله - ﷻ - وعلى المدى البعيد قام - ﷺ - ضاحكاً مما أراه الله من مستقبل أصحابه حيث يركبون البحر ، فقالت صحابية جليلة : ادع الله أن أكون منهم ، فدعا لها ، فركبته ولقيت ربها شهيدة .

ومنذ فجر الدعوة والنبى - ﷺ - - يخبر أصحابه بأن الله - ﷻ - سيظهر دينه وسيمضى السارى من أقصى الأرض إلى أقصاها لا يخشى إلاّ الله والذئب على غنمه ، وبشرهم بالفتح وهل الفتح ، إلاّ مزيد من الخيرات التى يحصل عليها الفاتحون بأمر الله ، بلاد الله دون عدوان ولا إراقة دماء ، وإنما هو سعى لنشر الخيرات وإقام الصلوات ، والنهل من الطيبات .

وقد عرفوا الزهد : عزوفاً عن الترف والبطر ، مع توافر أسباب الحياة ، فليس الزاهد من ينام عن طلب الزينة والرزق الواسع ، وإنما الزاهد من جمعت يدها وانصرف هواه إلى ما عند الله ؛ فما عند الله خير وأبقى .

(1) سورة البقرة : 179 .

وكيف تصوم طاعة لله - ﷻ - وأنت تسيء إلى عباد الله الذى أمرك بالإحسان .

إسلام الإحسان :

والإسلام الذى عرفه الصحابة هو إسلام المحسنين ، وقد شاع استعمال الإحسان فى الصدقة ، ولا بأس بذلك ، لكن الإحسان يتسع لكل عمل يتقنه صاحبه ، فالله - ﷻ - يجب إذا عمل أحدنا عملاً أن يتقنه ، كما جاء فى الصحيح عنه - ﷺ - وفى رواية ذكرها الإمام (ابن أبى حمزة) فى كتابه بهجة النفوس « إن الله لا يقبل من العمل إلا المتقن » .

والإتقان مطلوب فى كل شىء ، وهو يقتضى العلم بالصناعة ؛ لأنك لا تستطيع إتقان عمل وأنت جاهل به ، وقد ذكر (السهيلي) فى « الروض الأنف » أن النبى - ﷺ - رأى شاباً يسلخ شاة وهو لا يعرف ، فقال له - ﷺ - « تنح أعلمك » ، ووضع يده الشريفة بين الجلد واللحم وسلخها فعلمه - ﷺ - .

وقد ذكر هو وغيره كابن هشام فى سيرته أن النبى - ﷺ - قال يوم أحد : « من كان عنده كنانة فلينثرها أمام أبى طلحة » وكان - ﷺ - يجيد الرمى ، ومن أجاد الرمى احتاج إلى سهام يرميها ؛ لأنه لن يرمى هواء فى هواء ؛ ولذا قال - ﷺ - « من كان عنده كنانة فلينثرها أمامه » ، أى من كان لديه جعبة فيها سهام ، فليخرج السهام منها أمام الأستاذ الذى يستطيع أن يسدد بها فى عمق الأهداف .

وهذا المعنى يمتد إلى استثمار الأموال . فمن كان له مال فليعطه من يحسن استثماره على سبيل الشركة أو المضاربة ، وما أكثر صور الاستثمار ، وقد ترك النبى - ﷺ - نخيل خيبر لليهود ؛ لأنهم أعلم بزراعة أرضهم على المشاركة فى الربح .

ومما أخبر به المعصوم - ﷺ - عن الله - ﷻ - أن الله - تعالى - يكره لنا إضاعة المال ، وكما يكون إضاعة المال بالإسراف يكون بالإتلاف ، فرب صاحب مال يتلفه بجهله بالصناعة التى يضعه فيها أشد من مسرف ، ووضع الشىء فى غير موضعه تبذير ، وقد قال الله - تعالى - ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾⁽¹⁾ فمن كفر النعمة أن تضعها معرضة للتلف .

ومن الإحسان كما جاء فى حديث عمر بن الخطاب - ﷺ - « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك » .

وهو من جوامع الكلم التى أوتيتها - ﷺ - ومعناه : منتهى المراقبة التى تسفر عن منتهى الإتقان ، لأن المسلم إذا وضع نُصْب عينيه دائماً أن الله - ﷻ - مطلع عليه ، أدى عمله بإتقان .

والآن ، الناس جميعاً ليسوا على هذه الدرجة من نور البصيرة ، لزم أن يراقبهم سلطان يزع الله به من السوء والإهمال والتقصير ما لا يزع بالقرآن كما قال عثمان - ﷺ - والذى لا يحتاج إلى رقيب من الناس لا يضره وجود الرقيب .

وفى القرآن الكريم جملة حالية تقوم مقام الشرط لإسلام الوجه لله . - ﷻ - وهى « وهو محسن » فى قوله تعالى : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾⁽²⁾ ، وقوله عز من قائل : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّهُمْ عَادُوا لَهُ عَدَّةً ﴾⁽³⁾ .

(1) الإسراء : 27 .

(2) البقرة : 112 .

(3) التوبة : 46 .

فدّم المنافقين ، وبين كذبهم في إعلانهم رغبة الخروج مع رسول الله - ﷺ - في تبوك ، بأنهم لو كانوا صادقين لأعدوا العدة قبل اللقاء والخروج ، فلما لم يعدوا تلك العدة كانوا كاذبين . إن رجلاً وعده النبي - ﷺ - بالهجرة معه فرح وبكى فرحاً وأدى به فرحه إلى أن يعد راحلتين ، إنه الصديق - ﷺ - الذي عرف معنى الفرح في الإسلام .

فليس الفرح انشراح صدر وإحساساً بالارتياح ، ثم يعقب ذلك نوم وخمول وتكاسل ، وإنما الفرح : إحساس يدفع إلى استحقاق الفضل والثواب ، وتوافر أسباب السعادة . إن فرح الشباب يوم العرس عند الذين يفهمون هذا الدين بداية لمسئولية ، وانطلاق إلى إنفاق ، وليس فرح ليلة أو ليال بعدها يكون الطلاق .

وليس من إسلام الوجه لله أن يقول صاحب الحق : حسبي الله ونعم الوكيل ، تاركاً حقه يضيع ، غير مطالب به ، غير رافع أمره إلى القضاء إن تعذر الحصول عليه قبل رفعه إلى القضاء ، وصور الإساءة مع ادعاء إسلام الوجه لله - ﷻ - كثيرة .

إمامة المعاني :

والإسلام الذي عرفه الصحابة إسلام المعاني ، وأعنى بإسلام المعاني : بيان الصفات والأعمال دون ذكر الأعلام والأسماء ، فلا فرق بين عربى وأعجمى إلا بالتقوى ، وعموم ألفاظ القرآن الكريم «الذين» و«مَنْ» فالله تعالى يقول : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى هُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾¹ .

(1) البقرة : 262 .

ويقول تعالى في سورة الأنعام : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾¹ .

فمن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، فمن الذى جاء بها ؟ أهو محمد أم عمر أم عصمت أم زينب أم رقية أم داليا .

المهم أن يأتى الإنسان بالحسنة ، ولم يأت ذكر أحد بالاسم سوى « زيد » في قوله تعالى من سورة الأحزاب : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾² . لأن القضية خاصة ومحددة ، أما سائر الأساليب فعلى ألفاظ العموم ، وهو مما يقوى القاعدة المعروفة وهى : أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ؛ فالآية تنزل في رجل أو امرأة ، ولكنها تعم جميع الناس إلى يوم القيامة ، قال تعالى :

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۚ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۚ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۖ إِلَّا أَتْبِعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ۚ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۚ ﴾³ ، في خواتيم سورة الليل ، وقد قال العلماء : إنها نزلت في أبى بكر - ﷺ - لكن معناها باق يندرج تحته كل من اتقى الله - ﷻ - وتصدق لوجهه الكريم ، فكل من اتقى الله - ﷻ - وتصدق بماله لوجه ربه موعود من الله الذى لا يخلف وعده بأن يجنبه ناراً تلظى .

وهذا المنهج يوسع الدائرة أمام أصحاب العقول ، والمسلمون بحق هم أصحاب العقول النيرة ، التى لا تضيق ما وسعه الله - ﷻ - ولا يوضح ذلك أقول :

(1) الأنعام : 160 .

(2) الأحزاب : 37 .

(3) الليل : 17 - 21 .

لقد قال الله - ﷻ - في الآية الكريمة: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾⁽¹⁾.

فمن هم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؟ والجواب في الآية التي تليها مباشرة، وذلكم قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾⁽²⁾، والذين اسم موصول، وهو من أسماء العموم، ويحتاج إلى صلة لا يفهم معناه بدونها، وصلة الموصول «آمنوا وكانوا يتقون» فكل مؤمن تقى ولى من أولياء الله. فليس من الإنصاف والفهم السليم للنص القرآني أن نقصر الولاية على أصحاب الأضرحة، والمقامات، وأن هؤلاء الأولياء ومن سواهم ليسوا أولياء، بل إنهم قد يكونون مريدين ومحبين إذا تعلقوا بستائر أضرحتهم وتراهم.

إن الولي في كتاب الله - ﷻ - هو: كل مؤمن تقى عربياً كان أم أعجمياً، أبيض كان أم أسود، طويلاً كان أم قصيراً، عالماً بحراً علامة أم أمياً. لا يكتب ولا يقرأ، رجلاً كان أم امرأة.

وقد جعل الله - ﷻ - امرأة فرعون ومريم بنت عمران مثلاً للمؤمنين والمؤمنات، حيث قالت امرأة فرعون: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾⁽³⁾، وحيث حصنت مريم بنت عمران فرجها، فلم يحصنها زوج، وإنما حصنتها عفتها وقد جعلها الله - ﷻ - آية.

(1) يونس: 62.

(2) يونس: 63.

(3) التحريم: 11.

وهذا التوجيه الذي ذكره ربنا - تعالى - فيه تكريم للمرأة وسموها، فلا تشغل بإمامة الجسد، وإنما يجب عليها أن تشغل بإمامة المعنى، فلا يغض من قيمتها أن تكون في آخر الصفوف في الصلاة إذا كانت في أولها معنى، فلا يضر من وقف في آخر الصف أن ينادى قبل غيره، وأن تجاب حاجته وتقضى قبل الذي يقف في أوله، فالعبرة بالمعاني لا بالأجسام.

« ورب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره ».

هكذا قال النبي - ﷺ - فالعبرة إذن ليست بالوجه والمظهر.

ومخطئ من ظن أن الوجهة مذمومة في شرع الله - كيف وقد مدح الله تعالى عيسى بن مريم - ﷺ - في سورة آل عمران بقوله: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾⁽¹⁾.

وقد كان النبي - ﷺ - أوجه الناس خلقاً وخلقاً، لبس الجميل، وتطيب بأطيب الطيب كما روت عائشة زوجته - رضى الله عنها - وقد قال فيه أبو بكر - رضى الله عنه - « طبت حياً وميتاً ».

فإن قولنا: إن العبرة بالمعاني لا ينافي طيب المظهر والعناية بالشكل، وقد قال الصحابة - رضوان الله عليهم - للنبي - ﷺ - : إن الرجل فينا يحب أن يكون حسناً في ثيابه ونعله، فلم ينكر ذلك الحب عليهم، ولم يدعهم إلى خلع الحسن من الثياب وارتداء البالي، وإنما أخبر - ﷺ - بأن الله - ﷻ - يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، وبين لهم أن النهي إنما هو عن التكبر والخيلاء، وقد كان أبو بكر - رضى الله عنه - طويل الثوب وخشى من جره حيث يؤدي إلى غضب الله، فقال له - ﷺ - : لست

(1) آل عمران: 45.

منهم يا أبا بكر ، أى : أنت لست من هؤلاء الذين يجرون أثوابهم خيلاء ، فالنية معتبرة بلا شك ، وكذا نية العناية بالشكل باعتباره لسان تحدث بالنعمة ، والله - **وَعَلَى** - يقول في سورة الضحى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ 》⁽¹⁾ .

إسلام الستر الصحيح :

سمع (صفوان بن أمية) أن مَنْ أسلم ولم يهاجر فلا إسلام له ، فانطلق إلى المدينة مهاجراً يسأل النبي - **ﷺ** - عن حقيقة ما سمع ، وعلم منه أن لا هجرة بعد الفتح ، فاطمأنت نفسه وقرر العودة إلى مكة ، ونام صفوان في المسجد ، ووضع ثوبه تحت رأسه ، فجاء رجل وسرق الثوب فانتبه صفوان وأمسك به وذهب به إلى النبي - **ﷺ** - فأمر بقطع يده ، وأراد صفوان أن يعفى الرجل من هذه العقوبة فقال يا رسول الله هو له ، أى أنا متنازل عن الثوب ، ولا داعى إلى قطع يده فقال له - **ﷺ** - : كان ذلك قبل أن تأتيني به .

من هنا يتضح لنا معنى الستر ، أن يستر المسلم على أخيه المسلم قبل رفع الأمر إلى القاضي ، فإذا رفع إليه فلا شفاعة ، قال (ابن عابر البر) في « التمهيد » (11 / 224) : لا أعلم بين أهل العلم اختلافاً في الحدود إذا بلغت إلى السلطان لم يكن فيها عفو ، لا له ولا لغيره .

وجائز للناس أن يتعافوا الحدود ما بينهم ما لم يبلغ السلطان ، وذلك محمود عندهم .

وقد وردت نصوص كثيرة وآثار صحيحة في فضل الستر ، ومنها حديث عبادة ابن الصامت يقول : قال رسول الله - **ﷺ** - : « إن الله ليستر العبد من الذنب ما لم يخرقه ، قالوا وكيف يخرقه يا رسول الله ؟ قال : يحدث الناس به » .

وما رواه مالك في الموطأ عن (يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب) أنه قال : بلغنى أن رسول الله - **ﷺ** - قال لرجل من أسلم يقال له هزال : « يا هزال ، لو سترته بردائك لكان خيراً لك » ، قال ابن عابر البر : وهذا الحديث يستند من طرق صحاح .

ومن ذلك حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله - **ﷺ** - « من نَفَسَ عن مسلم كربة من كرب الدنيا ، نَفَسَ الله عنه كربة من كرب الآخرة ، ومن يسر على مسلم ، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر على مسلم ، ستر الله عليه في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ، ما كان العبد في عون أخيه » .

ومن ذلك حديث عقبة بن عامر أن رسول الله - **ﷺ** - قال : « من ستر عورة مؤمن ، كانت له كموءودة أحياءها » .

ومن ذلك حديث عائشة - رضى الله عنها - أن النبي - **ﷺ** - حلف على أربعة منها من ستر عبداً في الدنيا ستره الله يوم القيامة .

ولكن ما معنى هذا الستر ؟ أهو ستر على مجرم يسمح له بإجرامه وتعديه ، واستمراره على شره الذى يهدد به الناس ؟

جواب ذلك في حوار دار بين (أبى الهيثم وبين عقبة بن عامر) أحد الذين رووا في الستر كما ذكرت ، فقد قال (أبو الهيثم) لعقبة : إن لنا جيراناً يشربون الخمر ، وأنا داع لهم الشُّرْطُ فيأخذونهم ، قال عقبة : لا تفعل ، ولكن عظمهم وتهدهم ، ومعنى ذلك أن الذى يستر مسلماً يقوم بتهديده بعد مواعظته ، ولو رآه يسرق مالا ستره بأن يأخذ ذلك المال ويرده على صاحبه ، ويعظه ويهدده إن عاد إلى السرقة أن يرفع أمره إلى القضاء ... وهكذا ، فليس معنى الستر أن تكتم أمره ، وتتركه يسعى في الناس بفساد .

والستر لا يؤدي إلى غش وخداع ، وقد ثبت أن أم سلمة - رضي الله عنها - قالت للنبي - ﷺ - حين خطبها : إني امرأة أغار ، ولى صبية ، وأهلى غائبون فرد عليها النبي - ﷺ - بأنه يدعو لها بذهاب الغيرة ، وأن الله - ﷻ - يرزقها وصبيتها وأن أهلها لم يعترض أحد منهم عليه - ﷺ - فقالت لابنها : قم يا عمر ، وزوج رسول الله - ﷺ - .

ما كانت أم سلمة لتشيع في الناس أنها غيور ، ولا أن لها أولادًا (عمال على بطل) وإنما حين جد الجد كان لابد من البيان والتوضيح ، وقد ستر الرجل غلته التي أصابها بلل المطر ، فلما اكتشفه النبي - ﷺ - قال حديثه المحفوظ : « من غشنا فليس منا » .

الجمال في الإسلام :

وفكرة الجمال في الإسلام ترجع إلى صحة العقيدة ، وحسن إسلام المرء ، والنظافة والطهارة بقسميها : الحسية والمعنوية ، والجمال وصف لكل إحسان ، فما أجمل المسلم في حركته وسكونه ، وحله وارتحاله ، ومعاشرته ووداعه ! وقد قال الله - ﷻ - : ﴿ فَتَعَالَى أُمِّتُكُنَّ وَأُسْرِحُكُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾¹ .

وفي سورة المزمل : ﴿ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾² .

كل شيء في هذا الدين جميل ، فلا يعرف القبح سبيلاً إليه .

(1) الأحزاب : 28 .

(2) المزمل : 10 .

ومما نعت به الصحابي الحسن ، يقول المؤرخون وأصحاب السير في الرجل من الصحابة : « وأسلم ، فحسن إسلامه » فالحسن مترتب على الإسلام ، لأن كل ما يدعو إليه الإسلام حسن جميل .

وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعري : أن أفضل ما يتحلّى به المسلم ، أن يسلم الناس من لسانه ويده ، وهذا معلم من معالم إسلامه ، يعد دليلاً شافياً على جماله المنبثق من جمال دينه .

إنه يذكر من سابه أو شتمه بأنه امرؤ صائم ، وليس من أخلاق الصائم أن يرد على السوء بالسوء ، ثم إن هذا ليس خلق المسلم في نهار صومه ، يصح له أن يتحلل منه بعد قضاء صومه ، بل إنه خلق المسلم الدائم ، بدليل سورة فصلت : ﴿ أَذْفَعَ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾¹ .

وتلك سنة النبي - ﷺ - لأن خلقه القرآن ، وقد ثبت أنه - ﷺ - لم يغضب لنفسه أبداً ، وإنما كان يغضب إذا انتهكت حرمت الله .

وقد روى (السيوطي) في «الجامع الصغير» (حديث رقم 1520) عن عقبة ابن عامر أن رسول الله - ﷺ - قال : « اللهم ، إني أعوذ بك من يوم السوء ، ومن ليلة السوء ، ومن ساعة السوء ، ومن صاحب السوء ، ومن جار السوء في دار المقامة » .

وقد استعاذ النبي - ﷺ - من جار السوء في دار المقامة أي الاستقرار والديمومة ، لأن جاراً سيئاً في رحلة سفر قصير يمكن تحمله ، والتغاضي عن سوء

(1) فصلت : 34 .

إنه الإسلام الذى عرفه الصحابة : دين حياة ، لا دين موت ، يدعو ربنا تعالى ورسولنا - ﷺ - كما جاء فى سورة الأنفال إلى الحياة : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾¹.

وعرفه الصحابة : نية سليمة ، ومقاصد سامية ، تناشد السواعد القوية والنفوس الأبية ، إلى أن تتحقق واقعاً لا خطباً . إنه الدين الذى لا يعرف المفارقة بين القول والعمل ، قال تعالى فى سورة الصف : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾² كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ³ . وهو الدين الذى ورد فيه ذكر الجنة باعتبارها : حديقة على أرض الدنيا قبل أن تكون نعيماً على ذهب الآخرة وفضتها ، ولا حديقة مع القتل والدماء ، ولا طمس الأنهار وإهدار الماء ، وإنما الحديقة لمن أصلح أرضه ، وشق نهره ، وغرس شجره وتوكل على الله - ﷻ - حق توكله .

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾³ .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد ، وعلى آله الطيبين ، وصحبه الغر الميامين ، ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين .

* * *

(1) الأنفال : 24 .

(2) الصف : 2 ، 3 .

(3) آل عمران : 8 .

أهم مصادر البحث

- (1) القرآن الكريم .
- (2) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم لأبى السعود محمد العمارى الحنفى - بتحقيق : عبد القادر أحمد عطا ، ط الرياض الحديثة 1982 .
- (3) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير ، ط التوفيقية ، 2003 م .
- (4) الأم للإمام الشافعى - ط المكتبة التوفيقية .
- (5) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر - دار الكتب العلمية بيروت الثانية ، 2002 م .
- (6) البداية والنهاية لابن كثير - بتحقيق : محمد عبد العزيز النجار - ط دار الغد العربى ، ط الثانية 1990 م .
- (7) التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد لابن عبد البر - ط مكتبة ابن تيمية .
- (8) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية لسليمان العجيلي الشهير بالجمل - ط عيسى البابى الحلبي .
- (9) الكشف للزمخشري - ط مصطفى الحلبي ، 1972 م .
- (10) المغازى للواقدي محمد بن عمر بن واقد - ط دار ابن خلدون .
- (11) تاريخ الطبرى - ط التوفيقية .
- (12) ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة للطاهر أحمد الزاوى - ط عيسى الحلبي .
- (13) تفسير الطبرى - ط التوفيقية 2004 (جامع البيان فى تأويل الأحكام) .
- (14) سنن أبى داود - ط دار الحديث ، القاهرة .
- (15) سنن النسائى بشرح الحافظ : جلال الدين السيوطى وحاشية الإمام السندى - ط دار الريان للتراث 1987 م .

(16) صحيح البخارى بحاشية السندى - ط دار إحياء الكتب العربية .

(17) صحيح مسلم بشرح النووى - ط دار الفكر 1929 م .

(18) فتح البارى بشرح صحيح البخارى للحافظ : أحمد بن حجر العسقلانى - ط دار التراث، المكتبة السلفية .

(19) فقه السيرة للغزالي - ط دار الرحمة 2003 م .

(20) لسان العرب لابن منظور - ط دار المعارف .

(21) معانى الآثار للطحاوى بتحقيق : محمد زهرى النجار - ط دار الكتب العلمية ، بيروت الثالثة ، 1996 م .

(22) هذا الحبيب محمد يا محب لأبى بكر جابر الجزائري - ط دار الفجر ، 2003 م .

* * *

المحتوى

فى زمان التشعب فى الفروع ، وغلجان التشتت تحت الضلوع ، نحتاج إلى معرفة الأصول ، والعودة إلى المبدأ والمنبع ؛ حيث سطعت شمس الإسلام ، مشرقة بما لا تصدع فيه ؛ إذ كل ما فيه صون للنفس والعقل من السفك والضلال ، وصون للمال الذى هو قوام الحياة ، وعمود بقائها . والدين سياج لهذا كله ، فقد أسلم السلف طواعية ؛ لأنهم عرفوا الإسلام عدلاً وإحساناً ورحمة ، ومن الظلم البين : أن ينسب إليهم التشدد فى الفروع ، وقد كانوا أرحب صدرًا ، وأوسع فكرًا من هذا الذى ينسب إليهم ، لقد عرفوا الإسلام سبيلًا إلى جمال الحياة ، بدعوته الكلية التى هى أشبه بالطريق المستقيم السريع ، قبل أن تنشأ على جوانبه الفروع ، عرفوه مجمعا للأشتات ، لا طوائف ولا جماعات ، وهم فى كنفه جماعة واحدة كالجسد الواحد ، ينعمون ولا يشقون ؛ إذ هم لا يتفرقون أحزابًا ، كل حزب بما لديهم فرحون . أول ما يقرأون فى كل سورة من سور القرآن الكريم : (بسم الله الرحمن الرحيم) فعرفوا الله رحمانًا رحيمًا وعرفوا النبى - ﷺ - بالمؤمنين رءوفًا رحيمًا ، وبالكافرين هاديًا وسراجًا منيرًا ، يدعو لهم بالهدى وقد بعث رحمة للعالمين ، يتلو عليهم كتاب الله تعالى ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . فمن ابتعد قربه ، ومن اقترب علمه ، ومن أخطأ أرشده ، ومن تاب قبله ، ومن اعتذر عذره ، لا يكلف من العمل فوق الطاقة ، ولا يقدم نافلة على فريضة .

وهذا الكتاب صورة للإسلام الذى عرفه الصحابة والذى هو الفطرة بلا شوائب ولا مغالاة ولا مبالغة ، وسوف تبقى هذه الصورة مابقى القرآن يتلى ، وما بقيت السنة الصحيحة فى قلوب المسلمين .

* * *

المحتويات

الصفحة	الموضوع
5	تقديم
25	الفصل الأول : قضايا معاصرة بين الحق والوهم
25	التوبة
27	العلاج بالقرآن الكريم
30	تفسير الأحلام
33	الاستخارة
38	زيارة الأولياء والأضرحة
45	القصص والروايات
53	العبرة
59	الفصل الثاني :
59	إسلام أبي بكر الصديق
62	إسلام علي بن أبي طالب
65	إسلام عبد الله بن مسعود
70	إسلام عمر بن الخطاب
76	إسلام خالد بن سعيد
80	إسلام الطفيل بن عمرو
83	إسلام (حمزة) سيد الشهداء
87	إسلام أبي ذر الغفاري
89	إسلام أبي العاص بن ربيع
92	إسلام ضماد بن ثعلبة
95	إسلام صهيب بن سنان الرومي .. وعمار بن ياسر
100	إسلام عبد الله بن سهيل بن عمرو
102	إسلام نوفل بن الحارث بن عبد المطلب

الصفحة	الموضوع
105	إسلام النضير بن الحارث العبدى
108	إسلام سهيل بن عمرو
111	إسلام عبد الله بن الزبعرى السهمى
114	إسلام معبد الخزاعى
118	إسلام عباد بن بشر الأشهل
120	إسلام الراعى
123	إسلام مالك بن عوف
127	إسلام أبى مخذورة
	إسلام أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب .. وعبد الله ابن أبى أمية
129	
133	إسلام وائلة بن الأسقع الليثى .. وأخته
138	إسلام عدى بن حاتم الطائى
141	إسلام سعد بن معاذ .. وأسيد بن حضير
148	إسلام كعب بن زهير بن أبى سلمى
150	إسلام قرعة بن هبيرة
154	إسلام عمرو بن عبسة السلمى
156	إسلام عمير بن وهب الجمحى
158	إسلام شطب الممدود
161	إسلام سلمان الفارسى
163	إسلام أبى سفيان
165	إسلام ضمام بن ثعلبة
168	إسلام خالد بن عقبة
170	إسلام الحارث بن عقبة .. وعمه: وهيب بن قابوس
174	إسلام الحارث بن سويد المخزومى
176	إسلام الحارث بن هشام المخزومى

الصفحة	الموضوع
179	إسلام حصين بن عبيد الخزاعى
181	إسلام أسلم الحبشى الأسود
184	إسلام الأحنف بن قيس
187	إسلام ثمامة بن أثال الحنفى
190	إسلام جابر بن سليم
193	إسلام جبار بن سلمى الكلابى
195	إسلام الحارث بن ضرار الخزاعى
198	إسلام حويصة بن سعود الحارثى
202	إسلام صرمة بن أبى أنس الأنصارى
205	إسلام الجارود بن بشر بن المعلى
208	إسلام راشد بن عبد ربه السلمى
210	إسلام فضالة بن عمير بن الملوح الليثى
213	إسلام مسعود بن هنيدة
216	إسلام عثمان بن أبى العاص الثقفى
220	إسلام أبى رافع
225	الفصل الثالث : الإسلام فى عقول الصحابة
227	الإسلام والرسالات السماوية السابقة
230	إسلام المقاصد
234	إسلام العطاء
236	إسلام الإحسان
238	إمامة المعانى
242	إسلام الستر الصحيح
244	الجمال فى الإسلام

* * *